

ثقافة البعد الواحد

ثقافة البعد الواحد

دكتور

سعيد إسماعيل علي

أستاذ أصول التربية

كلية التربية - جامعة عين شمس

٢٠٠٢

علاء الكنب

٢٨ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

عالم الكتب

نشر * توزيع * طباعة

الإدارة:

١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون: ٣٩٢٤٦٢٦

فاكس: ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة:

٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون: ٣٩٢٦٤٠١

ص ب: ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدي: ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الايداع ٢٠٠٢/٢٠٨٢٧

ISBN: 977-232-336. 2

مطبعة أبناء وهبه حسان

٢٤١ (١) ش الجيش - القاهرة

٥٩٢٥٤٠ : ☎

مقدمة

عندما تولى د. عاطف صدقى الإشراف على المجالس القومية المتخصصة ، بعد تركه رئاسة الوزراء ، عام ١٩٩٦ على ما أنكر ، صدرت تعليمات بالألا تريد مشاركة أى عضو من المجالس على شعبتين فقط ، وكان التقليد أن عضو المجلس يمكن أن يشارك فى عضوية شعبه كلها .

وكنت ، بالإضافة إلى مشاركتى فى كل شعب المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا ، أشارك فى إحدى شعب المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب والإعلام بدعوة من الراحل د. سليمان حزين ، ألا وهى شعبة الثقافة .

ولم أتردد طويلا فى الاختيار ، إذ قر رأبى على أن أتمسك بالمشاركة فى شعبة الثقافة ، وأتخلى عن جميع شعب مجلس التعليم باستثناء واحدة ، وهى التعليم الجامعى ، ففى شعب التعليم قلما أسمع جديدا يمكن أن يضيف لى ، إلا إذا كان الأمر متعلقا بمتابعة لوقائع تعليمية ، أما من الناحية الفكرية النظرية ، فلا ، بينما ، وأنا أجالس عددا من أعضاء شعبة الثقافة ، أجد أنى أسمع جديدا ، يضيف لى .

وكان هذا الاختيار يعكس الاتجاه العام لشخصى ، وتكوينى المعرفى ، إذ لا أبالغ فى قليل أو فى كثير إذا قلت أن ارتباطى بالثقافة والفكر على وجه العموم قد بدأ منذ سنوات التعليم الأولى فى المرحلة الابتدائية ، لا بمجرد القراءة النهممة لروايات أرسين لوبين وشرلوك هولمز ، فذلك كان أمرا مشتركا بين الكترة الغالبة من أبناء جيلنا ، ولكن امتد الأمر بى إلى قراءة مجلة الهلال بانتظام ، وما يصدر فى سلسلة كتاب الهلال لكبار الكتاب والمفكرين ، وأنكر أنى أثناء قراعتى لكتاب العقاد عن الحسين بن على رضى الله عنه ، كنت لا أفهم عددا غير قليل من كلماته ومصطلحاته ، مما كان له أثره الطبيعى فى ارتباك فهمى لجملة الكتاب ، وكذلك كتابه عن المسيح عليه السلام فى سلسلة كتاب اليوم ، ومع ذلك كنت مصرا على إكمال القراءة .

وشكلت لى روايات الهلال كذلك مصدرا آخر للتتقف ، وغير هذا وذلك ، مثل سلسلة كتب للجميع ، وإقرأ ، فضلا عن عشرات المجلات الأسبوعية والصحف اليومية ، وخاصة فى الفترة الملكية ، وأخص بالذكر أثناء تولى مصطفى النحاس رئاسة الوزارة من عام ٥٠-يناير ١٩٥٢ ، فقد كانت من أزهى الفترات التى موت فى حياتى حتى كتابة هذه السطور من حيث الثراء فى الكتابات المنشورة والتنوع الذى لم أر مثيلا له ، وكذلك حرية فى التعبير كانت فريدة حقا .
وهكذا كان الارتباط بالهموم والمجالات والقضايا الثقافية حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه المقدمة . . .

لكن يبدو أن امتهانى للتعليم كثيرا ما كان يطغى على جهدى فأجد نفسى منشغلا بقضاياهم وهمومهم ، فهل هذا استمر يصرفنى عن الثقافة ؟
إذا كان الأمر متعلقا بالمتابعة القرائية ، فلم يحدث ، ومع ذلك فإن أول مرة يظهر لى مقال فى مجلة شهرية فى يونيو ١٩٦٦ (الفكر المعاصر) كان عن فلسفة ديوى ، ثم أتبعته بمقال آخر عن الفلسفات المعاصرة ، وحاولت أن أكتب فى (المجلة) عن قضية ثقافية ، لكن لم أجد ترحيبا مع الأسف .
ومن حسن الحظ حقا أن المجال الذى تخصصت فيه (أصول التربية) يضرب بجنوره ، بالضرورة ، فى أرض الثقافة ، فأن تقول أصول التربية ، فمعنى هذا وجوب البحث عن الجذور فى أرض المجتمع ، والفلسفة ، والثقافة المباشرة ، والدين ، والتاريخ . . . وهكذا .

أكثر من هذا ، أن معيارى فى اختيار الأصدقاء يقوم على مدى الاهتمام الثقافى ، ومن هنا كان حزنى الذى لا يوصف بوفاء واحد مثل الدكتور فؤاد أبو حطب ، أستاذ علم النفس التربوى الراحل ، لأننى لم أر له مثيلا بين أساتذة العلوم التربوية متابعة للشأن الثقافى ، إلا أساتذة يقل عددهم عن أصابع اليد الواحدة !

ومن طريف ما يمكن نكره هنا ، أننى عندما أردت أن أهدى أول من أحببت من الزميلات فى الجامعة عام ١٩٥٥ ، كان مجموعة من الكتب ، مثل جمهورية أفلاطون ، ورواية الزنبقة السوداء لاسكندر ديماس ، والأجنحة المتكسرة لجبران

خليل جبران ، وكتاب رابع لا أنكره ، وكان أول خرج لى معها ، هو إلى دار الكتب بباب الخلق !!

وإذا كنت أقول دائما أن الكتب التي تنشر لى مجموعة من المقالات ، هي الأقرب إلى قلبى بحكم أنها أكثر تعبيراً عنى ، فإن الكتاب الحالى بصفة خاصة يعد فى مقدمتها لأنه لا يجمع فقط مقالات ، ولكنها تلك المقالات التي تتناول مسائل وقضايا ثقافية .

وربما يكون اختياري لعنوان أحد المقالات عنوانا للكتاب كله ، مؤشرا مهما لما أومن به ، فأنا بالفعل أنفر من تلك النظرات التي تقوم على البعد الواحد ، وأرى أنها نوع من التسطيح والنظر السهل للأمور ، فالذى يقول - مثلا - بعامل واحد يكون هو القائد فى التأثير والتوجيه فى حركة المجتمع ، يختار حلا سهلا ، ولكنه إذا أصغى إلى ما نؤكد عليه وهو أن الدنيا عموما ، والدنيا الإنسانية والمجتمعية على وجه الخصوص هي أعقد مما نتصور ، ولا يتم الفهم سوى الصحيح لهذا وذلك ، إلا بالقدر الذى نتجح فيه فى الكشف عن جملة العوامل المتعددة ، والمتفاعلة والمتشابكة . . . إذا حاول أن ينظر من خلال هذا النهج ، فسوف يجد أن المسألة عسيرة وصعبة ، لكن عسرها وصعوبتها لا يلقى حقيقتها .

وأصارع القارئ أن الكتاب الحالى قد أعدته مكتوبا على " الكومبيوتر " منذ أكثر من عامين ، ولكن لظروف لا داعى لأن أشغل القارئ بها ، لم ير النور إلى فى الأيام الأخيرة من عام ٢٠٠٢ .

وعلى الرغم من كثرة ما نشر لى من كتب ، فإنى الكتاب الحالى يعد (أول) كتاب يعرض بعض محاولات عبر سنوات مضت لاقتحام الهموم الثقافية ، مما يجعلنى أشعر بقدر غير قليل من القلق ألا يلقى القبول الذى أتمناه له وأرجوه ، والله أسأل أن يوفقنا جميعا على طريق المعرفة التي تتشد الحقيقة ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مصر الجديدة فى ٢٥/١٢/٢٠٠٢

مسئولية معلم اللغة العربية في التكوين الثقافي للمواطن*

ليس صدفة أن يرتد أصل كلمة (التأديب) المرادفة، إلى حد كبير، ما يعرف في لغتنا اليوم (بالتربية) إلى كلمة (الأدب) الذي كان جماع الثقافة في الاستعمال، لدى قدماء العرب.

وكان المدلول الأول لكلمة (أدب) في البيئة العربية الأولى يعني الكرم والضيافة وبذل الطعام ، فكانوا يقولون فلان أدب القوم، إذا اتخذ طعاماً ودعاهم إليه. ولما كان الكرم وبذل الطعام في تلك البيئة الجافة القاحلة جماع الفضائل كلها وعنوان السمو الخلقي عزة ورجولة، صاروا يطلقون كلمة أدب على كل خلق كريم، وأصبحت الكلمة في مدلولها تشمل جميع الأخلاق الكريمة والفضائل التي يجب أن يكون عليها الفرد وأن تكون أساس السلوك بين الناس في حياتهم. ثم إنهم نظروا فوجدوا أن رواية الشعر، وهو ديوان مفاخرهم، والعلم بأيام العرب وأمجادهم مما يزيد في النخوة والمروءة، ويربي مكارم الأخلاق، فصاروا يطلقون كلمة الأدب على الشعر وما يتصل به من المعارف الوجدانية. ومن كلمة الأدب بهذا المعنى، أنشئت كلمة (التأديب)، وكلمة (المؤدب) المرادفة لاصطلاح اليوم (المربي).

موقع العلم على خريطة الثقافة العربية:

وقد عني المسلمون بتلقي العلم من المعلمين عناية ملحوظة، وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقى الطالب العلم عن الكتب وحدها، وكان بعضهم يقول: من أعظم البلية تشيخ الصحيفة، أي أن يتعلم الناس من الصحف. وورد في أحد الكتب

* عرضت على شعبة الثقافة بالمجلس القومي للثقافة والإعلام والفنون ، إبريل ١٩٩٦
القاهرة، ونشرت بمجلة 'أخبار الأدب' في ١٩٩٧/٦/٢٩.

العربية: (من لا شيخ له فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان). وروي عن مصعب بن الزبير أنه قال: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذ من أفواه الرجال، فإنك لا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤ منثوراً. وروي عن الإمام الشافعي قوله: من تفقه من بطون الكتب، ضيع الأحكام. وفي رسائل إخوان الصفاء، أنه ليس في وسع كل إنسان معرفة العلم في أول مرتباته، ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ في تعلمه وتخلفه وأقوابله واعتقاده وأعماله وصناعاته.

وقد بلغ وعي العرب بتكوين المربي إلى الدرجة التي عرفوا عندها أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وعرفوا أن لا بد من أن يضاف إلى العلم، فن التربية، ليتمكن المعلم من دراسة نفسية التلاميذ، والنزول إلى مستواهم، والاتصال العاطفي بهم ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ. قال ابن عبدون: "والتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فإنه كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم".

وقد عقد ابن خلدون فصلاً شرح فيه هذه النظرية وجعل عنوانه (في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع)، جاء فيه: ".. مما يدل على أن تعليم العلم صناعة، اختلاف الاصطلاحات فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها، فدل ذلك على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، وإلا لكان واحداً عند جميعهم". وقال: "وملازمة المجالس العلمية وكثرة الحفظ والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف في العلم وتعليمه..". وقال: ".. ومن أهم ما يلزم في المعلم فتق اللسان بالمحاوراة والمناظرة، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم".

مركز المعلم بالنسبة للعمل التعليمي:

والمستقرئ لتاريخ الأمم والشعوب، قديماً وحديثاً، يستطيع أن يلمس صدق هذه الحقيقة التي نقول أن مقاييس التقدم بالنسبة لأي مجتمع بشري لم تعتمد في

وقت من الأوقات على حجم ما تملكه الأمم والشعوب من ثروات طبيعية أو ما تسخره من طاقات مادية بقدر ما تعتمد على حصيلة ما تيسره لها ثرواتها البشرية من الرجال والنساء، من خلق وسلوك وعلم ومهارة تولدها العقول وتستثيرها الضمائر، لأن فلسفة التقدم - في أي زمان ومكان - تعتمد على رصيد الثروة البشرية وكيفية إخراجها وتمييزها للاستفادة منها، بل إنه لا يمكن، عن غير طريق البشر وحدهم، تطبيق العلم وتطوير التكنولوجيا وتشجيع التعاون وتطوير التناقس، وهي العوامل الحاكمة في تقدم الأمم والمجتمعات.

وإذا كان التعليم يمثل هذه الوزن الثقيل، ويحتل مثل هذه الأهمية من حيث هو قوة لا يستهان بها في إحداث التطور والتقدم، فإننا لا نعتقد أننا نبالغ كثيراً إذا قلنا أنه بالقدر الذي نناقش فيه قضية (المعلم) مناقشة علمية صريحة، بالقدر الذي نضمن فيه - إلى حد كبير - البداية الصحيحة والمقدمة الضرورية لإصلاح التعليم وتطويره. ولو تصورنا أننا استطعنا أن نضع نتائج التعليم في أحسن صورة ممكنة وأن نحسن مستوى الكتاب الدراسي، وأن ننشئ المباني التعليمية في طول البلاد وعرضها بقدر يكفي الحاجة، وأن نجهز هذه الأبنية بكل ما تحتاجه من أدوات وأجهزة، ثم أبقينا المعلم بعد هذا، يورقه مركز اجتماعي سيئ، ويضعف من شأنه إعداد ساذج وبسيط، وتقلقه ضغوط اقتصادية تشل أو تقلل من فعالياته.. هل يمكن أن تثمر هذه الجهود أو تؤتي أكلها؟ الإجابة بالنفي بطبيعة الحال، لأن المعلم - كما قيل بحق - هو الحجر الأساسي في عمليتي التعلم والتعليم.

ولو تأملنا العلاقة بين المعلم والتلميذ، لوجدنا أنها تلعب دوراً هاماً في بناء شخصياتهم لدرجة أنه يمكن اعتبارها المفتاح الموصل إلى نجاح الموقف التعليمي أو فشله. إن التلاميذ الصغار كالمرايا تعكس حالة المعلم المزاجية واستعداداته الانفعالية، فإذا هو أظهر روح المرح والاستبشار والتفتح للحياة، كان خليقاً بتلاميذه أن يظهروا الابتهاج وروح الود والابتهاج والتحاب والتجاوب معه، وإن هو أظهر الاكتئاب والضيق والتبرم وسرعة التوتر لم يجد تلاميذه إلا ما

واجههم به. كذلك لا ينبت المعلم الذي اضطربت نفسه واختل الجانب الانفعالي من شخصيته إلا تلاميذ مضطربين انفعالياً ومنحرفين مزاجياً.

معلم اللغة العربية:

ويختلف موقع معلم اللغة العربية من العملية التعليمية عن موقع غيره من معلمي المواد الأخرى، ومصدر هذا الاختلاف طبيعة التربية اللغوية التي يقوم عليها وطبيعة المواد الدراسية الأخرى التي يقوم عليها غيرها.

فاللغة العربية ليست مجرد وسيلة اتصال، ولا مجرد مادة معرفية وإنما هي من أقوى وأمتن الخيوط في نسيج الروابط العربية، وذلك:

• لأنها - على تعدد لهجاتها - هي التي جمعت بين العربي والعربي في الجاهلية مع اختلاف الدين والدار، ومع العلاقات الممزقة المتناثرة على بساط الصحراء، وحملت إليهم مشاعر العروبة منذ عهد قديم.

• ولأن تقارب اللهجات قبل مطلع الإسلام في ظل بعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية ثم توحدتها في لغة قریش مع مطلع الإسلام وفي ظله - هو الذي زاد من الشعور بالأخوة العربية والإسلامية وعمق من معناها في النفوس.

• ولأن اللغة العربية حين انتقلت مع الراية الإسلامية إلى الأقطار الخارجية التي فتحها المسلمون كانت هي الأساس الأول الذي قام عليه تعريب هذه الأقطار، بعد أن أصبحت اللغة الأم لأكثرها، وبعد أن تراجعت أمام زحفها اللغات الأصلية، أو توارت مع ما توارى بهذه الفتوح من صفحات.

• وحين تفككت الدولة الإسلامية وانفرط عقدها إلى حبات، أو دويلات صغيرة وأوطان سياسية متعددة ظلت اللغة العربية بعد الإسلام هي العروة الوثقى بين كل من أصبحت اللغة الأم لهم، وإن تباعدت أقطارهم في الشرق والغرب.

ولم ينفصل عن الانتماء العربي إلا من استطاع أن يحيى موات لغته وينبعث عن طريقها تراثه وحضارته.

© وثم شيء آخر أضافته اللغة العربية، وما زالت تضيفه، على حياة الأمة العربية، هي أنها احتفظت لها بقسماتها وملامحها المميزة في ظل الإسلام وساعدتها على تخليد شخصيتها، وهذا هو الهدف الأكبر لكل أمة في تشيئة أجيالها كما يقول التربويون، فهي بما لها من ارتباط بالقرآن الكريم ومن تراث فكري وفني وروحي، كانت ولم تنزل أقدراً شيء على أن تحتفظ بهذه الشخصية ونقلها من جيل إلى جيل، وفيها ملامح الكيان العربي، وسمات الدين، وانطباعات الحياة المشتركة بكفاحها ونكرياتها ووشائجها، وبكل روابط الماضي لو انقطع حبله لأصبحت الأجيال الجديدة كالمعلقة في الهواء، قد فاتها قديم له كيانه وأصالته، ولم يغنها حاضر لا أساس له ولا مستقبل، بدون دعائم تحميه من الاضطراب وعدم الاستقرار.

© ثم إن التربية اللغوية تدخل في كيان كل مادة دراسية، لأننا - إذا استثنينا اللغات الأجنبية والمواد التي تدرس بها في بعض المدارس - وجدنا أن لغة التعليم السائدة في الوطن العربي، من أقصاه إلى أقصاه، هي اللغة العربية، فإذا ما استطاع التلاميذ تعلم اللغة مرتبطة بالفكر، ومرنوا على تمثيل الدقائق اللغوية، وتزودوا بقدر صالح من الثروة اللفظية والأسلوبية الفكرية استطاعوا في مجال المواد الدراسية الأخرى أن يتعمقوا الفهم ويحسنوا التعبير.

لكن النظرة العابرة إلى الواقع اللغوي تكشف لنا بوضوح أن لغتنا العربية في محنة لا تقل عن محنة أمتنا في التمزق والتشتت وأن هذه المحنة لتدعو إلى الأسى والحسرة، فمن المولم حقاً أن تصبح اللغة الفصحى بعيدة عن السنة مدرسي المواد المختلفة، وأن تصبح اللغة الجميلة العذبة الرقيقة غريبة عن أصحابها الشرعيين الذين من المفروض أن يكونوا حمايتها والزائدين عنها.

لقد وصل الأمر إلى حد استهتار واضح بها في وسائل الإعلام التي أخذت تلح على أسماع الناس وعقولهم بلغة مشوهة في ألفاظها وقواعدها حتى أصبح العامة يحسبون أن هذه الغثاثة هي اللغة الصحيحة، أما غيرها من لغة راقية فلا

يجوز لعامل متحضر أن يقرأها، فهي لغة عبية قديمة لا تصلح للحضارة والتقدم والنماء الحديث.

ولقد أخذ يتردد في أوساطنا التعليمية والثقافية والعلمية أن اللغة العربية لم تعد قادرة على مسايرة العصر ولا حمل علمه ولا استيعاب مصطلحاته التكنولوجية، وهذه الفرية التي قذفت بها لغة الضاد تحتاج إلى مناقشة طويلة ليس هنا مكانها، فضلاً عن أنه قد تناولها آخرون، إلا أن هذه الفرية قد أثمرت الدعوة إلى ضرورة أن يتلقى الطالب دروسه بلسان أجنبي، وهكذا أخذت اللغات الأجنبية تحل محل العربية خاصة في العلوم حتى أصبحت اللغة العربية تابعة للتطور بدلاً من أن تكون مواكبة له، وأخذ المثقف يجد غضاضة في الحديث بالقصحي بينما يطعم كلامه بالمفردات الأجنبية.

كيف يسهم معلم اللغة العربية في التكوين الثقافي للمواطن؟

يختلف إعداد معلم اللغة العربية عن إعداد متخصص أو باحث فيها، وذلك لاختلاف الهدف والوظيفة، فالباحث اللغوي يعني بدراسة اللغة كظاهرة اجتماعية، ويعني بتحليل المواقف اللغوية وتسجيل الملاحظات التي تساعد على فهم طبيعة اللغة وتطورها عبر القرون، وما طرأ عليها من تغيرات صوتية وبنائية وتركيبية، كما يهتم بتحليل اللهجات ودراسة الأطالس اللغوية، أي أنه يتفاعل مع اللغة من خلال التراث ومن خلال الكتابات والنقوش، أما معلم اللغة العربية فإنه يتعامل بها مع أعضاء المجتمع الذي يعيش فيه، وهو إذ يعلمها تلاميذه يعلمهم عملية الاتصال ومهاراتها من استماع وحديث وقراءة وكتابة، كما أنه يعلمهم كيف ينظمون فكرهم، وكيف يعبرون عن هذا الفكر مع مراعاة مقتضى الحال، وتعكس أهداف تعليم اللغة العربية هذا المفهوم منذ المرحلة الابتدائية.

وإذا كان (المحور التخصصي) و(المحور المهني التربوي والنفسي) أساسيان في تكوين معلم اللغة العربية، فإن (المحور الثقافي) يعد الضلع الثالث في مثلث هذا التكوين. ومن خلال المحور الثقافي تمتد آفاق المعلم إلى ثقافة عريضة

يستطيع بها أن يعرف العناصر الثقافية والحضارية السائدة في مجتمعه، وفي المجتمع العربي والإسلامي والعالمي. ولهذا المحور جانبان: ثقافته الخاصة التي تمت ولو بأدنى الصلات لمادته، ثم ثقافته العامة التي تتسع لمعرفة الدنيا من حوله، والتي تطالبه أن يعرف الأساسيات التي لا بد منها للمثقف، ولا سيما من يتقف غيره، وبها يستطيع أن يظل تلاميذه على هذه الأفاق الواسعة، ويستطيع كذلك إرشادهم إلى مصادر المعرفة كاستخدام المكتبة، والكشف في المعاجم، ودوائر المعارف. ومن شأن هذه الثقافة أن تجعل المعلم محباً للمعرفة، مقدراً للفنون والآداب، متطلعاً للمزيد من الاطلاع، ومتسامحاً في إبطاء المرجعي، وغير متعصب للرأي أو الجنس. ولا بد هنا أيضاً من تأكيد هذا العنصر ومن تفاعله مع العناصر السابقة وإلا فقد المجال التربوي سعة آفاقه، وأصابه القصور والجمود.

وفي رأينا أن المعلم لن يستطيع أن يقوم بمسئوليته الثقافية من خلال اللغة إلا إذا كان على درجة عالية من الوعي بأن دوره في التربية اللغوية لا يقف عند حد تزويد الآخرين بالمعرفة اللغوية فقط وإنما هي - بالإضافة إلى ذلك - تكثف الجهد على ما يسمى (بالتفوق اللغوي).

وهناك كثير من الأسباب التي من أجلها كان تذوق اللغة مهما غاية في الأهمية في بناء الشخصية:

فالسبب الأول يتعلق بطبيعة التعلم، فالتعلم ليس مجرد تقبل للمؤثرات الخارجية، ولكنه مجهود إيجابي من المتعلم يستدعي نشاط قواه أو سعيها للوصول إلى الشيء المتعلم، فالأشياء التي تجتذبنا إليها، وتستدعي نشاط قوانا وسعيها تصبح أعظم من غيرها رسوخاً في نفوسنا، وأطول بقاء، وهي التي تصير حقاً جزءاً من حياتنا العقلية.

والسبب الثاني يتعلق بما يصل إلينا عن طريق اللغة، فمعرفة كل منا بغيره ومعرفتنا بالعالم حاضره وماضيه ووقوفنا على تراث أمتنا وتراث غيرها من الأمم، كل هذا نصل إليه في الغالب عن طريق أدب اللغة، فأدب اللغة يتضمن أسمى ما سجله العقل الإنساني، يتضمن الآراء والقصص التي شعر الإنسان أنها

جديرة بالحفظ، كما يتضمن خبرة غيره من البشر، وحوادثهم ونتاج خيالهم، متلبوراً في ألفاظ تتداولها الأجيال المتعاقبة.

والشغف بالأدب أمر طبيعي عام، ولا يقتصر على المتقنين فحسب بل يشمل أيضاً من دونهم ممن حال الجهل بينهم وبين الاستمتاع بها في بطون الكتب، فهؤلاء أيضاً مشغوفون بالأغاني والأشعار الشعبية، وحكايات العجائز، وأحاديث العشائر، وأساطير القرية والغابة والجبل وغير ذلك. وجميع هذه الأنواع المختلفة من الأدب ترتفع قيمتها وتزيد جاذبيتها للنفوس إذا صيغت في صورة رائعة. على أن الصيغة والفكرة متصلان في العادة اتصالاً يتعذر فصله، فالفكرة ووسيلة التعبير عنها هما في الحقيقة شيء واحد، وهذه الوسيلة هي اللغة، فما لم نفهم الوسيلة جيداً ونتذوقها لا نستطيع أن نفهم هذا التراث الذي خلقه لنا أسلافنا أو نتذوقه حق التذوق.

والسبب الرابع لأهمية التذوق هو صلته بالذوق السليم، فعندما يتذوق الإنسان شيئاً عدة مرات فإن تكرار التذوق يؤول إلى أن يكون عنده معياراً نوقياً. وهذا المعيار يمكن أن نسميه عاطفة نحو الأشياء الشبيهة بما تذوقه الإنسان، بل ربما اتجهت هذه العاطفة فيما بعد نحو المبدأ أو المثل الأعلى الذي تتطوي عليه جميع هذه الأشياء وأشباهاها، وطور المراهقة هو أهم الأطوار لتوجيه الناشئ نحو المثل العليا وتمييزها عنده.

ويجب أن ندرك ما بين التذوق والذوق السليم من صلوات خلقية، ونظهر أهمية هذه الصلوات عندما نفكر في طريقة انتقال التدريب وفي أنه من المحتمل أن نحصل على بعض انتقال التدريب من المثالية الجمالية التي تصحب الذوق السليم إلى المثالية الخلقية، فإذا استطعنا أن ننمي في الفرد مثلاً أعلى شاملاً أو عاطفة عامة نحو كل ما هو جيد فربما أمكن أن تتأثر ناحية أخرى فيه - هي الناحية الخلقية - بانتقال التدريب إليها، ذلك لأن إنتاج أجود ما يمكن يستلزم جهداً زائداً. وعلى ذلك فالذوق السليم - الذي يستلزم هذا الجهد الزائد - ذو صلة ببعض الصفات الخلقية كالمثابرة والدقة والمضاء بثبات والنظافة. وأن ما يشعر به القراء

من المتعة واللذة أثناء المطالعة في الكتب الجيدة لمن خير ما يعالج به ما في الذوق السقيم من ميل نحو الكتب الرديئة. وإذا أمكن أن نبدأ تربية الناشئين بأن نغرس فيهم عادة الاستمتاع بالأدب الراقي ضعفت جانبيبة الأدب الرخيص لهم.

ويخطئ المعلم لو تصور أن مسؤوليته تنحصر في العمل داخل الفصل الدراسي، ذلك لأن كثيراً من أهداف المنهج الدراسي التي يسعى المعلم إلى تحقيقها تتحقق من خلال المناشط غير الصفية التي يمارسها الطلاب في المدرسة وخارج الصف الدراسي، كما أن فاعلية المعلم داخل الفصل تتوقف على مناخ النشاط العام في المدرسة. ومن هنا فالمعلم مطالب بأن يمد مجال عمله إلى تنظيم جماعات النشاط والإشراف عليها والمساهمة في التنظيم الإداري والفني والعلمي لهذه الجماعة.

يضاف إلى ذلك أن الإعداد العلمي للطلاب غير مقصور على ما يتم داخل الفصول، بل أن العديد من أهداف هذا الإعداد لا يتحقق بصورة كافية داخلها، وبأساليب التي تسمح بها إمكاناتها المادية والزمنية، كما أن التربية المتكاملة تقتضي وجود مناخ عام يسود المدرسة يهيئ للظروف والإمكانات المناسبة لتحقيق أقصى نمو ممكن للطلاب.

فيسقط الحواجز التقليدية التي تحيط بالعمل داخل الفصل تزداد إيجابية الطلاب، وتنمو قدراتهم وميولهم ومواهبهم، وترتفع درجة التعاون بين الطلاب ومعلميهم، ويتم تبادل الفكر الحقيقي بينهم، وتزول بعض محددات التعلم كال حفظ والتنكر، ليحل محلها الاهتمام بالابتكار والعمل العلمي.

ويمكن للمعلم أن يستثمر المجالات التالية سعياً نحو تكوين ثقافي للطلاب:

١- نادي اللغة العربية، لتكثير المحفوظ من الأدب العربي في عصوره المختلفة وتنمية مهارات الاستماع وتنمية عادات صحيحة للقراءة وميول القراءة والتدريب على حسن ممارسة الحوار.

٢- الصحافة المدرسية، حتى يتمرس الطالب بألوان النقد والتعليق والتعبير عن نفسه والكشف عن مواهبه وميوله والتمرس بالأساليب المهنية منذ صغره والوعي بالمشكلات الاجتماعية والتعليمية.

٣- الإذاعة المدرسية، للتدريب على حسن الأداء وجودة الإلقاء وإتقان اللغة ودقة الأساليب، وهي تربي في التلاميذ الجرأة وسرعة الخاطر ومتابعة الأخبار والقضايا الملحة.

٤- جماعة التمثيل، حيث تسعى إلى تفرس الطالب بفنون الحياة وبخبرات ومهارات وألوان من السلوك ونطق واضح وأداء وصوت معبرين والإطلاع على الروايات المحلية والعالمية وتنمية للجانب الجمالي.

٥- الجماعة الأدبية: حيث تتاح الفرصة للمنافسة الأدبية والمباريات الشعرية والنثرية والنقدية والبلاغية، وإتاحة الفرص للإبداع الأدبي.

٦- جماعة الخطابة حيث تتطلب وعياً بالمناسبات القومية والدينية والاجتماعية والوطنية، وتتيح الفرصة للتدرب على مواقف المشافهة والإلقاء وإتقان ما تتطلبه الخطابة من مهارات.

... إلى غير ذلك من جمعيات تتيح الفرص للتثقيف والتنقف.

وسواء كان وسيط التثقيف نشاطاً تعليمياً خارج المنهج أو كان هو المنهج

نفسه، فإن المعلم يستطيع أن يقوم بهذه الأدوار التثقيفية التالية:

١- ربط الطالب بتراث أمته وحضارتها.

٢- تقبل واحترام المتغيرات الجديدة غير المحرمة دينياً.

٣- إمداد الطالب بالمعلومات والمعارف التي تعمق نظرته للحياة.

٤- تنمية القدرات العقلية المختلفة كإدراك العلاقات والنقد والتحليل والابتكار والإبداع.

٥- شحذ عواطف الطالب وتهذيب وجدانه وتنمية مشاعره.

٦- تنمية وعي الطالب وحساسيته لمشكلات مجتمعه.

٧- غرس الاتجاهات الإيجابية نحو البيئة كالحفاظ عليها وحسن استثمارها.

- ٨- غرس الفضائل والقيم والصفات والعادات الحسنة.
- ٩- تنمية الإحساس بجمال الكون وبيدع صنع الخالق.
- ١٠- تنمية الثروة اللغوية للطلاب وتمكينه من حفظ النصوص الجيدة.
- ١١- تنمية المهارات القرائية المختلفة.
- ١٢- جودة الإلقاء وإتقان مهاراته.
- ١٣- تنمية عادات الاستماع الجيد ومهاراته.
- ١٤- تنمية القدرات على إدراك جمال النغم وروعة إيقاع الكلمات وموسيقى الشعر.

- ١٥- معرفة الأشكال الأدبية المختلفة من شعر وقصة ومسرح..إلخ.
- ١٦- تنمية حب المكتبة والمهارات المكتبية.
- ١٧- استثمار وقت الفراغ فيما هو مفيد والاستماع به.

وقد تدارس مؤخراً عدد من الخبراء في الاجتماع الإقليمي التحضيري للدورة الخامسة والأربعين للمؤتمر الدولي للتربية (اليونسكو) والذي عقده المكتب الإقليمي للتربية في البلاد العربية (اليونسكو) وثيقة العمل الرئيسية عن (تعزيز دور المعلم في عالم متغير)، بمدينة العين بدولة الإمارات العربية في الفترة من ٨-١٠/٤/١٩٩٦، وقد جاء في هذه الوثيقة أن التحولات والتحديات التي تواجه التعليم تختم تغييراً في أدوار المعلمين بحيث أصبح المعلم مسؤولاً عن تنظيم بيئات التعلم ومسهلاً لتعلم الطلبة لا ناقلاً للمعرفة، ومن هنا فإن وظائف المعلم الجديدة تتطلب إعادة النظر في برامج إعداد المعلمين وتدريبهم وتأهيلهم كي يتمكن المعلمون من القيام بأدوارهم الجديدة.

ويمكن إبراز التوجهات اللازمة لتطوير برامج إعداد المعلمين على النحو

التالي:

أ- تحديد الكفايات التعليمية المهنية للمعلم في ضوء الأدوار المتوقعة منه في عالم متغير.

ب- تصميم البرامج في ضوء الكفايات التعليمية المهنية.

- ج- أن تكون محتويات المواد الدراسية كافية، حديثة ومتطورة.
- د- أن تتضمن مواداً وموضوعات تتطلبها شروط الحياة المعاصرة كالتعامل مع التقنيات الحديثة وتأثيراتها المتعددة والعميقة على عمليات التعلم والتعليم والعمل.
- ه- أن تؤكد محتويات المناهج الدراسية على ما يتصل بالتنمية البشرية لأبناء الأمة وأن تتواءم مع متطلبات الواقع المعاش وتستشرف آفاق المستقبل.
- و- أن يتم اختيار المتقدمين لبرامج إعداد المعلمين في ضوء معايير تتضمن استقطاب فئات متميزة من الطلاب.
- ز- تحسين التدريب العملي في برامج إعداد المعلمين بحيث يكون خبرة موجهة ومنظمة تمكن الطالب المعلم من الاضطلاع بالعملية التعليمية ومتطلباتها المهنية، وهذا بالطبع يتطلب إطالة مدة التدريب العلمي وتوفير المتطلبات المؤسسية من مشرفين ومعلمين وآليات تقويم.
- ح- رفد مؤسسات إعداد المعلمين بالعناصر التعليمية الكفوة.

أما فيما يختص بمعلم اللغة العربية بصفة خاصة فمن الضروري:

- أن تعود الدراسة بالكليات إلى طابعها الأصيل من التركيز على المهارات التعليمية ولا سيما الأداء، التفكير المنطقي المنظم والتعبير السليم، ونقل الفكرة، شائقة مؤثرة، والقدرة على الحديث، والكتابة بلغة سليمة، والتقويم الصحيح، كما تنمي عن طريق هذه الدراسة ذاتية الطالب في البحث والاطلاع، والاعتماد على المصادر الأصلية والمعاجم والموسوعات.
- العناية بالاختبارات الشفهية في تقويم المهارات اللغوية التي لا يصلح لتقويمها غير هذا النوع من الاختبارات، على أن تكون أساسية في نجاح الدارس أو رسوبه.
- من الطبيعي أن يتضمن برنامج الإعداد الثقافي ما يمكن المعلم من الإلمام بقاعدة ثقافية عريضة، ويتمثل ذلك في الاطلاع على عناصر الحضارة والثقافة

الساندة ولأهم المشكلات التي يعانى منها المجتمع العربي الإسلامي والمجتمع العالمي.

• أن يعتمد تعليم اللغة العربية في بداية المرحلة الأولى على ألفاظ اللغة الفصيحة مما تشيع في استخدام الأطفال، على أن يقترن ذلك بعملية إثراء لغتهم، وتزويدهم بما هم في حاجة إليه من الألفاظ والتراكيب التي تتلاءم مع مستواهم اللغوي والعقلي.

• أن يرتبط التعليم بلغة العصر وألفاظ الحضارة، على أن يقترن ذلك باقتباس ما يشوق التلاميذ من التراث العربي، وما يلائمهم وما يربطهم به على نحو متدرج.

• مراجعة كتب المواد الأخرى، مراجعة لغوية لضمان سلامتها من الناحية اللغوية والتقريب بين مستوياتها ما أمكن ذلك.

• توجيه الجهود إلى توفير أدوات القياس الموضوعية التي تساعد على تحقيق أهداف الدراسة اللغوية وعلى أن يبدأ ذلك في المجالات التي تثبت أنها صالحة لذلك لقياس الثروة اللغوية وقدرات القراءة بنوعيهما (الجهرية والصامتة) واستخدام القواعد النحوية والإملائية، وعلى أن تكون نواة ذلك قيام جهة مسئولة على جمع البحوث والدراسات التي أجريت في ميدان تعليم اللغة على الصعيد العربي، والاعتماد في ذلك ما أمكن على الاتصال الشخصي.

المسئولية الثقافية للغة العربية*

اللغة نوع من أنواع التعبير. ومن وسائل التعبير المعروفة: الضحك، والرقص، والغناء، والموسيقى، والرسم، والكلام، والكتابة، وغير ذلك. فإذا شعر المرء بالسرور فقد يعبر عن هذا السرور بقصيدة شعرية أو بصورة يرسمها أو بالرقص أو بالغناء أو بالضحك أو بغير ذلك. ويصحب هذه التعبيرات عادة إحداث شيء من التأثير في الغير. وتأثر الكائنات الحية بالتعبيرات التي تبدو على أبناء جنسها ظاهرة معروفة في عالمي الإنسان والحيوان، فإذا طار طائر من أثر الخوف مثلاً ورآه طائر آخر من نفس الجنس فإنه يقلده ويطير مثله. وإذا صاح ديك على قرب ديك آخر يتأثر بهذه الصيحة ويقلده، وهذا يدل على أن التعبير الصوتي للحالات النفسية ظاهرة موجودة عند الحيوان، ومن شأنه أن يؤثر أحياناً في سلوك الأفراد الذين هم من نفس الجنس، ولكن أرقى أنواع التعبيرات الصوتية وهي الكلام موجودة فقط عند الإنسان.

والوظيفة الأساسية للكلام هي اتصال المتكلم بغيره اتصالاً يمكنه من الحصول على بعض ما يريد، ولكن الاتصال بالكلام لا بد فيه من وجود المتكلم والمخاطب معاً في نفس الوقت، وهذا لا يتيسر دائماً، ولذلك اضطر الإنسان إلى اختراع طريقة أخرى في حالة بعد المسافة أو الزمن، فلبجأ إلى الرسم، ثم اختراع الكتابة.

وكلمة (لغة) أصبحت تطلق الآن على التعبير الصوتي أو الشفوي بالكلام والتعبير البصري أو التحريري بالكتابة.

ولكن اللغة ليست مجرد ألفاظ تكتب أو تقال أو تسمع أو تقرأ، فاللغة لها علاقة كبيرة بالتفكير، بل هي جوهر التفكير في نظر بعض علماء النفس والمنطق. وإذا تأمل الفرد نفسه وجد أنه لا يمكنه أن يفكر تفكيراً منتجاً إلا إذا صاغ هذه

* نشرت بأخبار الأدب في ٢٦/١٠/١٩٩٧.

الأفكار في عبارات أو رسم أو نموذج أو غير ذلك. وصوغ الأفكار في عبارات هو الشائع. ونلاحظ أن الفكرة إذا تحددت فلا بد من لفظ أو رمز يحتويها. وإذا أردنا أن نتبادل التفكير فإن وسيلة النقل التي تستعملها لذلك هي اللغة، وبعبارة أخرى: الألفاظ لها قيم، أو معان، أو دلالات، ونحن نتبادل الألفاظ على أساس مدلولاتها أو قيمها وأحياناً تكون للعملة قيمتها الحقيقية عند المتبادلين وأحياناً تكون عملة زائفة لا تساوي قيمتها الظاهرية التي توهم بها، وهذا يحدث إذا كنا نستعمل ألفاظاً دون أن نفهم معناها الحقيقي. وفي استعمال الألفاظ التي لا تدل على معناها الحقيقي خداع للمخاطب وفي أحيان كثيرة خداع للمتكلم نفسه.

وتربط اللغة العربية في العصر الحاضر، بين شعوب تعد بعشرات الملايين، فهي من حيث ذلك عامل توحيد قوي عظيم، ذلك بأنها قوام الثقافة المشتركة التي تصل أنحاء ذلك العالم الكبير الذي نسميه (العالم العربي)، لهذا نرى جمهرة علماء العربية تعمل مجمعة على إحيائها وبعثها من ذلك الركود الذي انتابها قروناً عدة، لتلاحق بما فيها من قوة الحياة، غيرها من اللغات الحية التي يتكلمها شعوب المدنية الحديثة.

وقد نرى أهل العربية في هذا الزمان يشعرون شعوراً عميقاً بما لها من أثر في خلق التصورات الحديث الملائمة لثقافتهم، والتعبير عن تلك العواطف التي تجيش في صدورهم، والآمال التي تمتلئ بها تصوراتهم، والخلجات التي تهتر لها مشاعرهم، فتراهم، وقد فزعوا، كل في الناحية التي يتصل بها، إلى نبش كل ما يتصل بحياة اللغة، ليستخلصوا من أثار الماضي المجيد، قواعد يتخذونها أساساً لبناء مستقبل أعظم من الماضي وأمجد.

وقد يحسن بنا في هذه الورقة أن نشير إلى حقيقة أساء الكثيرون في تفسيرها، ذلك بأن فئة من الباحثين يقولون أن القواعد اللغوية التي خلفها السلف من اللغويين قد لا يستها حالة من القداسة، أو أنها ألبست ذلك الثوب عمداً، اتقاء حلالات قامت في مدينتنا الأولى. والحقيقة أن سلفنا لم يلجؤوا إلى تلك القواعد ولم يقرروها إلا لحاجة غلبت على عصورهم، فأرادوا بها رد عادية الرطانة والمُجمة

عن اللغة. وقد استطاعوا بكدهم وجدهم وصفاء قرائحهم أن يضعوا للغة سواراً أشد من الصلب مرةً، بحيث تقصر عنها هجمات الشعوبيين، وأهل العُجمة، فحفظوا بذلك هيكل اللغة صاقياً وموردها عذباً غير مندنس بأكدار الدخيل من لغات الشعوب التي اختلطت بالعرب بعد القرن الثالث الهجري.

ويخطئ من يظن أن اللغة العربية في المدارس المصرية مادة كسائر المواد من رياضة وتاريخ و لغة أجنبية، فاللغة العربية بالنسبة لنا هي اللغة القومية، وهي أداة التنقيف التي نعتمد عليها في تحصيل معلوماتنا ما عدا اللغة الأجنبية، فما نحصله من الجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء، وما نطالعه للثقافة العامة إنما تكون أداته اللغة القومية، أو بعبارة أخرى هي اللغة العربية، بل هي التي نعتمد عليها خارج الدراسة، فهي التي نتوقف بها في قراءة الجرائد والمجلات والكتب غير المدرسية، وهي التي تدور عليها محاوراتنا وجدلنا وأحاديثنا في مجالسنا وإن حرفت قليلاً إلى العامية، وهي التي نستمتع بها إلى أحاديث الراديو وغير ذلك مما يدور بيننا في سائر الشؤون العامة.

فمن يملك اللغة القومية ملكاً صحيحاً يستطيع أن يضع يده على ثروة ضخمة من المعلومات القيمة، ويكون بيده مفتاح لقصر ضخم فخم يستطيع أن يتناول منه ما يشاء لتغذية عقله وروحه، ومن لا يملكها ملكاً صحيحاً يتعثر في هذه الثروة، ويتخبط فيها ولا يستطيع أن ينتفع بها ويحسن نقلها، ويشعر بكرهيتها ويعيش في ظلام.

ولعل من أهم مقاييس رقي أمة من الأمم مقدار عنايتها بلغتها القومية من حيث العناية بتعليمها ونشرها، والعناية بتسهيل صعوباتها، والعناية بوضع كتبها المشوقة الجذابة المفيدة للأعمار المختلفة والعقليات المتباينة، والعناية بمعلميها وإعداده إعداداً جيداً وتوسيع أفقه وإحاطته بما يعلي شأنه ويحفظ كرامته. فإن رأيت في أمة من الأمم معلمها القومي أقل إعداداً من غيره، وأنه لا ينظر إليه النظرة الكريمة التي تتفق وأهمية تبعته، ورأيت مكتبة اللغة القومية فقيرة غير جذابة، ورأيت أهلها لا يعنون بتقريب لغتهم وتذليل صعوباتها، فاحكم على الأمة بالتأخر

والضعف والانحلال. واللغة العربية، ومع غناها الواسع وثروتها الضخمة ومرونتها العامة، مصابة اليوم بشيء غير قليل من هذا.

وإن اللغات جميعها في أي مجتمع وفي أية ثقافة يصادفها الكثير من العوامل التي تعوق التعامل السوي معها، وهي معوقات تقع مسئولية التغلب عليها على عاتق أجهزة الثقافة والتعليم والإعلام والتنشئة الأسرية، ولكن المعلم، ربما أكثر من غيره، يستطيع أن يعالج مثل هذه الصعوبات وأن يتغلب عليها لو صح إعداده وسلم بنيانه وجدّ في عمله، فاللغة العربية التي تعتبر لغة التعليم والثقافة في مجتمعنا، واللغة القومية التي تربط حاضرتنا بماضينا وتربطنا بتراث الأجداد والآباء، يصادف المتعلم فيها بعض العقبات التي لا بد لمعلمها أن يأخذها في اعتباره للتغلب عليها، تلك العقبات وتلك التحديات هي:

١- أن المجتمع حركة مستمرة وفي تغيير دائم يشمل كل نواحي حياته علمياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وهناك نظريات جديدة تظهر في شتى المجالات وآلات جديدة تخترع، وهذه كلها تتطلب ألقاظاً جديدة للتعبير عنها وعبارات تعبر عن الوظائف التي تؤديها هذه التغييرات ومعلم اللغة العربية مسئوليته في هذا المجال، وكذلك المتقّف، أن يتعرف باستمرار على الجديد من الألفاظ وخاصة تلك التي وضعها ويضعها مجمع اللغة العربية.

٢- إن هناك بعض التحديات التي تتبع من طبيعة اللغة العربية نفسها، فهي من اللغات التي تتميز بخاصية الإعراب، والإعراب عملية معقدة في تعلمها، وهو يرتبط بطبيعة العربية وليس من السهل التجاوز عنه. وكذلك اللغة العربية في تركيب الجملة لها أوضاع قد يصعب على المتعلم الإمام بها، وهكذا نجد أن بعض التحديات تنشأ من اللغة نفسها. وكذلك تبدو الصعوبة أحياناً في رسم بعض الكلمات، ودور المعلم في هذه الناحية أن يحاول بقدر المستطاع الربط بين علامات الإعراب والمعنى المتضمن في التركيب بحيث يشعر التلميذ المتعلم أن الخطأ في الإعراب يترتب عليه خطأ في المعنى، وكذلك الخطأ في رسم الكلمة مثلاً قد يترتب عليه خطأ في الفهم.

٣- أن المتعلم يأتي إلى المدرسة بلغة هي لغة حياته اليومية. هي لغة التخاطب في البيت وفي الشارع ومع رفاقه من الأطفال أو من الشباب، والمدرسة تعلمه اللغة العربية، لغة الثقافة والمعرفة، ومثل هذا الازدواج في اللغة، ومثل هذه الثنائية تعتبر تحدياً في تعلم اللغة وتعليمها. ولا شك أن التقارب بين لغة الحياة اليومية واللغة العربية يأخذ اليوم طريقه وخاصة بعد أن انتشرت الإذاعة والتلفزيون، وانتشرت الصحف والمجلات، وزاد عدد الكتب التي تخرجها المطابع.

٤- أن المعلم نفسه قد يكون من عوامل إعاقة تعليم اللغة، وذلك بما يوجد في الجو المدرسي من عدم التوافق بينه وبين تلاميذه، أو بما يقدمه لهم من مواد لتعلم اللغة قراءة وكتابة.

٥- أن كتب تعليم اللغة نفسها قد لا تشبع حاجات المتعلمين ولا تتصل بميولهم ولذلك تصبح عملية تعليم اللغة ليس لها من دافع داخلي عند المتعلم.

وبالنسبة للثقافة فإن اللغة يمكن أن تقوم بالوظائف التالية:

١- كأداة تفكير: فقديمًا أدرك شيخ الفلاسفة سقراط أن الألفاظ مفتاح التفكير، وطالب مخاطبيه أن يحددوا الألفاظ التي يستعملونها. وفي العصر الحديث نجد اهتماماً كبيراً بالبحث في العلاقة بين اللغة والفكر، فالبراجماتيون يعتبرون الألفاظ والقضايا خطأً للتفكير والعمل. وأصحاب المنطق الوضعي يقيمون منطقهم على أساس أن الكلمات إما أن يكون لها واقع حقيقي يمكن أن نحسه أو نختبره في الواقع، وفي هذه الحالة تكون ذات معنى وتدخل في نطاق البحث المنطقي، وإما أن يكون لها واقع يمكن الإحساس به أو اختباره، وفي هذه الحالة تكون أوهاماً باطلة أو كلاماً فارغاً.

٢- كأداة اتصال: فعن طريق الكلام والاستماع يستطيع الإنسان أن يتصل بأفراد الجماعة التي يعيش فيها ليقضي حاجاته اليومية، ويعرف ما لديهم من أفكار ومعلومات وآراء ومشاعر، ويشارك في توجيه نشاطهم. وعن طريق القراءة والكتابة يستطيع أن يخرج من حدود الجماعة الصغيرة ويتصل بالمجتمع

يحقّق مطالبه ويطلع على ما يجري فيه من أحداث وتطورات، ويكسب خبرات أوسع ومعلومات أكثر، ويؤدي ما عليه من واجبات نحو هذا المجتمع. ٣- كأداة للتعبير: وأظهر ما تظهر هذه الوظيفة في الألب، سواء أكان وصفيّاً أو إنشائيّاً. وهذه الوظيفة للغة لا يمكن فصلها عن الاتصال لأن الأديب وهو ينتج يفكر في سامعيه أو في قراء معينين، وهذا ما يجعلنا نضع التعبير تحت الاتصال، ولا يكون قسماً مستقلاً بذاته.

٤- كأداة للتسجيل: فمن طريق اللغة المكتوبة يتم تسجيل خبرات وتجارب وأفكار ومعلومات الآخرين، فيستطيع الإنسان أن ينقل أفكاره على اختلاف العصور كما يستطيع تعرف أفكار غيره ممن يعاشونه في نفس الزمان. وهي فوق ذلك تحفظ لنا تراث الأجيال، مما يتيح لنا بناء صرح الفكر والإفادة من تجارب وأفكار السابقين والإضافة إليها، واللغة بهذا الاعتبار تعدّ طريقاً للحضارة وحاقظة للفكر الإنساني.

وعندما نقرأ عن واقع اللغة العربية الآن على ألسنة أبنائها والشكوى من هذا الواقع سنواجه بعدد من الكلمات والعبارات التي ربما دلت معاني كل واحدة منها على شيء محزن، فإذا تجمعت معاني كل هذه الكلمات والعبارات وجدنا أنفسنا أمام صرخات باكية حزينة مرتجفة واجفة لأن الضعف في اللغة العربية والشكوى منه أصبح حديثاً شائعاً، فما من متخصص في علوم اللغة أو في الألب أو إعداد مناهجها أو في رسم استراتيجيات تعلمها وتعليمها، وما من مفكر له اهتمامات لغوية أو كاتب له نظرة قومية قيّمة، وما من متخصص في العلوم الدينية أو الاجتماعية وما من باحث في علوم اللغة، أو في علوم تعليمها إلا ويرى أن واقع اللغة العربية الآن على ألسنة المتعلمين والمتقنين مأساة نعيشها وقصور أصاب بياننا وتحلل استشرى في تعبيرنا، وفي سياق الشكوى يشير بعض المختصين إلى مظاهر تتجلى أولاً في الأخطاء المتعددة التي يرتكبها طلاب في بعض مواقف النشاط اللغوي، من قراءة وتعبير تحريري وشفوي، وفي الوقت الذي نلاحظ فيه أن كثرة المتعلمين في الأمم الأخرى تحافظ على سلامة لغتها، نجد في

أغلب الأحيان أنه قل من يحافظ عليها في بلداننا حتى من خريجي الجامعات والمعاهد وممن تخصصوا في اللغة العربية أيضاً، حيث نجد في جميع مجالات حياتنا الثقافية الأخطاء اللغوية الفاحشة في مقال إذا كتب، أو في قصة إن ألفت، أو في صحيفة يومية أو في نشرة إذاعية.

ولا تتجلى هذه المشكلة في الأخطاء اللغوية فحسب، وإنما تتجلى في القصور في عملية التعبير اللغوي، فعندما يتقدم أحد إلى دائرة أو وزارة أو مؤسسة يود مطلباً معيناً، ويوعز إليه بكتابة ما يوده نجد الارتباك بادياً، ويتضح هذا الارتباك في أثناء المناقشات أو إلقاء الكلمات في المناسبات المختلفة، بحيث لا يتمكن أحدنا من الانطلاق في هذه المواقف بسهولة و عفوية. ويصل الأمر إلى أن يصبح استخدام اللغة عبئاً حيث يكون العبث في اللغة -أحياناً- في أعلام تستعين بالله وتكتب فيما تظنه فصيحاً، وتقرأ فتقرأ ركافة في اللفظ يصرخ منها الذوق، وأغلاطاً فواحش تصطك لها الأذان.

وهكذا تجاوزت الشكوى إلى الخريجين ممثلين في وسائل الإعلام وفي دواوين الحكومة، فما نحن نلاحظ دون عناء الخلل اللغوي ينتشر في المكاتبات الرسمية في معظم الدواوين والمصالح الحكومية، وهما هي الصحافة اليومية والمجلات الأسبوعية، بل والكتب العلمية قد سرى إليها الخطأ دون مبالاة في صورة تشوهاها وتؤثر على مكانتها، وقد كانت من قبل حريصة كل الحرص على سمو الفكر واللغة والسلامة اللغوية في أرقى صورها. أما بالنسبة للإذاعة والتلفزيون فيشيع اللحن والتحريف إلى درجة مثيرة حتى ليخيل إلى السامع في كثير من الأحيان أن المتكلم يتعمد هذا التشويه لأنه مما لا يظن أن يتورط مثله فيه جهلاً، ولا نرى حاجة إلى ذكر أمثلة لما نقول، فالأمر معروف ومشهور بين المتقنين.

وربما جاز لنا أن نسوق مثلاً من عناوين انتشرت على صفحات صحيفة في عدد واحد (المنصور)، مما صدر في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٩٦، مع الاعتذار مقدماً عما قد تثيره هذه السطور من مشاعر ضيق:

- ثاني .. يا عم الشيخ
- أهل النوبة أجدع ناس
- ليلي علوي : لأ وايه؟ ذكية جداً
- يسرا: يخرب بيت حلاوتك
- إصحى ل(اللون) إصحى لل Colour
- مش ده برضه سؤال .. يا جدعان
- الدولة تستثمر المتقنين (وتطلع عينهم)

ويروي أحد الأساتذة المتخصصين في طرق تعليم اللغة العربية أنه في دراسة عن الأخطاء النحوية عند طلاب قسم اللغة العربية بكليات التربية وجد أن نسبة كبيرة تبلغ ٨٤,٣% من عدد الطلاب يخطئون في استخدام قواعد اللغة، وهؤلاء - للأسف - من نعقد عليهم بعد عام واحد لأنهم طلاب السنة النهائية آمال تعليم أبنائنا الاستخدام الصحيح لقواعد اللغة العربية، وهذه النسبة تعد مؤشراً في غاية الخطورة يدعو للدهشة والتوقف الحقيقي الجاد لمجابهة هذا الخطر الداهم.

ولنقرأ لنفس الأستاذ الجامعي المتخصص:

لقد جلست أصحح أوراق امتحانات مادة طرق تدريس اللغة العربية لطلاب وطالبات اللسانس في بعض كليات التربية، وما أن أخذت أقرأ أوراق الإجابة حتى هالني ما وجدت فارتجفت هلعاً وخوفاً من أن تكون أوراق طلاب اللسانس في اللغة العربية قد استبدلت بأوراق تلاميذ في الصف الثاني الابتدائي لا يكاد الواحد منهم (يفك الخط).. هالني ما وجدت وبس ما وجدت. بحثت عن لغة عربية فلم أجد لا معنى ولا أسلوباً ولا نحواً ولا إملاءً ولا خطأً ولا فكراً ولا شيء يمت للغة بصلة .. وجدت ويا هول ما وجدت أن مدرسي المستقبل للغة العربية لا تستقيم لهم عبارة، ولا يستبين لهم معنى، ولا تتضح لهم فكرة، ولا تصح لهم الكلمة خطأً أو هجاء، ولا يستطيعون تقديم فقرة مقروءة أو فكرة مفهومة..
ومن عينة ما قدمه زميلنا برهنة على ما يقول، هذا النص، الذي أكد أن مثله كثير جداً:

* د. محمود كامل الناقية.

• قراءة صمته (أي صامتة) - قراءة صامطة (أي صامتة) - الصبورة (الصبورة) - التبشير (الطباشير) - أوريد (أريد) - أتقنوها (أتقنوها) - الإيثارة (الإيثارة) - تآدى (تؤدى) - إجابي (إجابي) - يبداء (يبدأ) - قراعت (قرأت) - رغبنا (رغبة) - فطرة (فترة) - يتكلام (يتكلم).

ومع الإقرار بالدور الفعال للمعلم بالنسبة للغة العربية سلباً أو إيجاباً، إلا أننا نشير إلى مواقف أخرى لها دورها الخطير في الدفع بالواقع السيء إلى مزيد من السوء، فإذا كان من المسلم به الآن أن الإذاعة والتلفزيون يستأثران بساعات طويلة سماعاً ومشاهدة، من وقت ملايين المواطنين، فإن هذا يجعلهما يتفوقان على معاهد التعليم انتشاراً وقوة تأثير، وتبرز الأعمال الدرامية بصفة خاصة في مقدمة البرامج التي تستأثر باهتمام الناس، ومن ثم تتسلل من خلالها كثير من الألفاظ والتعبيرات التي سرعان ما يرددها الأطفال والشباب، وتصبح جزء أساسياً من مفردات أحاديثهم، بل وكتاباتهم، ومن ثم تفكيرهم. وتشارك السينما الإذاعة والتلفزيون في ذلك. وهنا تصطدم أسماعنا بكلمات وعبارات مثل: (البابكو - الألف جنيه)، (الأرنب - مليون جنيه)، (اللحوح - الجنيه)، (فلسع - أسرع)، (يرش - دفع البقشيش والرشاوى)، (الخنزيرة والزلمكة والشبح - السيارة المرسيديس)، (يسقع - الانتظار حتى يرتفع السعر) .. وهكذا مما لا ينتمى حتى إلى العامية.

وإذا كان المستمع، منذ عشرات السنين يستمع إلى أم كلثوم تردد:

الدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

ومحمد عبد الوهاب:

أين من عيني هاتيك المجالي يا عروس البحر يا حلم الخيال

فإن مئات الألوف من الشباب قد أصبح وجدانهم ملوثاً بطوفان من الأنغام الزاعقة المجنونة والألفاظ المتدنية. وليست المسألة مجرد أنغام، بهذا السياق أو ذلك، وإنما هي حزمة من الألفاظ والمعاني تصحبها الأنغام، ومن ثم يكون لها أثرها إما سلباً أو إيجاباً على مستوى التفكير والتذوق الجمالي.

وينبغي كذلك أن ننتبه إلى الدور الخطير الذي يلعبه الخطاب السياسي بالنسبة للغة، فالخطبة السياسية تتصل بأخطر القضايا التي تمس حياة الجماهير ومستقبلهم، مما يجعل الإقبال على سماعها منقطع النظير، ومن ثم فإن أهميتها وانتشارها يجعلان منها مصدراً للتغذية اللغوية، إن خيراً فخيئاً وإن شراً فشرأاً. وإذا كان كل ما سبق من شأنه أن يستتفر الجهود للمبادرة بمحاصرة الداء واستهاض الهمم للعلاج، فإن الأمر يحتاج إلى إعادة نظر فيما حدث بالنسبة لموقع اللغة العربية في الثانوية العامة، حيث تحدد امتحاناتها عادة قيمة الجهد المبذول في أي فرع من فروع المعرفة المقررة، فلقد كانت النهاية العظمة لدرجة اللغة العربية في كل من الصفين الثاني والثالث ستين درجة، فأصبحت الآن خمسين في مجموع الصفين، أي أنها انخفضت سبعين درجة. وكان الرسوب فيها يعني الرسوب في كل المقررات، فألغى هذا المبدأ، ومن هنا أصبح الطالب غير متحمس، في أي من الصفين لبذل جهد في اللغة العربية ذات الحصص الكثيرة والصفحات المتضخمة والفروع المتعددة، مثل النصوص والنحو والصرف والبلاغة، ليحصل على خمس وعشرين درجة، بينما يمكن أن يحصل على ضعف هذا من مادة أخرى ذات حصص أقل، ولا يوجد لها فروع.

إن التفكير فيما ينبغي القيام به لمحاصرة الداء ورسم سبل العلاج، ليس مهمة فرد واحد، ومن خلال مجموعة فقرات يختم بها مثل هذه الورقة، ومن ثم فإننا نعتبر الصفحات السابقة مناسبة لفتح حوار حول سبل النهوض باللغة العربية.

هل تزيح العولمة لغتنا العربية من على عرش التعليم؟*

أصارع القارئ بداية أنني قد أصبحت أمل هذا المصطلح الذي يقوم عيه هذا المقال ألا وهو "العولمة"، فما من جريدة أفتحتها، وما من مجلة أقرأها، وما من قناة تليفزيونية أشاهدها، وما من مؤتمر أحضره، ومن سؤال أسأله، إلا وأقرأ عن العولمة، حتى أصبحت أخشى أن تجيء لحظة وأجد لافتة عنها على سرير نومي تتبهنني إلى ضرورة التكيف في نومي بما يتفق والعولمة!!

ومع ذلك فلا بد مما ليس منه بد.. إنه طوفان كاسح، مهما كان لك رأي ضده، فمن المحتم أن تتحدث فيه وتكتب، ولا تملك إزاء هذا إلا أن تهتف معي: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه! وإني لأطمئن القارئ أنني لن أغرقه في تعريفات وشروح وتحليلات عنها، إذ سأفترض مقدماً أنه قد قرأ وسمع عنها وبالتالي أريد أن أستخدم ما قد توافر لديه، ومما لا بد أن بقية الزملاء الكتاب قد أفاضوا فيه لأكتف الحديث على قضيتي الأساسية التي تتصل بالتعليم.

ومما هو متداول ومشهور أن "العولمة" هذه أمر مستحدث من مستجدات الصفحات الأخيرة للقرن العشرين، لكن مزيداً من استقرار التاريخ، لكن في إيجاز وسرعة، تدبونا بأن الأمر ليس كذلك تماماً، فإذا كانت العولمة، في أحد معانيها، تعني انكساراً للحدود بين الثقافات، وتدفقاً حراً للأفكار والآراء والنظريات وتكنولوجيا العصر، مما يؤدي إلى سيادة نمط ثقافي واحد بين مختلف شعوب العالم، فقد كان هذا هدفاً أساسياً لكل الإمبراطوريات الكبرى التي شهدنا التاريخ منذ أقدم العصور. أفلم يكن هذا هو هدف الإسكندر؟ وألم يكن هذا هو هدف الفرس والروم لكن الرياح لم تأت في كل الأحوال بما تشتهي الأنفس فوقفت الأطماع عند حد معين؟ وما الذي كان يريده "هتلر" كذلك؟

* مجلة سطور - عدد أغسطس ١٩٩٩.

لكنني أريد أن أتوقف وقفة سريعة أمام نموذجين آخرين: "عالمية الدعوة الإسلامية"، و"أممية" الدعوة الماركسية..

فالمقولة المتداولة بين كثير من الكتاب والعلماء في الإسلاميات، أن من الفروق الأساسية التي ميزت الدعوة الإسلامية عن غيرها مما سبق من الأديان السماوية، أن الأنبياء الذين سبقوا محمداً ﷺ، بعثوا لقوم بعينهم، ولأمة بذاتها، أما محمد ﷺ فإنما بعث "للعالمين" .. بشيراً ونذيراً، وجاءت لفظة "العالمين" في القرآن الكريم في ثلاث وسبعين آية، وأحد المهمات التي ينذر بها الداعية الإسلامي نفسه أن يبذل أقصى ما يمكن من طاقة من أجل أن تمتد مظلة الإسلام إلى أقصى امتداد ممكن لها باعتبارها دعوة "عالمية"، فهي إذن منهج لتسيير وتنظيم الحياة مراد به أن يسود العالم كله، وبالتالي أليس من الممكن أن نتخذ هذا مؤشراً على سعي نحو العولمة، وإن لم يرد هذا المصطلح في أي من الكتابات الإسلامية السابقة؟

أما النموذج الثاني فهو النموذج الماركسي. ولا أحتاج أن أذكر القارئ بنبوءة ماركس، أو قل بمعنى أصح قوله بقوانين التطور التاريخي الاجتماعي الذي سار من مجتمع العبودية، وأنه بالضرورة سوف ينتهي إلى طور تمسوده "الشيوعية". وكان الجهد الأكبر للاتحاد السوفيتي أن يبث العقيدة الماركسية ويسهم في تأسيس الأحزاب الماركسية في مختلف أنحاء العالم من أجل المساهمة في تحقيق هذا الهدف المنشود، وشاع عن الماركسية نبذها لأية فروق بين البشر على أساس جنسي أو عرقي أو نوعي أو ديني أو طبقي، وأصبحت معروفة بأنها دعوة "أممية"، ليست خاصة بأمة معينة، ولا هي خاصة بشعب بعينه، وإنما بمختلف شعوب العالم الحاضر منها وما سيأتي في المستقبل. فهل لنا أن نعتبرها بمعنى من المعاني كانت تسعى إلى "العولمة"؟

والذي يحدث الآن إنما هو صورة متطورة لما كان يحدث بالأمس، مع اختلاف المتغيرات وموازين القوى، فالاتجاه نحو العولمة لا يتأتى الآن بقوة سلاح، ولا بغزو، وإنما يتم طواعية واختياراً، أو هكذا يبدو، لأنه كما قلت، مثل الطوفان، يجرف معه كل ما يجده أمامه، فالسيولة الهائلة في تدفق المعلومات، والسرعة

الخارقة في وسائل الاتصال لابد أن تحدث أثرها من حيث "التوحد" و"الاندماج" في عالم ثقافي واحد..

لكن المشكلة تبدأ في التساؤل : هل يحدث تفاعل وحوار بين الحضارات والثقافات، بحيث يتجه العالم إلى حضارة أو ثقافة واحدة تعبر في كليتها عن مجمل تراكم الخبرات البشرية الماضي وجهدها الحاضر؟ كلا.. فالمسألة ليست حيادية، وإنما من يملك القوة، بكافة مظاهرها: المادية وغير المادية، هو الذي يسيد ثقافته، وما على الآخرين إلا أن يتكيفوا ويتشكلوا وفقاً لثقافة صاحب القوة..

إن المسألة، كما أرددتها دائماً، مثلها مثل ما يحدث بالنسبة للضغط الجوي، فإذا كانت هناك منطقة ارتفاع جوي، وأخرى ذات انخفاض جوي، فلا بد أن تهب الرياح من الأولى إلى الثانية، وما دامت دول مثل دول الجنوب، مثلاً، ذات مستوى حضاري أقل، فضلاً عن ضعف القوة المادية، فلا بد أن تكتسح ثقافة الشمال عامة والولايات المتحدة خاصة، مناطق الجنوب، بل ومناطق الشمال الأقل تقدماً وقوة من الولايات المتحدة، ومن هنا تجيء نظرة مثلى للعولمة باعتبارها صورة جديدة متطورة "للإمبريالية"، هذا المصطلح الذي أصبح مهجوراً استعماله إلى الدرجة التي أجد نفسي عندها أستخدمه على استحياء، وأصارع القول، بل وبخوف من أن تسرع أصوات باتهامي بأنني ما زلت أردد أساطير سياسية تنتمي لعهد مضى إلى غير رجعة، وأصرخ في هؤلاء القوم: يا قوم .. هل يمكن أن يخلو العالم، في أي فترة من فترات تاريخ شعب من الشعوب، مهما تطور وتقدم، من صراع القوة، وسعي هذه القوة أو تلك لأن تتسيد هي وتخضع الآخرين لها؟

ولقد فطن أصحاب القوة المعاصرة، أكثر من أي وقت مضى، أن العصر إذ هو عصر "معلوماتية" وتشكل "المعرفة" فيه القوة الحقيقية، إذن فإن أرض المعركة ليست هذا الموقع أو ذلك من تلك المواقع التي كانت تشكل مربط الفرس في صراعات الأمتس المسلحة الساخنة، وإنما هي في العقول والأفكار .. في الأنواع والاتجاهات .. في القيم والميول. والميزة الكبرى هنا أن "المعلومات" تبدو محايدة وإن لم تكن كذلك، يقبل عليها الجميع بغير تخوف، بل ويسعون إليها بكل

الشوق المعروف عن الإنسان لحب المعرفة والتغلب على المجهول. وفي الحقيقة
فما من معرفة، وما من معلومات إلا وهي مشبعة بالكثير من الاتجاهات والأفكار
والميول والأذواق والقيم، أو قل هي تؤدي إلى هذا أو ذلك بالضرورة.
هنا يصبح "التعليم" مجالاً خصباً للتسديد والسطوة والاستحواز، وتجيء
مقولة العولمة لتقدم المسوغ التاريخي الذي يملك القدرة على إقناع الجماهير
الكبرى ...

فمنتجو المعرفة المتقدمون في عالم اليوم والغد هم الشمال الغربي بصفة
عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة، بل تستطيع أن تقول الولايات المتحدة هي
"الجوكر الحضاري" العالمي الآن، ومن ثم فمن يريد التقدم لابد أن يعب من منهل
هذه القوة الفريدة المتفردة، فكيف يكون ذلك دون أن تمتلك لغتها؟
وبهذه الدعوة "البريئة" شكلاً، المتهمة مضموناً، تكتسح اللغة الإنجليزية
تعليمنا اكتساحاً ما بعده اكتساح، ولكي يكون هذا الاكتساح مؤسساً تأسيساً قوياً لابد
أن يبدأ من بداية "السلم"، ومن الحضانة ورياض الأطفال والابتدائي.
كانت البداية متمثلة في هذا النبات الشيطاني الذي ظهر على أرض التعليم
المصري تحت اسم "مدارس اللغات" وخاصة في أوائل السبعينات، ومع ظهور
الانفتاح الذي بدا مرتجلاً استهلاكياً. ولأن الطبقات الثرية عادة أكثر الشرائح
الاجتماعية التصاقاً وتطلعاً إلى مراكز الهيمنة والقوة من خارج، هرع إلى هذه
المدارس، المتيسرون مالياً، وعزز من توجههم أن المدارس الحكومية كانت في
هذه الفترة تشهد تدهوراً مستمراً في مستوى الخدمة التعليمية، مثلما هو الأمر في
المستشفيات العامة، التي ساعدت على ظهور المستشفيات الاستثمارية، وأصبح أمل
كثيرين أن يلحقوا أبناءهم بمنزل هذه المدارس الجديدة، خاصة وأن الالتحاق بها
أصبح مظهراً من مظاهر الوجاهة الاجتماعية والدلالة على علو المكانة والقدرة
المالية، إذ وصلت مصروفات التلميذ الواحد في بعضها إلى عدة آلاف من
الدولارات، مما يفوق مصروفات كثير من الجامعات في الولايات المتحدة نفسها.
ولم تشأ الحكومة أن تظل بعيدة عن السباق، فاخترعت مدرسة في أواخر

عام ١٩٧٩ سمّتها المدارس التجريبية، والتي لم يكن فيها من التجريب شيء، وإنما هي حيلة لأمرين، أولهما أن تقدم لغة أجنبية أسوة بالمدارس الخاصة، وبذلك انقلبت الأوضاع، فبدلاً من أن تكون الدولة "قدوة حسنة" للقطاع الخاص، أصبح القطاع الخاص هو "قدوة استغلال" للدولة، وثانيهما، أن ترفع مصروفات المدارس الحكومية، تحايلاً على الدستور الذي ينص على أن التعليم يقدم في مدارس الدولة مجاناً. وعزز من هذا أن الحكومة بهذا بدت كمن يقدم فرصاً لأوساط الناس أن يلحقوا أبناءهم بمدارس حكومية للغات مصروفات التلميذ فيها مئات جنيهاً لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

ثم خطت الحكومة خطوة أخرى محزنة، ألا وهي العودة إلى تدريس اللغة الإنجليزية في جميع مدارس الدولة الابتدائية بدءاً من الصف الثالث وفوراً، علماً بأن أمراً كهذا كان يقتضي آلاف من المعلمين المتخصصين أولاً، مما جعل الوزارة تلجأ إلى تخصصات أخرى بها فائض، كي يقوموا بتدريس الإنجليزية.. رياضيات، علوم، فلسفة .. وهكذا.

طبعاً، الحجج معروفة ومشهورة.. معرفة اللغة الإنجليزية أصبحت فرض عين حتى يمكن التعامل مع عصر العولمة والمعلوماتية! ونحن لن ندحض هذه الحجة، ولكن السؤال هو: متى يتم تعلم هذه اللغة؟ وبأي مستوى؟ وهل حصيللة الإنجليزية التي يخرج بها طالب الثانوية العامة تمكنه بالفعل - بصورتها ومستواها الحالي - من أن يستمع ويقرأ ويتحدث بهذه اللغة؟

ومثلما شهدت سوق الثقافة والفكر في بلادنا عودة إلى عشرات سنين مضت لمناقشة قضايا كنا قد ظننا أنها حسمت، سوف أسوق للقارئ مثلاً لأنفس القضية التي نناقشها الآن، حيث نوقشت منذ خمسة وخمسين عاماً في مؤتمر عام في نوفمبر عام ١٩٤٥، وانتهوا فيه إلى ما نؤكد هنا وظننا أن القضية قد حسمت منذ ذلك الوقت، لكن ما هم السوفسطائيون الجدد يشككون في رأينا عام ١٩٩٩، وهو أنه من الخطورة بمكان أن نبدأ تعليم لغة أجنبية للطفل وهو لم يزل بعد في مستهل تعلمه للغة القومية .. اللغة العربية.

لقد كانت اللغة الأجنبية تدرس قبل سنة ١٩٢٨ من بدء السنة الأولى الابتدائية، ثم أصبحت سنة ١٩٤٢ من بدء السنة الثانية، وفي سنة ١٩٤٥، تقرر أن يبدأ بها من السنة الثالثة الابتدائية، ثم ألغى تدريسها نهائياً من المدرسة الابتدائية بصور قانون جديد خاص بالتعليم الابتدائي صدر عام ١٩٥٣. وقد استند الدكتور سيد محمد باشا، أحد أعلام وخبراء التعليم في هذه الفترة، في الدراسة التي قام بها في المؤتمر المشار إليه عام ١٩٤٥، والذي عقدته رابطة التربية الحديثة عن سياسة التعليم في مصر، إلى عدة آراء لعلماء وخبراء أجانب، كان منها الرأي التالي (ص ٦٧ من كتاب المؤتمر):

"أنه ليس لدى الطفل المتوسط من القدرة ولا من الغرض ما يمكنه من تعلم لغة أجنبية تعلماً مفيداً من غير أن يضحى بلغته القومية ويضعفها، كما أنه ليست به حاجة إلى ذلك. فإذا ما نجح في تعلم اللغة الأجنبية كان نجاحه على حساب اللغة القومية، وكان نجاحه هذا ذا نتيجة مفيدة في استطاعته فقط أن يقرأ اللغة الأجنبية ويفهمها، وهذه النتيجة كان من المستطاع أن يصل إليها في زمن أقل، ومن غير أن يضحى بلغته القومية".

وقد زاد باحثنا الأجنبي على هذا الرأي بقول أكثر صراحة، وأكثر مباشرة بأنه: "مما لا جدال فيه أن التمرين على القراءة في اللغة القومية وإحسانها يحسن من القراءة بالتمرين في اللغة الأجنبية، فإذا كان من الضروري أن تتكون عند الطفل قدرة على القراءة بالتمرين والمداومة كان الأولى أن يبدأ باللغة القومية، وغني عن البيان أن من العبث أن نحاول أن نعلم الأطفال قراءة لغة أجنبية قبل أن نتأكد من استطاعتهم قراءة لغتهم القومية قراءة جيدة".

إنني عندما ذكرت رأياً لي مشابهاً لهذا الرأي في جمع من المثقفين، انبرى لي واحد كبير، مقاماً، وسناً، ممن نحترمهم احتراماً كبيراً، وقال أنهم كانوا يتعلمون الإنجليزية من الصف الأول الابتدائي ولم يعطهم هذا عن تعلم اللغة العربية، وكان ردي أن القياس مع الفارق، فقد كانت الأغلبية الكبرى لا تذهب إلى المدرسة الابتدائية قبل أن تمضي فترة في "الكتاب"، والذي كان من خلال تعلم القرآن الكريم

يتيح الفرصة لهؤلاء أن يتقنوا اللغة العربية، هذا فضلاً عن المناخ الثقافي العام الذي كان يبيت الكثير من إشعاعات اللغة الفصحى السليمة، من حيث الخطب التي كان يلقيها القادة السياسيون، وكثرة من عمالقة الفكر (طه حسين، هيكل، العقاد وغيرهم) كانوا هم الكتاب الأساسيين في الصحف، والذين كان جمهور المتعلمين والمتقنين يتغذى على كتاباتهم، ومستويات عالية من معلمي اللغة العربية.. وهكذا، من هنا لم يكن هناك خوف على اللغة القومية. أما الآن، فلا "كتاب" يدرس فيه التلاميذ القرآن الكريم، ولا مناخ ثقافي عام يبيت لغة سليمة، بل إن التلميذ تطالع عيناه في كل خطوة يخطوها في الشارع أسماء أجنبية مكتوبة بحروف عربية!

لقد أصبحت النتيجة الآن تبعث على الكثير من الفزع حقاً، أصبحنا نفرح حين نرى أبنائنا وأحفادنا وهم في أولى سنوات تعليمهم يتعرفون على حروف وكلمات أجنبية، لكنهم لا يتعرفون على حروفها العربية، ونسعد عندما ينطقون كلمات أجنبية، ولا يعرفون نطق كثير من الكلمات العربية. إن وجه الخطورة هنا أن اللغة القومية هي المقوم الأساسي للذاتية القومية والهوية الحضارية والتي أصبح حقنها بأمصال القوة ضرورة أمام طوفان العولمة، فإذا كنا نرحب بالمشاركة في إنتاج واستهلاك المعرفة المتقدمة، فإن ما يحفظ ذاتنا من الذوبان في الآخر هو أن نتقن لغتنا القومية، فهذا يظل أبنائنا قادرين على الاتصال بمصادر الثقافة العربية التي توارثناها من الأسلاف القدماء والمحدثين. إن الكثرة الغالبة من أبنائنا اليوم أصبحت تجد صعوبة كبيرة في أن تقرأ للعقاد والدكتور هيكل ولطه حسين ولطفي السيد وغيرهم، ولا أقول للطهطاوي وعلي مبارك، فضلاً عن ابن خلدون وابن رشد والفارابي!!

إنني ما زلت أذكر تجربة رائعة قام بها أستاذ في طرق تدريس الإنجليزية (لاحظ هذا) فلسطيني، اتفق مع زوجته على ألا يتعاملا مع ابنهما منذ بداية تعلمه النطق إلا بلغة عربية فصيحة، فإذا بالابن يسير في تعلمه بالمدرسة كما تسير السكين في قطعة الزبد، ما دام قد تمكن من لغة الكتب والتعليم، وإذا به يتعلم اللغة الإنجليزية، أسرع وأفضل من زملائه عندما حان وقت تعلمها، وشيئاً من هذا نتمناه

في تعليمنا .. أن نشمر عن سواعدنا في التعليم المتقن للغة العربية منذ الفترة التي قبل الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، ثم طوال المدرسة الابتدائية. وقد لا نملك الآن المطالبة بإلغاء تعليم الإنجليزية من المدرسة الابتدائية الحكومية، لكننا نلح على تأخير تعليمها، مثل مدارس الدولة في المدارس الخاصة.

إن أحداً لا يملك أبداً التقليل من أهمية تعلم اللغة الأجنبية، لكننا نلح على ألا يكون ذلك على حساب لغتنا العربية، ومن ثم فلا بد أن نكرر التساؤل: متى يتم تعليم اللغة الأجنبية؟ وكيف؟ ولكي تعرف الإجابة عن هذين التساولين، عد إلى هذا المؤتمر الذي ناقش هذه القضية منذ خمس وخمسين عاماً، في نوفمبر عام ١٩٤٥، فإن لم تستطع، فلتعد إلى المقال مرة أخرى!

اللغة الثالثة !!*

مثلما رأينا في عالم السياسة، حيث شهدنا عالماً أول هو الدول الرأسمالية المتقدمة، وعالماً ثانياً انفكت عراه مؤخراً، كان يضم مجموعة الدول الاشتراكية، وعالماً ثالثاً، يضم مجموعة دول معظمها دول تعاني من التخلف والفقر والتبعية..

ومثلما نقرأ في عالم الجنس عن جنس ثالث يضم جملة من الشواذ . .

ومثلما قرأنا عن (نظرية ثالثة)، أراد بها أصحابها الوصول إلى نظرية مستقلة عن كل من النظرية الاشتراكية والنظرية الرأسمالية. .

مثل هذا وذلك، نجد أنفسنا أمام ما يكاد أن يصبح ظاهرة جديدة، يمكن أن نسميها تجاوزاً: اللغة الثالثة: فهناك اللغة الفصحى، وهي اللغة الأولى، لغة الكتابة والعلم، تسود على صفحات الكتب، وإلى حد ما في بعض مواقع الإعلام، ولكنها تتحسر، بكل الأسف، من دنيا الخبرة والواقع في محادثات الناس بعضهم مع بعض.

أما الثانية، فهي العامية التي هي سيدة الموقف في المحادثات والمعاملات، بل إنها زحفت، منذ فترة إلى أروقة القصة والرواية والشعر وأجهزة الإعلام.

والعامية، بعضها أصله فصحى، ثم حرف بالاستعمال عبر الزمن، كما تسمع البعض ينطق (إسماعيل) بـ (سماعين) و(فاطمة) بـ(فاطنة). وبعضها قد يكون له أصل أجنبي، مثل (جورنال)، ونادراً ما يقولون (صحيفة)، ومثل (بلكونة)، ولا نقول (شرفة). وبعضها يغير الفصحى، مثل (أوطة)، نقولها عن (الطماطم) و(أوضة)، نقولها عن (الحجرة) .. وهكذا.

وأياً كان الأمر بالنسبة للعامية، فكلمتها ذات صلة مباشرة بالمسمى الذي نستخدمها للدلالة عليه. لكننا بدأنا نسمع عن كلمات أطلقت أصلاً على مسميات بعينها، فإذا بها تنقل لاستخدامها بالنسبة لمسميات أخرى مغايرة كثيراً.

*ملحق الأهرام في 19/6/1992

صحيح أن لغتنا تسمح بشيء من هذا في التشبيه والكنية والاستعارة، إلا أنها تسمير في هذا وفق قواعد وأصول، وكثيراً ما يكون هناك من الحروف ما يميز بين الأصل والتشبيه، فهذه وجهها جميل نراه كـ(القمري)، وهذا راحته مثل (الفل)، وأحياناً لا يكون هناك مثل هذه الحروف، كما نرى في (رفقاً بالقوارير)، دعوة إلى الترفق في معاملات الإناث، فهن يتأثرن بسرعة واضحة مثلما يمكن أن تنكسر القوارير بسرعة.. وهكذا.

أما كلمات العهد الجديد، فقد وجدنا منها، في البداية (اللوح)، نطلقه على (الجنيه)، لأن دفعه بقشياً من شأنه أن يحرك المسائل لتتم دون تعقيدات، وبسرعة. ثم بدأت هذه الكلمة تنحصر عن الاستعمال، نظراً للانخفاض الشديد في القيمة الشرائية للجنيه، حيث لم يعد (يلح) شيئاً !!

وأما صديقاً يشكو من العصر المادي: لم لا يبيع ما عرفه عن ملكيته لقطعة أرض في موقع هام؟ فيرد بأنه لا يريد ذلك، مفضلاً أن يسقمها، أي انتظر لارتفاع سعرها، وإن كنت لا أدري ما العلاقة بين (التسقيع) - بمعنى: التبريد - وبين ارتفاع السعر؟ ذلك أن هذا الارتفاع، الشاق أن يعبر عنه بلأن الأسعار (ولعت)، وأصبحت (ناراً) !!

وفي عالم السيارات، وخاصة (المرسيدس)، يختص كل (موديل) باسم حيوان من الحيوانات، فهذه (خنزيرة)، وتلك (تمساح)، والأخيرة تسمى بجزء من الحيوان فيقولون (زلمكة) !!

ويستخدم الناس الفعل (يرش)، ولا يقصدون به مجرد سكب الماء، وإنما بمعنى توزيع الهدايا والنقود على من لهم صلة بإجراءات، لا بد من اتخاذها، ويخشى من تعثرها أو بطئها.

وأحياناً ما نسمع شباناً يحكون عن زميل لهم بأنهم (أرطموه)، نسبة إلى (القرطاس)، ويعنون بذلك فعل سخرية منه وبه.

وفي مجال النقود، أصبح الناس يقولون (استك) و (باكو)، للتعبير عن الألف جنيه، مع أنه لا علاقة بين هذه التسمية وبين المسمى. ويقولون: (أرنب)،

قاصدين بذلك (المليون)، فمن يملك مليوناً، يستطيع أن يكسب أكثر فتوالد النقود، تماماً كما تتميز الأرانب بسرعة التناسل. ولأن (المليار) مبلغ ضخم ورهيب، أطلقوا عليه (الفيل)!!

وأذكر أنني كنت أصطحب ابني بسيارتنا، وكان هو السائق، فأبديت ملاحظة أن السيارة التي على يميننا تسير أسرع من تلك التي أمامنا، والمفروض العكس، فاقترح أن (ياخذهما غرزة) !! ولما استغلق على فهم هذه العبارة، شرحها، بأنه سيتجاوز السيارة التي أمامنا من يمين، وبعد ذلك يتجاوز هذا الذي على يميننا، من شماله، مثل (الحائك) عندما يقوم بعمل (غرزة) خياطة .. وهكذا.

ومنذ سنوات، كان المستمعون يتابعون مسلسلاً إذاعياً لفؤاد المهندس وشويكار، تشيع فيه عبارات بلا معنى، لكن حب الجماهير لهذين الممثلين، والانتشار الواسع للإذاعة، والإلاح اليومي، أدى إلى أن تسري بعض هذه العبارات على ألسنة الناس حتى اليوم مثل (العملية في النملية) و(العبارة في الدوبارة) و(الأكس في التاكس) !!

وفي طوفان (الكاسيتات) بدأت تنتشر عبارات أخرى، تفنقت ما تتميز به العامية، في بعض كلماتها من خفة دم، فنرى هنا (جلافة) و(بجأ)، كأن يغني واحد من هؤلاء (كوز المحبة انخرم، إديله بنطة لحام) !!

إنها ظاهرة تستشري بسرعة، ومن شأن هذا الاستشراء أن يساعد على إفساد الذوق العام ويكسب هذه العبارات والكلمات شرعية وجود، مما يضعف الروابط بين الأجيال الجديدة ولغة الأجيال الأولى .. بتراث الأمة الثقافي، وبالتالي تمهد الطريق للانتحار الفكري!!

تخريب) لا (تهجين) !!

في المجلة التي كان يصدرها باسم (الأستاذ) عام ١٨٩٢، شن عبد الله النديم حملة شعواء على ما كان قد بدأ يلاحظه في المجتمع المصري في ذلك الوقت من اتجاه إلى استخدام كلمات وجمل أجنبية في التعامل اليومي بدلاً من اللغة العربية زعماً بأن هذا الاستخدام صورة من صور (التهجين) اللغوي، فأكد أنه صورة من صور التخريب الثقافي.

ومع التسليم بصحة انتقاد النديم لهذه الظاهرة، إلا أنها، على أية حال، كانت (مفهومة)، لا بمعنى أنها كانت سليمة، وإنما بمعنى أنها كانت نتيجة منطقية طبيعية للظروف التي كانت قائمة، فمنذ عشر سنوات سابقة على ظهور هذه المجلة، كانت مصر قد وقعت في براثن الاحتلال البريطاني الذي قام بعملية غزو واكتساح وهيمنة لكافة أنماط الحياة المصرية، وبالتالي، تطبق القاعدة التي لخصها ابن خلدون في قوله بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

هذا فضلاً عن أن الوعاء الثقافي الحديث في مصر كان شبه خال إلا من بعض مظاهر اقتصرت على شرائح عليا في مجتمع العاصمة، مما استتبع استدعاء ما يملؤه من المصادر المعاصرة المتقدمة.

وهكذا شاع بين الناس أن يقولوا (أوريفوار) و (بنجور) و (بونسوار) و (مرسي) و (ثانك يو) .. إلخ، ومن التناقض الطريف أنه على الرغم من أن الهيمنة كانت للسلطة الإنجليزية، إلا أن معظم ما شاع في التعامل اليومي بين المصريين هو اللغة الفرنسية وخاصة بين الشرائح الأرستقراطية، مما لا يمكن تفسيره بأن ذلك كان (مقاومة) لثقافة المحتل، فمثل هذه الشرائح كانت مرتبطة المصالح بالقوى الاستعمارية، إنجليزية كانت أو غيرها.

* ملحق الأهرام في ١٨/٩/١٩٩٢

نقول، أن هذا، في تلك الفترة البعيدة، كان مفهوماً، أما أن يمر قرن كامل، تشهد فيه مصر ثورتين، ثورة شعبية سنة ١٩١٩ و ثورة عسكرية سنة ١٩٥٢ للاستقلال الوطني والتنمية الذاتية، وتشهد ما يصعب حصره من صور الإنتاج الفكري والأدبي والعلمي، ثم تجئ فترة حالية نشهد فيها بأعيننا ونسمع بأذاننا (ردّة) إلى ما يشبه الوضع السابق المشار إليه. فإن هذا آية خلل يمكن أن يصيب عقل الأمة بالوهن نتيجة ما يحدث للغتها القومية.

إنه لمن الطبيعي أن تدخل اللغة مفردات أجنبية لأشياء استحدثت في الغرب ولم يكن لنا بها سبيل اختراع، مثل (التليفون) و(التلغراف) و(السينما) و(التلفزيون)، رغم أن مجمع اللغة العربية يبذل قصارى جهده، في عمل متواصل، لملاحقة ما يجد من أسماء لمخترعات وأساليب مستجدة لينحت لها أسماء عربية بحتة. لكن في حالة الضعف اللغوي العام في ثقافتنا المعاصرة، وخفوت صوت المجمع، وقصور الإعلام بجهد المجمع، يعتقل الأسماء العربية الجديدة ليترك الساحة خالية للوافد الأجنبي في مصطلحاته الأجنبية.

وأخذ لغة ثقافة عن لغة ثقافة أخرى أكثر تقدماً أمر قد حدث بالنسبة لنا عندما كنا أصحاب حضارة عربية إسلامية متقدمة، إذ أخذت اللغات الأوروبية من العربية ألفاظاً كثيرة ما زالت قائمة حتى اليوم مثل: (سكر) و(قطن) و(بطاطس) و(ليمون) .. إلى غير ذلك من عشرات الكلمات.

بيد أن ما يصعب الإقرار به أن نشهد هذا (الغزو) المخجل لكلمات لا تطلق على مخترعات علمية عربية حديثة، فنشهد إعلانات ولافتات ونسمع كلمات وتعبيرات تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون والشوارع في حصار شبه يومي، نقول (شوبنج) و(سنتر) و(ماركت) و(سويت) وما شابه.

وإذا كانت مثل هذه الكلمات تردح بها (سوق التجارة)، فلقد يكون هنا عذر يلتمس لأصحابها لأسباب مختلفة، وإن كان يمكن مناقشتها، ولكن، أن تشيع مثلاتها في مؤسسات (التربية) و(التعليم)، فتلك مصيبة كبرى، أن نرى مدارس تعلن في لافتاتها أنها (سكول) كذا، ودور حضانة بأنها (...جاردن)، فمن

المفروض أن تلك مؤسسات يقوم فعلها التربوي على (القضدية) مما يحتم أن تتوجه بالعقول والقلوب وجهة ثقافية تتشرب بالروح الوطنية المصرية والثقافة العربية والروح الديني. ولا أريد هنا أن أعرج على ما يحدث من تعليم باللغات الأجنبية، فتلك قضية أخرى خطيرة، ولكني أخص بالمناقشة قضية استخدام الكلمات الأجنبية لمسميات لها أسماؤها العربية الواضحة السهلة السلسة.

إنه لمن المعروف للكثيرين أن اللغة ليست مجرد حروف وكلمات وجمل تسطر على صفحات الورق، ولكنها طاقة إشعاعية تشع العديد من المفاهيم والقيم وأساليب التفكير والميول والأهداف، فإذا تحدثت أمة بغير لغتها القومية في تعامل المواطنين اليومي، كان ذلك باباً إلى جهنم ثقافي تذوب فيها بعض لبنات البنية العقلية القومية لتجعل منها ذليلاً وتبعاً.

لقد بدأت كلمات مثل (بقالة) تختفي، لتحل محلها كلمة (ماركت)، وبدأت كلمة (مركز) تتوارى لتحل محلها كلمة (سنتر)، وبعد أن كنا قد تعودنا على أن (صالون الحلاقة) تكتب على محلات الرجال غالباً، وللجنس اللطيف (كوافير)، مع أن هذا هو ذلك، عمت الثانية وبدأت الأولى تختفي . . . وهكذا قل بالنسبة لكلمات أخرى كثيرة.

ولو كانت هذه الكلمات تستخدم بحروفها اللاتينية لقلنا معزين أنفسنا أنها قد تفيد في التثقيف اللغوي الأجنبي، لكنها تكتب بالحروف العربية، وبالتالي، فلا هي تزيد من (زبائن) اللغة الأجنبية، ولا هي تدعم اللغة العربية بإضافة جديد إليها. وأدهى من ذلك وأمر أننا بدأنا نخضع هذه الكلمات لبعض قواعد اللغة العربية، فينطلق - مثلاً - مذيع مباراة كرة القدم ليصف فلاناً بأنه من (كباتن) مصر المرموقين، فهو هنا يضع كلمة (كابتن) لقاعدة الجمع العربية، ويقول أحياناً أخرى فلاناً بالملعب تقدم لأنه (حايسنتر)، فيخضع الفعل الأجنبي لصيغة المستقبل في العربية الدارجة العامية، وقس على هذا الكثير.

إنه لمن الخطورة بمكان أن نخلط بين استخدام اللغة الأجنبية في التحصيل والتثقيف العلمي والثقافي من المصادر الأجنبية، فهذا جهد محمود ومطلوب، وبين

استخدامها في لغة التخاطب وفي تسمية منشآتنا الوطنية: تجارئة أو تعليمية. إن
أمراً مثل هذا يعتبر صورة من صور الاحتلال .. أكاد أقول أنه لا يقل خطراً عن
احتلال الأرض. هل يمكن للدولة أن تقف مكتوفة الأيدي لو أن غازياً احتل أو
حاول أن يحتل شبراً من التراب الوطني؟ فلماذا نقف مكتوفي الأيدي وجزء كبير
من لساننا الوطني .. من عقلنا بدأت تغزوه قوة احتلال (متعددة الجنسيات)؟!

المجمعي الجديد وذخيرته النفسية !!

أما هذا المجمعي الجديد، فهو الأستاذ الدكتور كمال نسوقي، الذي انضم مؤخراً إلى ذلك الرهط من الرجال العظام .. حراس اللغة العربية، كي تبقى مستمرة بكل ما تذخر به من عناصر ذاتية، جعلت منها لا مجرد "لسان" لمئات الملايين عبر عشرات القرون، وإنما جعلت منها أيضاً "مركباً عقلياً"، يميز هذه الأمة العربية و"وعاء" تختزن فيه كل تراثها، فتحفظ به وحدة التفكير في كليته، ووحدة الشعور في رحابته.

أما "ذخيرته النفسية"، فهي هذا العمل الموسوعي الضخم، غير المسبوق، في علوم النفس، والذي ضم خمسة وعشرين ألف مصطلح، انتظمتها ١٦١٢ صفحة، في مجلدين، من أكبر قطع يمكن تصوره لكتاب.

فلسنا أمام (قاموس) يضع المصطلح ويشرحه في سطور محدودة، وإنما أمام "موسوعة قاموسية" أو "قاموس موسوعي" لتعريفات مصطلحات وأعلام علم النفس بما تفرع عليه من تحليل وطب وقياس وإحصاء.. منهجاً، وبما تشعب عنه من فيزيولوجي وتربوي واجتماعي وصناعي وجنائي وعقابي ومرضي وعلاجي.. موضوعاً - من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية - في تسلسل أبجدي واحد - إلى العربية، مع التزويد بالأصول اللاتينية والأنجلو-سكسونية الحديثة، لما ليس له جنر كلاسيكي من المصطلحات.

إنني لا أستطيع أن أخفي على القارئ سعادتي البالغة وشعوري بالفخر، لظهور هذا العمل الرائع، فكم كنت أشعر بقدر غير قليل من الغيرة (الثقافية)، أن أجد الموسوعات والقواميس تظهر من مواقع أخرى غير مصر، لا انطلاقاً من رغبة في احتكار العلم، إذ أقول هذا، وإنما انطلاقاً من رغبة قومية في أن يصدر عن مصر من مثل هذه الأعمال ما يتكافأ مع ذخيرتها البشرية العلمية وتاريخها

ملحق الأهرام في ٢١/٢/١٩٩٢

الحضاري.

إنه، على الرغم من أن الإنتاج العربي في علوم النفس قد أصبح من الثراء والتنوع ما قد يشبع نهم القارئ العادي، حيث يمكن أن يجد فيه كفايته، إلا أن هناك آفاقاً من الباحثين الذين يشعرون بأننا ما زلنا (عالة) على العلم الغربي ننهل منه الجديد والمبتكر، ذلك لأننا لم نتعد بعد، مع الأسف الشديد، مرحلة (الاستهلاك)، مثلما هو الحال مع المجال الاقتصادي. صحيح أننا ننتج عدداً من السلع، قد يكون كثيراً، لكننا لم نصل بعد إلى مرحلة إنتاج السلع الرأسمالية التي تتطرق بالتنمية إلى آفاق الرفاهية والتقدم. وهكذا الشأن في مجال علوم النفس. صحيح أن هناك جهوداً واضحة نبني بمظاهرها تجديد وابتكار، لكنه، قياساً إلى حركة الإنتاج العلمي العام في هذا المجال، يظل محدوداً في دائرته من حيث التأثير، ومن حيث قدرته على أن يشكل تياراً عاماً.

إن كثرة من هؤلاء الباحثين الشباب الذين نشير إليهم، قد انقطعت بهم الأسباب، بكل الأسى وبكل الأسف، بالمصادر الأجنبية بالدرجة الكافية، لعلوم النفس الحديثة، نتيجة عوامل قد لا يتسع المجال، حتى الإشارة إليها، ويكفي أن نشير إلى ما ترتب على ذلك من ظهور عمليات (اجترار) واضحة لجهود سابقة، ونقل هذا عن ذلك مما هو منشور لدينا بالعربية، حتى فشا الحشو والتكرار وشاع التقليد وقل التجديد والابتكار.

ومن هنا فمثل هذه (الذخيرة النفسية) التي أفاض بها علينا الدكتور كمال دسوقي، تسقط الحجة التي طالما تذرع بها المتراحون، وتحفز النشطين إلى مزيد من النهل من ينابيع الثقافة الغربية الحديثة للوقوف على ما جد فيها من علوم النفس.

والقارئ لهذا العمل العلمي الكبير (ذخيرة علوم النفس)، سيجد تعريف المصطلح أحياناً في سطر واحد، وأحياناً في مقال كامل من مائة سطر أو أكثر بالاختصار والتطويل الذي تعرضه بهما كافة المعاجم التي استعان بها الدكتور كمال، كما أنه أخذ بما تذهب إليه المعاجم - لا دوائر المعارف - من اعتماد إيراد التعريف الشامل أولاً، ثم إيراد التعريفات الخاصة بكل صفة أو مضاف إلى هذا

التعريف تفصيلاً - بدلاً من كتابة مقال كامل، لأن في ذلك مساعدة للذي يكشف عنه اصطلاح جزئي خاص في العثور على تعريفاته بالذات، مع إحالة دائماً لتعريف المصطلح الأصلح للمرادفات أو الأضداد أو الطباقي في المعنى والجناس في اللفظ وتبنيه للتمييز عما عداه مما يختلف عنه في اللفظ والمعنى لكنه ربما يختلط به في الاستعمال العلمي أو الدارج.

كذلك، فلما كان هذا العمل العلمي قاموس تعريفات أكثر منه تعريب مصطلحات، فقد تبادى طريقة معاجم المفردات التي تكثر من إعطاء مرادفات اللفظ الواحد يسهل اختيار القارئ من بينها ما يصلح للسياق الذي يريده. إن عكس ذلك هو ما تعمده الدكتور كمال دسوقي ما استطاع، حيث جعل لتعريفات اللفظ الواحد مفردة واحدة، فلا يلجأ لإعطاء أكثر من مفردة إلا إذا تعدد معنى الاستعمال، كما تكشف عنه التعريفات لمختلف مجالات الاستعمالات، فيعطي حينئذ من المفردات بقدر عدد الاستعمالات. وكثيراً ما ادخر مرادفاً لمعاني مفردات قريبة الصلة سبق ذكرها أو سيلي عرضها - فيقلب صفحات المعاجم التي نقل عنها من الألف إلى الياء يدون بالحرص اللفظ المدخر للمفردة التي هي أصلح ترجمة لها، حتى لا تخونه الذاكرة عندما يصل لتعريبه، أو يصحح فيما فات ما اتضح أنه أولى به مما يكون قد اكتشف فرق شعرة بينه وبين سابقه حتى تحي الأفاض المعنى الواحد موزعة لا مجمعة، كما في قواميس المفردات، وتفترن كل مفردة واحدة بتعريفات موحدة.

وإن قراءة بسيطة لسيرة حياة الدكتور كمال دسوقي لتشير لنا أن "ذخيرة علوم النفس" تعتبر ثمرة طبيعية لها، فهو قد تربى في مدرسة قسم الفلسفة بأداب القاهرة، في أوائل الأربعينات، حيث كان ينخر بأفذاذ الأساتذة وعظماء الرجال، وكان مريداً نابهاً في مدرسة عالم النفس الكبير الدكتور يوسف مراد، في جماعة (علم النفس التكاملية)، فضلاً عن سنوات طويلة من التعليم والبحث والإدارة والإشراف في علوم النفس والتربية والاجتماع. إنه حقاً لجهد يستحق كل التقدير، فهو ليس (ذخيرة) لعلوم النفس وحدها، ولا هو (ذخيرته النفسية) وحده، وإنما هو (ذخيرتنا) جميعاً .

أسماء على غير مسمى*

المتداول بين الجماهير الكبرى منا أن الجامعة هي طليعة التجديد والتطوير والتحديث في المجتمع بحكم توفرها على البحث العلمي الذي اقتحم كافة مجالات حياتنا إلى الدرجة التي جعلته - كما عبر عن ذلك أحد كبار متقفينا قبل الحرب العالمية الثانية- يدخل حتى في محل إزالة الضرورة!! ولا شك أن هذه الرسالة للجامعة تفترض ضمناً أن تكون هي كذلك دائمة التطوير والتجديد والتحديث لنفسها، وإلا انطبق عليها المثل القائل (فاقد الشيء لا يعطيه)

لكن أنظر إلى أسماء معظم الكليات الجامعية، تجدها أسماء موروثية، ربما كان لها مبررها في فترة ماضية، لكنها الآن تصبح غير دالة على نوع وطبيعة الدراسة التي تقع تحت مظلتها.

خذ مثلاً (دار العلوم) التي تردد أن علي مبارك قد أنشأها عام ١٨٧٢ بهدف إيجاد صيغة تجمع بين الثقافتين: الإسلامية العربية والغربية الحديثة، لكن مما يحتاج إلى تأكيد أن الهدف الأساسي كان إعداد معلمين للغة العربية لهم ثقافة عصرية، ولذلك كانت مواد الدراسة تضم العلوم الأدبية (النحو والبيان والبدع والصرف والإنشاء) والفقه والرياضة والطبيعة والتاريخ والجغرافيا والخط، ثم زيدت الكيمياء، وفصلت الرياضة إلى حساب وهندسة. ومن ثم استحققت أن تسمى بدار (العلوم). ولسنا بحاجة إلى القول أنها لم تعد تهدف، بالدرجة الأولى إلى إعداد معلمين، ولا أصبحت تضم هذه الباقية من العلوم المتنوعة، فأصبح اسمها مشابهاً لكلية (العلوم)، مع الاختلاف الشديد بينهما، إلى الدرجة التي تجعلنا نتحرج إذا أردنا ترجمة اسمها إلى الإنجليزية، إذ سيصبح The House of Science ولذلك لا نترجم الاسم، بل نكتبه كما ينطق بالعربية ولكن بحروف لاتينية.

* الأهرام في ٢٩/٩/١٩٩٥

وانظر إلى كلية (الحقوق)، فمن المعروف، ذلك التلازم بين (الحق) و(الواجب)، فهل تقتصر الدراسة فيها على (الحقوق) فقط أم تضم كذلك (الواجبات)؟ فهي تختص إذن بالاثنتين معاً، مما يجعلنا نتساءل عن الحكمة في النص على الأولى دون الثانية؟ وبما أن (القانون) هو الذي ينظم كلاً من الحقوق والواجبات فإن الاسم الذي يطابق طبيعة الدراسة فيها هو أن تكون كلية للقانون.

والاسم الذي تتخذه كليات (التربية) يشير إلى أنها تنصب على دراسة العلوم التربوية والنفسية المرشدة إلى كيفية بناء الشخصية الإنسانية، وفهم السلوك الإنساني ودراسته في سوائه وفي مرضه. وإذا كان هذا وذاك ضرورياً لفئات متعددة من أبناء الأمة، كالآباء والأمهات على وجه الخصوص، وكذلك المعلمين ثم الإعلاميين والدعاة، إلا أنها في الواقع تقوم بإعداد (المعلمين)، فهل هؤلاء هم فقط الذين يحتاجون إلى دراسة (التربية) و(علم النفس)؟ ألا يكون الاسم الواقعي إذن أن تسمى بكليات المعلمين، أو أن تمد اختصاصها لتضم برامج توجه إلى فئات ممن ذكرنا؟

ولا ندري حقاً لماذا تحتكر كلية بعينها اسم (العلوم) أليست معظم التخصصات التي تضمها الكليات الجامعية (علومياً)؟ ألسنا نقول أن العلم (منهج) وبالتالي فهو متوافر في التعليم الجامعي بأسره، ويصبح ضرورياً تحديد الصفة أو الفئة التي تضمها كلية (العلوم) أي علوم؟

مثال آخر : كليات (الأدب)، والاسم نسبة إلى (الأدب). يقول المعجم الوسيط أن الأدب هو رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي، مما يجعل هذا الاسم أنسب لكليات التربية !! والأدب أيضاً هو جملة ما ينبغي لذي الصناعة أو الفن أن يتمسك به، كأن تقول: آداب مهنة الطب، مثلاً. كذلك الأدب هو الجميل من النظم والنثر، فهل هذا ما تفعله فعلاً كلية الأداب؟ كلا. فقط المعنى الأخير، نجده في أقسام اللغات. وهناك معنى آخر هو: كل ما أنتجه العقل البشري من ضروب المعرفة، أي كل تخصصات جميع كليات الجامعة!!

و(التجارة) إنما هي عمليات البيع والشراء، فهل هذا ما تقوم بتعليمه كليات التجارة، أم أنها - بالإضافة إلى ذلك - تختص بدراسة الاقتصاد والإدارة، وبالتالي يصبح هذا هو الاسم الأنسب؟

قد يقول البعض أن هذه الأسماء قد أصبحت (تراثاً) و(تقاليداً) لا بأس من الاحتفاظ بها، لكن هل يستقيم هذا بالنسبة لمؤسسة منوط بها أن تكون مصنع التجديد والتحديث والتطوير؟

وبكل لغات العالم تبقى "دار العلوم"

قرأت باهتمام دعوة أ.د. سعيد إسماعيل علي في صفحة الأدب بملحق الأهرام ٩٥/٩/٢٩ - إلى ضرورة تغيير بعض أسماء الكليات التي لم تعد تعبر عن حقيقة هذه الأسماء. وساق أمثلة لذلك بعدة كليات في مقدمتها كلية دار العلوم، ومن بينها التربية. واذكر أنني منذ عدة سنوات علقت على محاضرة لسيادته كانت عن التربية والتعليم بالجامعة الأمريكية قائلاً: أن اسم كليات التربية قد خدعنا في العالم العربي. فقد ظن الكثيرون أن مصطلح تربية يعني التنشئة الأخلاقية والاجتماعية، بالإضافة إلى طرق تدريس العلوم المختلفة، وإن هذا الظن جعلنا نعتقد أن المعلم التربوي (أي خريج كليات التربية) هو الذي يقوم بتعليم أبنائنا وتربيتهم في نفس الوقت. وليس هذا صحيحاً على الإطلاق.

وقد مضت على تلك المحاضرة عدة سنوات. وما زال التعليق واضحاً في ذهني. ولكنني فوجئت بتعليقي على كليات التربية يتحول إلى تعليق لسيادته على دار العلوم والواقع أن اسم دار العلوم يرجع إلى أكثر من مائة وعشرين عاماً (١٨٧١). وكانت في البداية عبارة عن مجمع أو ملتقى ثقافي أنشأه علي مبارك على غرار الكوليج دي فرانس Colege de France في باريس ثم تحولت إلى مدرسة نظامية عليا، وتم تطوير مناهجها عدة مرات إلى أن أصبحت معروفة

تعليق نشره الأهرام في ١٣/١٠/١٩٩٥ للدكتور حامد طاهر

بتخصصها في اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها بصورة متكاملة،
وبمنهج متميز يجمع بين القديم والجديد، أو بين الأصالة والمعاصرة.

وقد ربط الأستاذ الدكتور بين ضرورة التطوير الذي هو مهمة الجامعة
وكلياتها وبين تغيير الأسماء. هذا أمر شكلي بل لعله يحدث بلبلة وانقطاعاً بين
الماضي والحاضر الذين نحرص على توصلهما. والأهم من ذلك هو الاتجاه إلى
تغيير المضمون حين لا يكون منطبقاً عليها بصورة منطقية، لأن إطلاق الأسماء -
كما هو معلوم - يبدأ بالعرف ويتأكد بالاستخدام، ويستقر بالمكانة والحفاظ عليها.
إننا لو استجبنا لدعوة سيادته - ولا أقول فكرته - لوجب أن نغير اسم جامعة
القاهرة إلى جامعة الجيزة، وجامعة عين شمس إلى جامعة العباسية ومع احترامي
الكامل لكل موضع وتسمية، فإن هذا ليس هو المهم، بل هو من الأمور الشكلية
التي لا تمس جوهر الأشياء ولا تتقدم بها حلول المشكلات الحقيقية. لقد جعل
العرب اسم الشمس مؤنثاً واسم القمر مذكراً، بينما عكس الفرنسيون الأمر تماماً.
وبالطبع لن تتغير حقيقة الشمس والقمر بتسمية العرب والفرنسيين. وإنما الأهم من
ذلك أن تستفيد البشرية كلها من فوائد الشمس والقمر. تلك هي القضية.

بقيت نقطة أخيرة وهي مسألة الحرج الذي يشعر به سيادته عند ترجمة
اسم دار العلوم إلى : The House of Sciences، وأنا أعفيه من ذلك تماماً لأن
دار العلوم اسم كلية والأسماء لا تترجم وما عليه إلا أن يكتبها بالحروف وما عليه
إلا أن يكتبها بالحروف المتعارف عليها دولياً هكذا: Dar al Olum، وإن شاء
مزيداً من الإيضاح أضاف أنها الكلية الوحيدة المتخصصة في دراسة اللغة العربية
والعلوم الإسلامية.

• عود على بدء

شرفني الأستاذ الدكتور حامد طاهر عميد كلية دار العلوم بمناقشة الرأي الذي طرحته على هذه الصفحة في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر الماضي عن أسماء عدد من كليات الجامعات المصرية، وكنت قد سعدت ببقائه مرة وحيدة، وكان ذلك، حسبما أشار، في ندوة لي بالجامعة الأمريكية منذ سنوات، وأن ما سمعته عنه هو مما يشرف، علماً وخلقاً، وهذا ما جعلني أحمل له وداً وتقديراً، من منطلقهما أرجو أن يتسع صدره لهذه الملاحظات التالية التي هي مجرد (رأي) قد يصيب وقد يخطئ:

١- يبدو أنني لم أكن على درجة كافية من الوضوح بحيث تصل رسالة مقالي الحقيقية إلى أخي الفاضل، حيث المقصود هو الإشارة إلى ما تعانیه تقافتنا من (لفظية) لا نجد فيها - في حالات كثيرة - ترادفاً بين (المفهوم) و(المصدق)، ولعلنا نذكر، في هذا السياق، أن دولاً كانت تسمى (الجمهورية الشعبية الديمقراطية)، فإذا بها تمثل نموذجاً للفردية والقهر والتسلط والشمولية. كذلك فنحن نشاهد كثيراً، وخاصة في الشوارع الداخلية والأحياء الصغيرة لافتات درج أصحاب محلاتها أن يعلنوا أنها (سوبر ماركت)، والحقيقة أنها مجرد (محل بقالة) كبير يقوم على الخدمة الذاتية، لكن الولع الحالي بالسير في ركاب الأجنبي وهماً بأن هذا مظهر تقدم وتحضر، أيا كان مجال وأسلوب التشبه، جعل كلمة (بقالة) تختفي لتحل محلها كلمة (سوبر ماركت)، مع أن هذه الكلمة تشير إلى أن المحل هو سوق تجاري ضخم يحمل كميات وأنواعاً ضخمة من السلع الاستهلاكية، مما يجعل معظم ما نراه من (سوبر ماركت) لا تتعدى (ركناً) من عشرات الأركان التي يضمها (السوبر ماركت) الحقيقي.

• أرسلت إلى الصفحة الأدبية بملحق الأهرام رداً على مقال د.حامد طاهر في ١٣/١٠/١٩٩٥ ولم تنشر

إنه نمط تفكير يسود ثقافتنا بكل أسف، ولعل هذا النمط هو الذي أباح للبعض أن يطلق على إجراءات تسلط وشمولية بأنها تعزيز للديمقراطية وحماية لها!! ولعل هذا ما كان يفزع أستاذنا الراحل زكي نجيب محمود فيسمى هذه الألفاظ غير المطابقة لمحتواها أنها (شيكات) بدون رصيد، خاصة إذا اختفى المسمى تماماً.

ومع هذا فقد نضطر إلى الإبقاء على اسم رغم تغير وظيفة مسماه على مر الزمان، إذا طال العهد واكتسب الاسم قيمة ثقافية تاريخية، حتى يكون وصلأ بين الماضي والحاضر وهي الفكرة التي أفادنا بها د. طاهر جزاه الله خيراً. لكن هذا لا يمنع من تسجيل عتاب أرجو قبوله، إذ لا أظن أننا قد بلغنا من السذاجة درجة تجعلنا نفهم أن التطوير الجامعي يتعلق بالأسماء لا بالمضمون، فهذا من البديهيات، والأمر هنا كان يحكمه (التخصص)، فلو كان موضوع المقال خاصاً بتطوير التعليم الجامعي، فسوف نتجه بالمقال إلى صفحة التعليم أو صفحة الرأي، أما ما دام يعرض لجانب لغوي، فقد نشرناه، في صفحة الأدب.

ومع ذلك فإني أهنئ في أذن أخي الكريم بأننا في الفكر التربوي لا نفصل بين الشكل والمضمون، بين الطريقة والمحتوى، ونعتبر المفاضلة والقسمة بينهما، هي نفسها الأمر (الشكلي) بالمعنى غير المستحب، وأحياناً أستعين أنا شخصياً بالمثل العامي الشهير (لاقيني ولا تغزيني) دلالة على أن الشكل قد يفوق المضمون، ولكنها مبالغة اضطرارية الغرض منها عدم إهمال الشكل بدعوى الاهتمام بالمضمون.

٢- من بين ١٢ جامعة حكومية (باستثناء الأزهر) اختار أخي الفاضل جامعتيين ليدلل على عدم التطابق، وإن كانت زاوية التطابق التي يشير إليها د. طاهر هي (المكان)، بينما كنا نحن نشير إلى (الوظيفة) ومع ذلك فبإحدى الجامعات: الإسكندرية - طنطا - الزقازيق - المنصورة - المنوفية - قناة السويس - المنيا - أسيوط - جنوب الوادي، كلها يتم فيها التطابق !

أما بالنسبة لجامعة القاهرة، فأرجو ألا ينسى أخونا الفاضل أنها تقع في نطاق (القاهرة الكبرى) وبالتالي، فلا ضير في التسمية. وبالنسبة لجامعة عين شمس، فقد جاءت التسمية أصلاً باسم جامعة (أون) الفرعونية القديمة، وبالتالي يصح إطلاق هذا الاسم حالياً، ولا يعرف العرف جامعة يطلق اسمها على (الحي) الذي توجد فيه.

٣- وإذا كان ما يذكره زميلنا الكريم حقاً بالنسبة إلى أن اسم (دار العلوم) اسم كلية، أن الأسماء تكتب باللغة الأجنبية كما تتطوق بالعربية، ولكنني بدوري أتساءل : لماذا يحدث هذا بالنسبة لدار العلوم بينما سائر أسماء الكليات تترجم بمعناها الأجنبي فنقول عن التربية Education وعن التجارة Commerce وعن الزراعة Agriculture وعن الهندسة Engineering وهكذا ، أفلا يشير هذا إلى أنها (حيلة) منا حتى لا نقع في المحذور ونجد أن اسمها قد أصبح House of Sciences فيكون اسماً على غير مسمى؟

٤- كان مقالتي الأول خاصاً (بظاهرة) وليس بحالة فردية بعينها، ولا بد أن أخي الكريم يعلم أن التعميم في مجالتنا الإنسانية قد يسمح بشذوذ بعض الحالات، ومع ذلك فقد توقف أخي عند حالة دار العلوم، وعلى أية حال فأني أحمد الله أنني واحد ممن يحملون كل التقدير والتبجيل لتاريخ ودور دار العلوم لأسباب كثيرة، ربما كان من أهمها أنها، في هذه المسيرة التاريخية، هي أحد المجالات التي تخصصت فيها علمياً ومهنياً، ولقد دفعني هذا التقدير إلى كتابة مقال في مجلة العربي عام ١٩٧٢ عنها داعياً إلى الاحتفال بمرور مائة عام على افتتاحها رسمياً كمعهد تعليمي لإعداد المعلم وتجربة فريدة لصيغة تجمع بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية الحديثة، بعد أن افتتحت عام ١٨٧١ كقاعة تلقى فيها محاضرات للتثقيف العام من هذا المنظور.

وأخيراً فأني أعيد هنا ما ذكرته في البداية أن هذا مجرد (رأي) قد يصيب وقد يخطئ، ولا بد لي من توجيه الشكر لكل من صوب لي الطريق.

اللغة والوعي الغائب !!*

كان الحفل كبيراً .. لمناسبة عظيمة. وأخذ الخطباء يتبارون في الحديث، حتى إذا جاء دور أحد الضيوف، أطل الحديث.. كان حديثاً طويلاً براقاً، لكن جمهرة المستمعين كانوا منذ الفجر وهم على الطريق .. والساعة الآن قد وصلت الرابعة بعد العصر .. النوم والجوع والإرهاق يحاصر آذانهم يخدر أذهانهم عن التجاوب مع هذا الكلام الحلو الجميل. ومع كل هذا الإرهاق إذا بي أنتبه إلى قسمة مشتركة في كل الكلمات، طالت أم قصرت، بليغة أم عادية.. إنها هذا الطنين اللفظي المدوي كالتبل من مثل: "طارد خفافيش الظلام فببدها"، "طبيعة هذا الشعب التي تتحدى الأحوال"، "روحه ترفرف على رؤوسنا تردد أفكاره على مسامعنا"، "لحظات تاريخية يختارها القدر" .. وعلى هذا النحو وأكثر منه تسير الكلمات، ولو كان قائلوها شعراء أو أدباء أو فنانيين، لكان للسياق منطق، لكنهم لم يكونوا كذلك.

ثم إذا بجاري، الشاعر الرقيق ديسري العزب الذي يشاركني الضيق والقلق من هذا (الدوي اللفظي) ينكب على ورقة صغيرة أمامه يخط عليها شعراً ولدت هذه اللحظات فتجيء كلماته:

العذاب لبس طاقية

ماشى على الأرض

لكن ماشى فيا

أخطبوط، فارس على ضلوعي.

وطال من عنيا..

.....

حابس وجودي في الكلام

* الأهرام في ٩/٤/١٩٨٧.

محاصرني في وسط الزحام

مشاني في كل الحارات السد.....

وإذا كان الصديق يسري قد ألهمه الموقف شعراً، فقد أخذ نفس الموقف
بذاكرتي متجولاً عبر الحضارات والثقافات ليضع أمامي أنواعاً من الثقافات ميزت
أنواعاً من الحضارات:

إن مؤرخي الفلسفة من الغربيين إذ يرجعون نشأة الفكر الفلسفي إلى
اليونان رغم سبق الحضاري المصري لهم، فقد استندوا في ذلك إلى أمر هام:
فالكم الأكبر من منجزات الحضارة المصرية القديمة كان (عملاً) و(إنجازات):
أهرامات .. تماثيل، معابد، زراعة، تحنيط، مسلات.. إلخ، لكن، ما هي النظريات
التي قام عليها هذا وذلك؟ الإجابة على هذا السؤال غير شاقية في الغالب.. هم
يقولون باختفاء هذه النظريات والأفكار، ونحن نقول أنها ربما وجدت لكنها لم
تصل إلينا، وفي ضوء المعطيات القائمة، فإن لنا بناء على ذلك أن نقول أن الثقافة
التي قامت في مصر الفرعونية كانت ثقافة (عملية).

وعلى العكس من ذلك كانت ثقافة اليونان متخمة بالفلسفات والنظريات في
مجالات الأدب والفن والفلسفة والعلوم حتى حفظ لنا التاريخ منهم عمالقة أمثال
سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم كثيرون. ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة
اليونانية كانت ثقافة (نظرية) لم تتح لها فرص التطبيق والتجريب في غالب
الأحوال. وعندما أراد أمير سيراكيوز أن يتيح لأفلاطون فرصة تطبيق جمهوريته
لم يستطع استكمال التجربة لما واجهه من فشل ذريع منذ خطواتها الأولى وعندما
أراد جاليليو أن يكشف للناس - بالتجربة - خطأ إحدى نظريات أرسطو، كفروه
ورفضوا أن يصدقوا التجربة الصادقة، وأمنوا بالنظرية الخاطئة!

ولعل ما يمكن أن يذكر من فضل للحضارة الحديثة، هو ذلك الالتحام
الشديد الذي تم فيها بين النظرية والعمل والتطبيق حتى أصبحت نتيجة التطبيق
نفسها معياراً أساسياً لعدول فكرة ما أو رفضها. ومن هنا أصبح الاسم الشائع للثقافة
الغربية المعاصرة هو أنها ثقافة (تكنولوجية) حيث تعني كلمة (تكنولوجيا): التطبيق

العملي لمفاهيم العلم ونظرياته ومقولاته الأساسية. وعلى الرغم من التباين المعروف في المنطلقات والأهداف بين الفلسفة الماركسية التي ظلت العالم الاشتراكي وبين الفلسفة البراجماتية التي تحكم الحياة الأمريكية، فإن التزاوج فيهما بين الفكر والتطبيق، قد بلغ درجة عالية من الوضوح.

وتكاد كثير من بلدان العالم الثالث تشترك في غلبة (اللفظية) على ثقافتها حيث تؤدي اللفظية دوراً خطيراً في "تغييب الوعي" وهيمنة التخلف واستمرار الاستغلال واستشراء الاستبداد. وأصبح من المألوف أن ترتفع درجة حرارة ما هو مكتوب على صفحات الصحف وتهتز المنابر بالخطب وترتفع الميكروفونات من الكلمات الملتهية، ثم تنظر حولك في واقع الناس ومعاشهم، تجده سائراً على نفس المنهج القائم على الاستغلال والاستبداد.

وحتى تفقد الكلمة فاعليتها في (التوير)، تثبت الصلة بينها وبين نبض وحركة الشارع وتحمل بما لا تطيق من المعاني. وتغلف بجدار سميك من الانفعالات والعواطف الساخنة، وتملأ سماءها بدخان كثيف، من تميع الحدود بين المعاني، بل وتداخلها واختلاطها فيظل الواقع كما هو، وتدرجياً يفقد الناس ثقافتهم بالكلمات والألفاظ، ويبدو المتقفون أمام الناس هم هؤلاء الذين يصعدون جعجعة، لكنهم لا يثمرون طحناً، وهم أنفسهم ضحايا واقع كرهه يملأ السوق بكم ضخمة من عملة لفظية لا تستند إلى درجة من خبرة الواقع ونبض الحقيقة، ومن هنا يصبح الدور الحقيقي الأول للمتقف في مثل هذه المجتمعات، تعرية زيف هذه العملة!!

بلبله مفاهيمية !!*

في واحد من أكثر برامج التلفزيون المصري شعبية وشهرة، وقف المذيع يسأل مرة تلو أخرى، مواطناً من المواطنين السؤال التالي (بالعامية):
"واحد بيقبض كل يوم اتنين جنيه ... يبقى يقبض كام في الشهر؟"
وقد لاحظت أن المذيع ينطق الجزء التقريري من السؤال في نفس واحد دون توقف، مما جعل كل من سئل يدير عملية سريعة حسابية في ذهنه: إذا كان "الأجر" اليومي جنيهين، إذن فسوف يكون "الأجر" الشهري ستين جنيهًا إذا كان الشهر ثلاثين يوماً .

ومع ذلك، فقد كان تقييم المذيع للإجابة، أنها خطأ.

لكن المذيع، بطريقته عندما يريد أن يعطي الجائزة لمواطن بعينه، تعتمد، في هذه الحالة، أن ينطق الجملة التقريرية الأولى من السؤال بقوله (واحد بيقبض كل يوم اتنين) ثم سكت برهة ليكمل (جنيه)، ففهم المواطن المحظوظ على الفور أن الأجر هو عن يوم الاثنين من كل أسبوع، وبالتالي فهو جنيه واحد، ومن ثم يكون الأجر أربعة جنيهات فقط في الشهر!

وعلى هذا فقد (لعب المذيع) - في ظل استخدام العامية - بمفهوم (اتنين) ليوحي بأنه يعني العدد (٢)، بينما هو يقصد يوماً معيناً من أيام الأسبوع. واستدعى هذا الموقف إلى ذاكرتي على الفور، (الطريقة السوفسطائية) الشهيرة في التلاعب بالمعاني وتمييع الحدود بينها، وإحاطتها بالغموض واللاتحديد، حتى تتاح الفرصة للانتصار الزائف على الخصم. وأتاح المناخ الذي ساد أئينا زمن السوفسطائيين هذا، نتيجة ما شاع من خلل مجتمعي هيكلي، ترتب عليه خلل في بنية القيم، واضطراب واختلاط في المفاهيم التي هي العملة الأساسية في التفاهم بين الناس، فضلاً عن التفكير.

* الأسبوع في ١٩٩٧/٦/٢٩

وشئ مثل هذا نراه بأعيننا في زمننا المعاصر، حتى أصبحت الكلمة تعني عند مجموعة من الناس معنى، غير معناها الذي خلقت له في اللغة، أو تعني معنى معيناً في فترة، لتتقلب إلى الضد في فترة تالية، أو تعني معنى عند فلان، لكنها عكس ذلك عند غيره.. وهكذا.

خذ، على سبيل المثال، ذلك الوصف الذي كانت تطلقه السلطة المصرية منذ العشرينات حتى أول الخمسينات على المفاهيم المتداولة لدى التنظيمات الماركسية، فقد أطلقت عليها وصف (الهدامة) !! لكن عدداً غير قليل من هذه الأفكار، قد استندت إليه السلطة المصرية في الستينيات، مما أتاح الفرصة لوصف هذه الأفكار بأنها (تقدمية)، وغيرها يصبح (رجعياً). ثم إذا بالسلطة، في الوقت الحالي، ترمي عدداً من هذه الأفكار بأنها (متخلفة)، وتسوق الأمور نحو الرأسمالية، على أساس أنها هي قبلة (التقدم) !! وقبل هذا، حدث نفس الشيء في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، حيث كان الحزب الشيوعي هو طليعة (التقدم). فإذا به يوصف اليوم بأنه ممثل (الرجعية) !!

وخذ على هذا النحو : (العدو الإسرائيلي) الذي نهب أرضنا، وقتل عشرات الآلاف من أبناء بلادنا ودمر مواردنا واستهلك آلاف المليارات نزفت من جيوبنا، وكيف أصبح - دون أن يتغير شيء مما سبق - هو (الصديق الإسرائيلي)، والولايات المتحدة الأمريكية التي كانت رائدة الإمبريالية وزعيمة القهر والاستغلال، أصبحت الآن (راعية السلام)، و(القومية العربية) التي كانت طاقة التحرك العربي، فإذا بكثيرين ينظرون إليها على أنها (نعش) الأمة العربية ... ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

وبطبيعة الحال، فالرد جاهز عند من غيروا في مواقعهم وفي مفاهيمهم، وهو أن (الدنيا تتغير) و(دوام الحال من المحال)، (ولا بد للفكر ولا بد للمفكر أن يواكب حركة التغيير، وإلا تحول عقله إلى متحف، وتحولت أفكاره إلى 'موميئات') وفي ظل هذا المنطق الصحيح (شكلاً) يتخفى كثيرون من هوة تغيير الجلود

وتنوع ألوان المكياج حسب اتجاه الرياح، والموقع من السلطة، والعلاقة بمراكز القوة والنفوذ ... الراقصون على الحبال، الضاربون بالدفوف أمام كل موكب !!
وشئ مما كان سابقاً، يحدث مثله الآن ... لقد توقف الحديث عن (التقدمية) في مقابل (الرجعية) لارتباط كل منهما بموقع سياسي معين، فما الحل، وبعض من كانوا في الموقع الأول قد انتقلوا إلى الثاني!؟

هنا برز مصطلح (التنويري) في مقابل (الظلامي) ليميز - دون تصريح معلن - بالفرقة بين الناس في الموقف من (الدين): هل يصبح شأناً فريداً خاصاً داخل المسجد وما مثله، في صورة طقوس وشعائر أم يصبح نهجاً مجتمعياً يوجه الحركة في مجالات شتى؟ وهي القسمة التي تعبر عما شاع بين (علماني) و(ديني).
وهنا أيضاً نجد سوء استخدام للمفاهيم، فالقرآن الكريم نفسه يمتلئ بالآيات التي تصف المؤمنين به، نهجاً حياتياً، بأنهم أهل (نور)، أما غيرهم فهم أهل (ظلام)، وقرأ معي هذه الآيات البيّنات:

- "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" البقرة/ ٢٥٧
- "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين" المائدة/ ١٥
- "فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه هم المفلحون" الأعراف/ ١٠٧
- "كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور" إبراهيم/ ١
- "هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور" الحديد/ ٩

... وغير هذا وذلك من الآيات القرآنية.

وخذ مفهوماً آخر مثل (التطرف)، فإذا سألت عن معناه، فلن تجد صعوبة في ذلك، فهو خروج عن حد الاعتدال. وما حد الاعتدال؟ هو ذلك الوسط الذهبي الذي يحظى بأكبر قدر ممكن من التحسين والافتتاع القومي في مجتمع بعينه. وعلى هذا، فإذا كان التطرف، بهذا المعنى، مستهجناً ويستحق مواجهته بكل الحزم،

إن هذا يستتبع الاتساق مع المعنى الذي لا يقتصر على مجال دون آخر، وذلك بلأن تجئ المواجهة شاملة وعلى كافة الجبهات. لكننا، في التطبيق، نجد الجهد المبذول متجهاً إلى مجال واحد بعينه، دون أن تحظى صور التطرف الأخرى بنفس الحدة من الاستهجان، ونفس الدرجة في المواجهة، مع أن التراخي في مواجهة المجالات الأخرى من التطرف من شأنه أن يغذي المجال الأول بمزيد من البذور التي تنبت أشواكاً جديدة تدمي حياتنا الاجتماعية والثقافية.

وهناك، في التعليم، مفهوم (المجانية)، الذي لا نملك الشجاعة الكافية لإعلان الوفاة الرسمية له، فهو قد مات فعلاً. وشبع موتاً. ويمكن أن نملأ صفحات طوال للبرهنة على وفاته، أبسطها ما شاع أخيراً من تظيم يسمى (بمجموعات التقوية) بالمدارس، فالآباء والأمهات الآن يدفعون مئات الجنيهات عن الطالب الواحد، سنوياً، ومع ذلك فما زلنا نسمي تعليمنا (مجاني).

وأخيراً، فهناك مفهوم (الخصخصة)، التي لا أجد داعياً لتفصيل معناها، فقد أصبح شائعاً، لكنك عندما تفنن عن واقعه في التعليم فسوف تجد أنه يعني فقط خصخصة (التمويل)، لكن كلاً من (الامتحانات) و(المنهج) ممنوع الخصخصة فيهما ... وهكذا.

إنها ردةً إلى نفس المنطق السوفسطائي : (الإنسان مقياس كل شيء .. ما يوجد وما لا يوجد)، والإنسان هنا، ليس هو (الإنسان العام) وإنما هو هذا الفرد أو ذلك، أو هذا هو (النظام) أو ذلك. ومثل هذا المنطق يستحيل أن ينتج تقدماً، بل يحدث تهقراً، ويتعذر عليه أن يرشد إلى النور، بل يقذف بنا إلى هوة مظلمة.

• حق الاختلاف

في إحدى سنوات حكم أبي جعفر المنصور، ذهب الخليفة العباسي قاصداً الأراضي الحجازية لتأدية فريضة الحج، فدعا إليه الفقيه المعروف مالك بن أنس، فلما جاء الفقيه، قال له الخليفة: إني قد عزمت أن أمر بكتبك هذه التي وضعتها - يعني الموطأ - فننسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وأمرهم أن يعملوا بما جاء فيها لا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قال مالك: يا أمير المؤمنين: لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم.

ها نحن أمام موقف فريد من مواقف الفكر النادرة: مفكر عملاق يفتح له السلطان الأبواب على مصراعيها كي يعمم فكره في أرجاء أكبر إمبراطورية في ذلك الوقت، لكن المفكر العملاق لا يسعد بذلك، بل يرجو السلطان ألا يفعل، فالتناسقات وشرائح وأحزاب وشيع، ولكل منهم رؤاهم الفكرية وفكرهم الذي تشبعوا به وساروا على دربه.

وهذا أبو حنيفة يقول: علمنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب، ويرد عندما يسأله أحد تلاميذه: أهذا الذي تعنى به هو الحق الذي لا شك فيه؟ بقوله: الله أدرى، فقد يكون الباطل الذي لا شك فيه.

ويرتفع رأي فقيه آخر كبير ليقول: رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ محتمل الصواب.

• الشعب في ١٨/٧/١٩٨٩

هذه بعض روايات العهد الأول لفكر هذه الأمة: تتعدد شخصياتها وتتباين مواضعها ومناسباتها، لكنها تتحد في الدلالة والمعنى: لحق بشري لا أمل في مستقبل لا تقيم حياتها الفكرية عليه، ألا وهو حق الاختلاف.

وإنه لما يثير الانتباه حقاً، أننا - على مستوى النظر - قد نجد لهذا الحق إقراراً وتأييداً، لكن هذا الإقرار لا يجرى مطلقاً، وإنما هو دائماً مشروط بشرط له وجاهته العقلية ومشروعيته المنطقية، لكنه - عملياً - عصي التحقيق، غامض التنفيذ، إذ غالباً ما يقال: إننا نرحب بالرأي الآخر إذا جاء بناء!! ويقف المرء حائراً، حول المعيار الذي نفرق به بين الرأي يوصف بأنه بناء والرأي يوصف بأنه هدام، وفي ظل هذه الضبابية المعيارية، كثيراً ما يغتال (العقل) وكثيراً ما يعتقل الفكر.

لقد اقتضت حكمة المولى عز وجل أن تكون لكل إنسان بصمة في أصابعه هي فيصل بين حق وباطل. ولقد أكدت الدراسات العلمية الأخيرة أن البصمة الخاصة بالإنسان ليست فقط في أصابعه وإنما هي أيضاً في صوته، وفي نمه، بل وفي خطوه، أفليس الأقرب إلى الصواب أن نعترف أيضاً بأن لكل إنسان بصمة عقلية تجعل من التعدد والتباين بين نتاجها الفكري ما يقعد لمشروعيتها وجوداً وفعلاً؟ ومن هنا يجرى صوت الحق تبارك وتعالى: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" ويحدد مهمة النبي "إنما أنت منذر"، وإنه "ما على الرسول إلا البلاغ"، و"إن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إن عليك إلا البلاغ".

أفليس ذلك يؤكد مرة أخرى هذا الحق الإنساني الحيوي، ألا وهو: حق

الاختلاف؟

إننا إذ نؤكد على هذا ونلح عليه، فلأنه يرسي حجر الأساس في بناء الفكر الناقد الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام عقل الأمة كي يبدع وينتج ويسهم في بناء المعرفة والحضارة.

وإذا كان (حق الاختلاف) يشكل للفكر مشروعية التلاحح اللازم لبدء الوجود، فإن (الأمن) يشكل شرط ميلاد الفكر، والأمن الذي نقصده هو الذي عبر

عنه عز وجل في معرض تعداد نعمه على أهل قريش، فقد اكتفى بالقول بأنه (أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف...). إنه إذاً أمن يتعلق بمدى توافر الاحتياجات الأساسية للإنسان: فمعدة خالية يستحيل أن يصدر من فم صاحبها إلا الرأي التابع لمن يلوح له بلقمة العيش. والجسم العاري، لن تقتصر حركة الارتعاش على هيكله البدني البادي للعيون، وإنما تمتد لتشمل عقله بحيث لا يصدر منه إلا فكر مرتعش يتعلق نظره بمن يلوح له بقطعة قماش، والقلب المسكون خوفاً، لن ينتج إلا الرأي المسكون جيناً...

وإذا كان (الأمن) يشكل شرط الميلاد للفكر الناتج عن (حق الاختلاف)، فإن هناك شرط استمرار الحياة لهذا الفكر، عن طريق توفير فرص التعبير عنه عبر القنوات المتعددة: تعبير مشاركة لا تعبير انصياع... تعبير إبداع، لا تعبير اتباع. وإذا كان من مبادئ العدل الاجتماعي عدالة توزيع الثروة، فلا تستأثر بها قلة مستغلة على حساب كثرة مستغلة، فإن من مبادئ العدل الثقافي أيضاً أن يقوم العدل في توزيع فرص التعبير عن الرأي، فلا يستأثر بها وسواس خناس يوسوس في صدور الناس، فيشع وعياً زائفاً وتسطيحاً في الفكر، على حساب رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، يبشرون بالوعي المنشود: صحة وسلامة.. علماً واستنارة.

وإذا كان تعدد قنوات التعبير عن الرأي، وعدالة توزيع فرص هذا التعبير شرطاً أساسياً، إلا أن الفكر ليس نتاج حركة حجرة تتحول إلى ذبذبات تذهب أدراج الرياح، ولا هو قطرات مداد على ورق قد تزيلها قطرات ماء، وإنما هو اشتباك مع هموم الواقع واشتياق إلى بناء المستقبل بعد تصوره والتخطيط له، فإذا لم يجد هذا الفكر صداه لدى صانع ومنتخب القرار، أصبحنا أمام حرية صراخ وعويل.. وويل لأمة يتحول فكر أبنائها العلماء والخبراء إلى مجرد صراخ وعويل!!

لكن البعض قد ينظر إلى (اختلاف الرأي) على أنه (ترف) لا تحتمله أمتنا، وإننا في مرحلة تستدعي تكثيل الجهود وتحشيد أفراد الأمة على طريق واحد حتى لا تتشعب بنا السبل ويضيع من قدمنا الطريق... وكان هذا وهماً صدقناه سنوات ماضية، وما أنتج إلا إنساناً مقهوراً يسكن الخوف جوانحه ... ويملاً التباغض قلبه.

إن ضرورة ممارسة حق الاختلاف تنبئ من جهات أربع:

أولها: أنها تعمل على التصويب والتصحيح، فمن منا يستطيع أن يزعم أنه إمام معصوم؟ ومن منا يستطيع أن يقول قولاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ إن تنوع الرأي يكشف عن أخطاء قد لا نبصرها، ويبين ثغرات قد نغفلها، ويعري سلبيات قد نجهلها.

ثانيها: إنها تمكّننا من الإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه، فالحقيقة الكلية لا يعلمها إلا خالقها، وكل منا مهما أوتي من القدرة فإنما يبصر جانباً من الحقيقة وتعدد الآراء وتنوعها يعني تعدد زوايا الرؤية وتنوعها، وبالتالي محاصرة القضية من جوانبها المتعددة.

ثالثها: إنها تمد الفكر بأسباب النمو والإثراء، فعندما تتكشف لنا الأخطاء، وتبين الثغرات وتتعرى السلبيات، ويضم الرأي مختلف الزوايا والرؤى، ويستجاب لما صح من كل ذلك، يخطو الفكر خطوات إلى الأمام نتيجة تراكم مبدع وتطور خلاق.

رابعها: أنها بهذه الشروط التي سبق أن قدمناها، وبهذه الدواعي التي أوجبنا الالتزام بها، إنما تمد الفكر بالقدرة على التغيير والتطوير، وهي المهمة الأساسية للفكر على وجه العموم، فهو ليس حلية يتزين بها المتفنون، وليس لعبة نقضي بها وقت فراغنا إذا وجدناه، وإنما هو أداة تطوير ووسيلة تقدم بالضرورة.

وتتجلى خطورة هذه الجهة الرابعة بالذات في مجال تربية الإنسان وبناء البشر، ذلك أن أية أخطاء قد نقع فيها، لا تنحصر في بيئة بذاتها، وإنما تكتسح كل البيئات والشرائح. كما أن خطورتها تنبئ في أنها، غالباً، غير مرئية، مما لا

جعلنا نشر بها حال حدوثها بحيث يمكن معاصرتها ومواجهتها، وإنما تداهنا وقد استفحل الخطر، وعندئذ يفقد جسم الأمة مناعته في مغالبة المشكلات والعقبات.

لكن الحوار اللازم لحسن ممارسة حق الاختلاف، بحاجة إلى (آداب)

تضمن له فعالية التوجيه ورشد التغيير، هذه (الآداب) تلخصها في أربع:

أولها : فك الاشتباك بين (الذات) و(الموضوع)، فبعض من يمارسون النقد يحدون عن الفكرة أو السياسة أو الإجراءات موضوع الحوار ليتناول شخص صاحبها، وبعض من يتعرض فكره أو سياسته أو إجراءاته للنقد أحياناً ما يعتبر هذا النقد موجهاً إلى شخصه هو، وهنا نجد أن الأول، بالتهجم الشخصي، يفرغ نقده من مضمونه ويفقده قيمته، ونجد الثاني يضيف إلى رصيد أخطاء فكره أو سياسته أو إجراءاته، أخطاء أخرى.

ثانيها : أن تحكم لغة الحوار تلك القاعدة السامية وهي: (الجدال بالتي هي أحسن)، وإذا أردنا ترجمة إجرائية لهذا المبدأ، فإنها تعني أن يجئ الرأي الآخر مقترناً بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية، وألا يتضمن لفظاً أو عبارة تخرج عن حدود ما هو متعارف عليه في الآداب الاجتماعية والأخلاقيات العامة، وأن تكون أداة مواجهة الفكر: فكر آخر، لا قوة سلاح ولا سلاسل ولا زنازين.

ثالثها: أن تحكم سلوك المتحاورين قاعدة أخرى، ألا وهي أن يكون هؤلاء وهؤلاء من (الكاظمين الغيظ): "فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك".

رابعها: أن يجئ الرأي نفسه نتيجة مشاوره، حتى لا يجنح نحو آمال تضو أكثر مما تنفع، وحتى لا يجنح إلى أفكار تباعد وتنافر، أكثر مما تقرب وتودد.

تلك هي سبيلنا ... "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة".

وهي سبيل نفر "دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين".

ثقافة البعد الواحد

أرأيت إلى ذلك الطفل الصغير في شهور عمره الأولى، يواجه عالمه بنظرات زائغة مشتتة، لا تكاد تستقر على اتجاه، وإذا تناول شيئاً، لم تتسق حركة يده مع حركة عينيه؟

ثم .. أرأيت بعد ذلك، عندما يتجاوز عاميه الأول والثاني، كيف يولع بقذف الأشياء وخاصة من عل، ولا يفناً محاولاً وضع أصبعه أو أي شيء يستطيل بعض الشيء في الفتحات المختلفة سواء في وجهه مثل فمه أو أنفه، أو أنيابه، أو في باب أو في جدار؟

إنه في الحالة الأولى، يفنّد تلك (الأبعاد) التي تعطي الأشياء شكلها وحجمها وموقعها ... الأشياء تبدو أمامه مسطحات بلا أبعاد!

لكنه في حالته الثانية، يكون قد وعى وأدرك تلك الأبعاد، فيغرم باختبار الأشياء حتى يعي حجمها وشكلها وموقعها (الحقيقي) فيضع قدميه على طريق النمو العقلي والتطور الفكري.

هكذا تبدو الثقافة عند الأمم والشعوب في مختلف الأزمنة والعهود، ككائن حي، يخضع إلى حد كبير لكثير من قواعد النمو ومبادئ التطور.

ومن عجب، أننا مع هذه الدرجة التي صرنا إليها من التقدم والتطور، تلك الدرجة التي جاوزت أحلامنا السابقة، ما زلنا نشاهد ثقافات عند ذلك المستوى الأولى ذي البعد الواحد في تناولها للعديد من القضايا والمشكلات، فلا يرى أصحابها سائر أبعادها حتى يمكن أن يتوافر لديهم الوعي المستدير بحجمها وشكلها الحقيقي! ولكن كيف؟

أرأيت إلى هذه القائمة الطويلة من (الثنائيات) : المجتمع والفرد - الجسم والروح - الجبر والاختيار - الحرية والنظام - الشكل والمضمون - الكم والكيف .. إلخ.

كم من عهود وعصور .. وكم من صفحات وموجات أثير .. وكم من أيام وليال أنفقها الإنسان مفكراً، وباحثاً، ومتحدثاً، ومحاوراً فيها : فتارة نجد هذا ينتصر لذلك الطرف، وتارة نجد ذلك ينتصر للطرف الآخر .. وكل في فلكه يسبحون؟

وبالطبع، فعندما يحكم مفكر بأن الإنسان - مثلاً - "مُسَيَّر" فقط، وأننا لا نملك من أمرنا شيئاً، وما نحن إلا ريشة في مهب الريح و"المكتوب على الجبين" لا بد أن تراه العين، وما الحياة في جملتها إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ... هذا الذي ينظر إلى تلك القضية من هذه الزاوية، لا بد أن يجد الطرف الآخر في رأيه ثغرات يمكن أن يهاجمه منها ليجد أدلة وشواهد تؤكد وجهة نظره هو من حيث وجود حرية الاختيار لدى الإنسان. لكنه هو بدوره، عندما يرفض، كلية، وجهة النظر الأولى القائلة "بالتسيير" الجبري، يقع في ثغرات أخرى، يمكن لخصمه أن يهاجمه من خلالها .. وهكذا الأمر في سائر القضايا.

إنها صورة من صور الثقافة ذات البعد الواحد التي تصر على النظر إلى الأمور من زاوية واحدة، دون أن تبصر الحقيقة ذات الأبعاد المتعددة.

ولو شئنا الاستمرار في هذا المثال لنؤكد تعدد الأبعاد، لتبين لنا أن هناك مجالات لا قبل بالفعل للإنسان بتقرير أمره فيها: فلم يكن لي خيار في أن أولاد من زوجين اسمهما كذا وكذا، وهما والداي، ولم أختار أن أولاد مصرياً، وأن تكون اللغة الأم لي هي اللغة العربية. وولادتي مصرياً، من الطبيعي أن تحيطني بكم هائل من المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية التي تلعب دوراً كبيراً في تشكيل شخصيتي بما تحمله من بصمات واتجاهات وقيم.. وكل هذا كان يمكن أن يتخذ مساراً آخر لو ولدت في فرنسا أو أستراليا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتي أو غير هذه وتلك من البلدان الأخرى... وكل هذا

لابد أن "يكون" ويوجه إرانتني بطريق غير مباشر وأحكامي على مختلف القضايا والمسائل!

وكذلك لم أختَر أن أكون مسلماً، وأن تكون النشأة الأولى في بيئة ريفية لها تقاليد وعاداتها وأنماطها المعيشية ونسقتها القيمي، كما أن الإسلام "نظام حياة" يشيع في جوانب حياة المسلم كما غير قليل من المعايير والاتجاهات وزوايا الرؤية والحكم على الأمور..

ولست أنا الذي اخترت لون عيناوي ولون بشرتي، وأن يكون طولي كذا أو كذا، وهذا وذلك أيضاً له دوره الذي لا يُنكر في تكوين الشخصية...

هل يستطيع أحد أن ينكر هذه الأبعاد "الحتمية" التي لابد أن يكون لها تأثيرها في توجيه الإرادة الإنسانية؟
لا أظن

لكننا نجد أنفسنا أمام حقيقة أخرى تفرض نفسها، وتلك هي أن الإيمان بالله وباليوم الآخر وما يرتبط به من "حساب" يفترض بالضرورة، حرية الإرادة، لأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين "المسئولية" و"الجزاء"، إذ كيف يثاب إنسان أو يعاقب على ما لم تكن له حرية إرادة اختياره؟

بل إنك إذا نظرت إلى القوانين الوضعية، فسوف تجدها جميعاً قد أقيمت على قاعدة (المسئولية): فالذي يسرق، أو يقتل، أو كذا وكذا من الأعمال التي تشكل انحرافاً واضحاً، له عقابه الذي يتناسب مع جنس وقدر الانحراف المرتكب، وكيف تستطيع أن تنكر أنني أنا الذي اخترت تعلم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم اخترت بعد ذلك دراسة العلوم التربوية والنفسية بجامعة عين شمس؟ وأنني اخترت زوجتي وأصدقائي .. إلى غير ذلك من محيط ضخم من الأفعال التي أتحمل مسئوليتها؟

ولو شئنا لأتينا بكم كبير من الآيات القرآنية والبراهين المنطقية والأدلة العقلية والشواهد الاجتماعية والتجارب والدراسات العلمية التي تؤكد صحة هذا الذي نقوله ونؤمن به، لكننا لا نقصد هنا مناقشة هذه القضية في حد ذاتها، وإنما

نشير إليها في إيجاز، وكمثال يبين خطأ التفكير ذي البعد الواحد عندما يسيطر على ثقافة من الثقافات، أو مجتمع من المجتمعات!

وانظر بعد ذلك إلى قضية أخرى تثير الكثير من الجدل لدى كتابنا المعاصرين ألا وهي تجربة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢..

فلو جمعت ما كتب عنها، وهو كم كثير، فسوف ترى عجباً حقاً ..

لكن الملاحظة الهامة هنا، أنك ستجد ما كتب ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما.. ستجد قسماً ينهال عليها بالسهام والنبال أحياناً، وفي الغالب يسلط عليها المدافع والقنابل والبوارج والغواصات .. فهي في نظر أصحاب هذا القسم (قتلت) و(شردت) و(نهبت) و(أنلت) .. إلى غير ذلك من ألفاظ ومصطلحات تجتمع حول دلالة واحدة، وهي أن هذه الثورة كانت (كارثة تاريخية)!!

فإذا اتجهت إلى القسم الآخر، فسوف تجد صورة مناقضة للصورة السابقة تماماً، ستجد الورود والرياحين، والبسمات والابتهالات، والبركات وطيب الأمنيات، فهي في نظر أصحاب هذا القسم هي التي "حررت" الإنسان العربي لا في مصر وحدها وإنما في معظم أنحاء العالم العربي، وهي التي طاربت الاستعمار وكافحته في كل مكان، وهي التي حاولت أن تقف للصهيونية بالمرصاد، وهي التي قضت على وسائل وصور الاستغلال الاجتماعي والاحتكار الاقتصادي إلى غير ذلك من ألفاظ ومصطلحات، تشير كلها إلى دلالة واحدة، هي أن هذه الثورة، كانت نروة النصر العربي وصفحة مشرفة من صفحات التاريخ!

وليس هنا مجال التقييم الحقيقي لهذه الثورة، وليس هذا هو هدفنا، ولكن ما نسعى إلى التنبية إليه هو أن كلاً من الطرفين ينظر إلى (القمر) من ناحيته هو فقط متجاهلاً أن هناك جهة أخرى تكون مع الأولى حقيقة القمر .. هؤلاء يقفون تجاه وجهه المنير، وهؤلاء يقفون تجاه وجهه المظلم...

فريق لا يرى من هذه الثورة إلا أفعال الأجهزة الأمنية وخاصة المخابرات وما شهدته السجون والمعتقلات، وما تم من مصادرات وتأميمات وفرض حراسات وهزيمة مدوية في يونيو سنة ١٩٦٧.

وفريق آخر تتجذب عيناه إلى تلك الشعوب العربية التي كانت محتلة
فتحررت، إلى تلك المشروعات الإنتاجية العملاقة كالسد العالي والحديد والصلب
وغير هذا أو ذاك..

ومن المناقشات التي تدور بين الفريقين، تجد لهجة "التكفير" هي المسقطة:

إنه التفكير ذو البعد الواحد !!

ولو دققنا النظر في أقوال وحجج المعارضين، فإننا لا نستطيع أن نسلوهم
في منطقتهم إلى مدى بعيد، إذ مما لا شك فيه أن قوى الاستعمار والصهيونية
خطت كثيراً لاغتيال زعيم هذه الثورة الراحل جمال عبد الناصر، والذي يقرأ
الوثائق الخاصة بهذه الفترة يلمس بغير غموض أو لبس، أن الكثير من التحركات
الاستعمارية وخاصة من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إنما كانت تستهدفه
هو بصفة خاصة، فإذا استحضرننا إلى الذهن تلك المقولة المنطقية التي تقول "عدو
عدوي صديقي" .. نستطيع التيقن أن هذا العداوة الاستعماري والصهيوني المحموم
تجاه زعيم هذه الثورة إنما يدل دلالة قوية على اتجاه هذه الثورة على طريق
التحرير والبناء لصالح الأمة العربية.

لكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الأسى عندما يدفع
الحب والإعجاب والتقدير بالأنصار إلى الدفاع عن عدد من الانحرافات الواضحة
وخاصة فيما يتعلق بالقضية الديمقراطية في صورتها الفكرية. وأن حب الثورة
وتقديرها والإخلاص لها لا يقلل منه أبداً الاعتراف بالأخطاء والانحرافات، وإلا
فإن إنكار هذا إنما يعني تفكيراً لا تاريخياً، لأن التجربة التاريخية لأي ثورة من
الثورات طوال مختلف القرون والعهود لا تدل على أن أيها من قبلها قد مسلم من
الانحراف ومن الخطأ، وإلا فيماذا تفسر عدم القدرة على الاستمرار؟ صحيح أن
البعض قد يسارع برفع راية العوامل الخارجية المضادة، ومع إقرارنا بدورها
الفعال، إلا أننا نؤكد من جانبنا أن العوامل الداخلية هي الأكثر فاعلية والأكثر
حسماً!

ونستطيع أن نسير على نفس المنوال بالنسبة لقضايا أخرى مماثلة...
وهناك صور أخرى من صور التفكير ذي البعد الواحد، ألا وهي التي يتبدى فيها
القول بالعامل الواحد في تفسير الظواهر الإنسانية على وجه العموم. إن هذا إذا
جاز بالنسبة للظواهر المادية غير الحية بحيث تقول أن الحرارة هي التي تسببت
في تمدد هذه القطعة من الحديد أو ما شابه ذلك، فإنه لا يجوز بالنسبة للظواهر
الإنسانية والظواهر الاجتماعية!

إن مصادر الفكر تحفظ لنا عدداً غير قليل من المذاهب ذات البعد الواحد،
فهذا مذهب يؤكد فيه أصحابه أنها جملة الظروف الاقتصادية وحدها، ومذهب ثالث
يرى أنها تكمن في العرق والسلالة والجنس... وهكذا.

ولا شك أنك إذ تقرأ الأمثلة التي يسوقها أصحاب كل مذهب، تلمس فيها
وجاهة رأي، وآيات صحة وصواب، ذلك لأنهم وقفوا عند (زوايا) و(مواقف)
بعينها قد يصدق عليها تفسيرهم، لكنك عندما تقلب البصر أكثر فأكثر، سوف تواجه
بأمثلة أخرى لا يقوى أي مذهب بمفرده على تفسيرها.

وليس هناك مجال مناقشة هذه المذاهب، فهذا باب يطول الحديث فيه، إذ
يحتاج، لا إلى صفحات أخرى، وإنما يحتاج إلى بحوث ودراسات عديدة تستغرق
شهوراً وأعواماً، ويكفي أن نشير هنا إلى ذلك المثال الشهير الذي ساقه (أبو حيان
التوحيدي) من أننا أمام الحقيقة، كمجموعة من العميان، التفتوا حول (فيل) دون أن
يعرفوا مسبقاً، أنه كذلك، ثم طلب من كل واحد منهم أن يقول رأيه فيما هو أمامه،
فمد كل منهم يده إلى الموضوع الذي أمامه من الفيل، وبناء على ذلك قال إنه كذا..

وبطبيعة الحال، فمواضع الأيدي قد اختلفت، ومن ثم، اختلفت الآراء
والأحكام! فكل منهم صادق بالقياس إلى موضع خبرته، لكنه يكون غير صادق لو
نسى (محدودية) إدراكه وحكم بأنه قد ألم بالظاهرة من جميع أطرافها، ويحكم بأن
رأيه هو وحده، الصواب، وأن الآخرين غير ذلك!

إن الحقيقة هي (جماع) تلك (الآراء) لكنها ليس مجرد حاصل (جمع)، وإلا
لجمعنا - مثلاً - عيني الفيل بجوار ذيله، وأقدامه الأربعة بجوار بعضها على خط

أفقي واحد. إن هناك موازين ومعايير ونسب وعلاقات، يحتاج (التوفيق) فيها جهوداً فكرية طويلة، وتجارب وخبرات واجتماع عدة عقول.

إن النظرة الفاحصة لكثير من مظاهر (الكون) تؤكد بجلاء ووضوح، أنه "منظومة" كبرى، يرتبط بعضها ببعض، لا ارتباط تجاور مكاني أو تنال زمني، وإنما ارتباط تفاعل وجدل... ارتباط علاقات وظيفية .. هذه المنظومة الكبرى نفسها تتكون من مجموعات شتى من المنظومات الأخرى، التي يضم كل منها منظومات فرعية أيضاً ... وهكذا حتى نصل إلى الذرة.

وليس هذا القانون بقاصر فقط على الظواهر الكونية، وإنما هو أيضاً كذلك بالنسبة للظواهر الاجتماعية (البشرية) بحيث يتحتم علينا التفكير فيها بنظرة (شبكة) تكاملية، وبقدر ما تكون ثقافتنا على الطريق بهذه النظرة بقدر ما تتجاوز مرحلة الطفولة ذات البعد الواحد.

ومع ذلك، تبقى أمامنا معضلة تحتاج إلى تفكير ...

فإذا كنا نقول بأن التفكير ذا البعد الواحد إنما يعبر عن (طفولة فكرية) فما القول في تلك الحقيقة التي تقول أن عدداً غير قليل من المذاهب والفلسفات والنظريات العلمية والفكرية الكبرى هي التي يشيع لديها القول بهذا البعد وحده أو ذلك. أليس أفلاطون وديكارت - مثلاً - هما اللذان قالاً بأن الفكر هو الحقيقة الجوهرية في عالم الإنسان .. وسار وراءهما عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين التاليين؟

أليس كارل ماركس هو القائل بالعامل الاقتصادي، وفرويد بالعامل الجنسي إلى غير هؤلاء من شواخ الفكر وأعلامه؟

إننا مع تسليمنا بعظمة هؤلاء وغيرهم وشموخهم الذي لا ينكر، إلا أننا لا نغفيم من خطأ المنهج، ودليلنا الأساسي هو أن أياً منهم - كما سبق أن أشرنا - لم يستطع بنظرته أن يقدم "المفتاح" الذي يفتح به أسرار الكون والحياة ويدعم هذا أيضاً أننا - على وجه التقريب - ومنذ القرن العشرين، لم نرى مثل هذا النموذج

من المفكرين المغرمين بتصور القدرة على تفسير مظاهر الحياة الإنسانية بالقول
بيعد واحد ...

لقد ذهب هذا الزمن وولى، لأنه زمن الطفولة الفكرية البشرية حتى ولو
كانت قد امتدت قرناً عبر قرون...

وإذا كان هذا قد زال بالنسبة لأعلام الفكر الكبار، إلا أن هذا النمط من
التفكير ما زال يمارس "جماعياً" في بعض المجتمعات وبعض الثقافات مما يدل
على أن هناك "جيوباً" ثقافية ما زالت تعيش مرحلة الطفولة الفكرية ذات البعد
الواحد.

ونحن نرتكب جريمة كبرى في حق أطفالنا وشبابنا عندما نقدم لهم الكثير
من المعلومات والمعارف في ظل مثل هذا المنطق البدائي، ونظرة واحدة إلى
مقررات التاريخ - مثلاً - التي تدرس في مختلف المدارس العربية ستجد أن ثلاثة
أرباع كل منها على الأقل تركز للتاريخ السياسي وحده وإهمالاً للتاريخ الاجتماعي
والاقتصادي والفني، بل إن التاريخ السياسي نفسه، لا نرى فيه إلا سيرة الحكام
الذي يتربعون على قمة السلطة السياسية، أما حركة الشعوب نفسها، أما حركة
الثورة، ومواقف القوى المعارضة فتلك يهال عليها تراب الصمت والنسيان، وإذا
أشير إليها، صورت على أنها "عصيان" و"تمرد" لا على أنها تمثل وجهة نظر
أخرى.

وهكذا تنشأ أجيال لا ترى بالنسبة للرأي إلا بُعداً واحداً، وتنشأ أجيال
تتوهم أن التاريخ ملك فقط "للناس اللي فوق" أما "الناس اللي تحت" فهؤلاء يلقون
في سلة المهملات ...

إن صحة الجسم وسلامته، السبيل إليها "تنوع" العناصر الغذائية، فالجسم
لو عاش على عنصر واحد مهما كانت قيمته، يصاب بالهزال والمرض...
كذلك الشأن بالنسبة للثقافة، إنما يغذيها ويحفظ لها الحيوية والاستمرار
والازدهار أن تتنوع العناصر المغذية لها ... أن تتعدد الآراء وتختلف الأفكار
وتتباين وجهات النظر!

عبيد في سوق رقيق الفكر

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بوقت قصير، أصدرت وزارة الإرشاد القومي (الإعلام الآن) سلسلة من الكتب للتقييف السياسي على مستوى رفيع وجيد أسمتها (اخترنا لك).

وفي أحد الأيام، كنت ممسكاً بواحد من هذه الكتب لفيلسوف الميامة الإنجليزي المعروف 'هارولد لاسكي'، عندما كنت في زيارة مع صديق لمقر فرع لإحدى الجماعات التي كان هذا الصديق عضواً فيها، وكان هذا، إن لم تخني الذاكرة، في عام ١٩٥٤، على وجه التقريب، وفي بلدنا (المرج). وهناك، كان أحد كبار مسؤولي المناطق في الجماعة، فلما رأى كتاب 'لاسكي' معي، تساءل عما يدعوني لحمل هذا الكتاب، فكان طبيعياً أن أحجبه بأني أحمله كي أقرأه، فإذا به يقول أن هناك كتاباً آخر يعالج نفس الموضوع الذي يعالجه 'لاسكي'، لأحد كبار مفكري الجماعة، فأجبت بأن الكتاب الذي يشير إليه قد قرأته كذلك. وظننت أن المناقشة لابد وأن تنتهي عند هذا الحد، أو تتطور إلى عقد مقارنة بين الكتابين يطلبها مني السائل، لكنني فوجئت به يقول لي متسائلاً: إنك ما دمت قد قرأت كتاب مفكرنا الكبير، فما الداعي لأن تقرأ لهذا الكاتب الإنجليزي؟ إن كاتبنا يقدم لك رأي الإسلام الذي هو دينك، ويجب أن تعمل به، لكن هذا الكاتب الإنجليزي يقدم أفكاره هو، المتأثرة بهذا المذهب أو ذلك: مما كان معروفاً من مذاهب، سواء الاشتراكية، بأجنحتها المتعددة، أو الرأسمالية، أو غير هذا وذلك.. إنه يبلبل تفكيرك، وأنت ما زلت صغير السن (وكنت في ذلك الوقت أقرب من السابعة عشر من العمر).

كان ردي هو أنه لابد لي، كمسلم، أن أعرف ما يقوله الآخرون حتى أستطيع مناقشتهم والرد عليهم، كما أن قراءة الآخرين، قد تزيد من قناعتني بالفكرة التي أؤمن بها، وقد تكشف لي هذه القراءة عن خطأ وقعت فيه دون أن أدري!

مجلة سطور - أبريل ١٩٩٨، ونشر بعنوان (اعتقال العقل).

لم يبد على وجه هذا المسئول ارتياح لإجابتي، ونظر إلي وقد امتلأت عيناه بعلامات الشك الممتزج بالدهشة.. الشك في شخصي، لأنه كان يظن - كما قيل له - أنني (صديق) يمكن ضمه للجماعة، لكن إجابتي أوحى له بأنني لست صديقاً (صاقياً) وإنما (ملوث) بأفكار الأجانب، والدهشة، لأنه - ربما - فوجئ بموقف ظن - ربما مرة أخرى - أنه أكبر من سن صاحبه!

وعلمت بعد ذلك أن هذا المسئول قد (نصح) بعدم الترحيب بتردي علي الفرع، حيث كنت دائم الزيارة له لاستعارة كتابات مفكري الجماعة لقراءتها.. كانت هذه الواقعة مثلاً من عشرات الأمثلة التي حفرت في نفسي خطورة أن (أعتقل) عقلي في جماعة من الجماعات أو مذهب من المذاهب المعروفة في ساحة الثقافة المصرية، إيماناً مني بأن (الانتماء التنظيمي) بصفة خاصة، يحتم علي، بالضرورة، الدفاع عن كل رأي يصدر من الجماعة، والهجوم على كل رأي يصدر من خارجها، وأنا لا أقصد جماعة محددة بالذات، وإنما أقصد أي اتجاه أو مذهب فكري معروف. وقد أتاح لي هذا فرصاً لا أول لها ولا آخر، لرؤية المذهب أو الاتجاه من الداخل، ومن الخارج معاً، من اليسار ومن اليمين، من أعلى ومن أسفل.. من مختلف الزوايا والاتجاهات، مما يتيح للإنسان إمكانية الاقتراب أكثر من الصواب..

كانت قراءتي لأساسيات الفكر في المذهب، تتيح لي فرصة رؤيته من الداخل، وكانت قراعتي عن المذاهب المغايرة والآراء المخالفة تتيح لي فرصة البصر بالعيوب وأوجه الخلل، إذ عادة ما لا يراها المنتمون انتماء تنظيمياً، مصداقاً لقول القائل أن عين الرضا عن كل عيب كليلة!

وعلى سبيل المثال، عندما عقدت اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر في ١٩/١٠/١٩٥٤، فوجئت بعدد من المنشورات تملأ بلدتنا تعبير عن هجوم أحد القيادات على الاتفاقية، وكنت وقتها أتعاطف مع فكر التيار الذي يمثله هذا القيادي البارز، بيد أنني شعرت بأنه، هو ومن معه، قد ظلموا الاتفاقية إلى حد ما، إذ مهما كان بها من عيوب، فقد كانت مدة سريانها قصيرة للغاية، والمهم أننا ظفرنا بتحقيق

الحلم الذي كافح المصريون من أجله سنوات طويلة أريقت فيها دماء وبددت خلالها طاقات لا أول لها ولا آخر. ولأنني لم أكن أرتبط بالجماعة (تنظيمياً)، لم ألتزم بالموقف الهجومي الذي اتخذوه.

ولقد تعجب أحد أساتنتي عندما كنت في مرحلة اختيار موضوع لدراسة الماجستير، فقد كان الاختيار أولاً في مجال التربية الإسلامية، فلما رأيت زميلي المعيد بالقسم قد سبقني في هذا الاختيار، رأيت أنه ليس من الحصافة أن يختار إثنان من المعيدين - لم يكن بالقسم غيرهما - تخصصاً واحداً، وهناك، بنفس القسم، تخصصات متعددة. وإذا بي أختار موضوعاً عن (مفهوم الطبيعة الإنسانية في فلسفة التربية الماركسية) !! لكن أستاذاً نصحني بالابتعاد عن هذه المنطقة، حيث كانت الدولة في هذه الفترة (أول الستينيات) في خصام كبير مع الاتحاد السوفيتي!! ثم استقر بي المقام على اختيار موضوع يقع في دائرة فلسفة التربية البراجماتية!

تباين ما بعده تباين بين الاختيارات الثلاثة .. ولم يكن هذا عجباً بالنسبة لي، لأنني أفرق بين (اتجاه أو من به) وبين (اتجاه يستحق الدراسة) .. فكل من هذه المجالات يستحق الدراسة، لكن : هل لا بد أن (يؤمن) الباحث بالفلسفة التي يدرسها؟ كلا بطبيعة الحال ... لكن الناس في بلادنا، مع الأسف الشديد، إذا رأوك تدرس الماركسية، رفعوا عليك علمها، وإذا رأوك تدرس البراجماتية وصفوك بأوصافها!

إن التعليق الفوري المعروف الذي يمكن أن نتوقعه على هذا الذي أقول، هو أن هذا الموقف موقف غير أيديولوجي، والباحث بلا أيديولوجيا كالأعمى الذي يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها!

إن الذي أود أن أقرره هنا بكل قناعة، أن الباحث بالفعل لا بد أن يكون مزوداً بمنهج فكري .. لكن السؤال هو: هل لا بد وأن يكون هذا المنهج هو أحد المذاهب القائمة؟ لماذا يتحتم علي أن أكون (تابعاً) لرأي قيل منذ قرن أو منذ عدة

قرون أحاطته ظروف هي التي أنبثته، ولقد تغيرت الظروف وتبدلت بحيث
تمتوجب (إعادة النظر) و(المراجعة)؟

لماذا لا تكون لي رؤياي الخاصة التي تتشكل وفق قناعاتي وخبراتي
ومعتقداتي؟ وماذا يفعل الإنسان إذا لم يقتنع بأن مذهباً أو فلسفة من الفلسفات القائمة
يجيب أو تجيب عن كل تساؤلاته الفكرية؟ إننا كثيراً ما نشدد الهجوم على
(التبعية)، وتلك لعمرى أسوأ صور التبعية، لأنك في تلك الحالة تسلم عقلك إلى
آخرين يفكرون لك، وما عليك إلى أن تشرح وتعلق! إنك إذ تريد أن تعرف موقف
واحد من التابعين، فلا تظن أنه هو الذي يجيبك .. إنه (صوت سيده) الذي شبع
موتاً! بل إن الإنسان يمكن أن يوفر جهده ووقته في قراءة واحد من هؤلاء، ذلك
أن الرأي الأصلي موجود.

وربما يفيدنا المزيد من الأمثلة والوقائع، وسوف أسوق هنا مثالين، أولهما
لباحث اتبع اتجاهاً متطرف اليسارية، وثانيهما اتبع اتجاهاً متطرف اليمينية:
كان الأول يدرس معي موضوعاً للماجستير يتعلق بفترة من تاريخ مصر
الحديثة. ورغم أن لي شخصياً تحفظات على بعض جوانب هذه الفترة، إلا أنني
لمست شدة خصومة من الباحث تجاهها إلى درجة مبالغ فيها للغاية. نظرت إلى
المصادر التي استعان بها، فإذا بمعظمها لأعداء هذه الفترة؟ ومن هنا فما دام
الشهود هم شهود (نفي)، فإن الحكم محدد سلفاً!

لقد أقبل الباحث على موضوع دراسته وهو مشبع بالتحليل والتقييم الذي
اتخذته الجماعة التي ينتمي إليها، وهو الإدانة الكاملة لهذه الفترة، ويتساءل المرء:
لماذا إذن البحث؟ إن الحكم جاهز مقدماً، ومن ثم فسوف تكون عمليات البحث أشبه
بعملية (صيد) للشواهد المؤيدة للحكم، وغض النظر عن تلك التي تنفيه، فهل يمكن
أن يكون هذا النهج علمياً؟

إن الباحث عندما يبدأ في جمع المادة العلمية لا بد أن ينسى انتماؤه الفكري
فيقرأ في مختلف المصادر أياً كان اتجاهها. إن الباحث في الكيمياء لا يرفض

فحص نوع معين من التفاعل لأنه روسي وهو لا يحب الروس، والباحث الروسي في العلم الطبيعي لا يرفض أن يفحص مادة جاءت له من الولايات المتحدة .. لكن الباحث، بعد أن تجتمع لديه الوقائع من مختلف مصادرها واتجاهاتها، لا بد له أن "ينظر" و"يفسر" و"يحلل" .. ها هنا لا بد من إبراز منهجه الفكري واستعماله .. وهنا نكون مطمئنين إلى أنه (علمي).

أما الباحث الآخر، فقد كان يريد الحكم على أحد المقررات الدراسية (الفلسفة)، فإذا به يقول أنه لكي يحكم على هذا المقرر فلا بد من معيار. قلت له: جميل. قال: وهذا المعيار، هو فلسفة المجتمع. قلت له: حسناً، ولكن المسألة هنا هي: ما هي فلسفة مجتمعنا؟ إننا مع الأسف لا نملك هذه الفلسفة التي نتفق عليها جميعاً. قال: أبداً .. نحن نملكها بالفعل، إنها في الإسلام. سألته: ومن الذي سيرسم لنا هذه الفلسفة؟ قال: إنها في القرآن والسنة. قلت: لكن القرآن والسنة ليسا كتابا فلسفة، ومن ثم فلا بد من جهد بشري للفهم والاستنباط، بدليل وجود كم كبير من الفرق الإسلامية، من سنة وشيعة أولاً، ثم معتزلة إلى أشاعرة .. إلى .. إلى إلخ، بل هناك المذاهب الأربعة المعروفة (الحنبلي والشافعي والمالكي والحنفي)، فأبي هذا يمكن تربيته؟

واقترحت على الباحث دراسة المجتمع المصري، في قيمه ومشكلاته، في آماله وطموحاته، في خصائصه وأركانه، ثم يكثف القول في كل هذا ليكون هو المعيار، فكان رد الباحث أن هذا (واقع) فاسد، وهو يؤيد (مثالاً) إلهياً. وعندما يضع المناقش أمامك المفاضلة بين ما هو (بشري) وما هو (إلهي) لا يمكن أن تجادل ما دمت مؤمناً .. لكن الباحث لا يريد أن يفهم أن (المثال) الإلهي للأسف لا يصل إلينا إلا عبر منظار بشري يتلون بلون صاحبه.

وحتى لا أحجر على حرية الباحث في البحث الذي كان يعده لنيل درجة الدكتوراه، تركته يبحث عن الفلسفة الإسلامية، وهناك غيرها من الرؤى الأخرى المغايرة. وعبثاً أحاول أن أفهم الباحث أن هذه ليست فلسفة الإسلام، وإنما هي رؤية (س) لفلسفة الإسلام، وأن هناك فرقاً كفرق السماء عن الأرض بين

الأمرين.. لكنه يصر على المرادفة، والنتيجة خطيرة، هي أنك إذا لم يعجبك رأي من آراء أستاذه، فكأنك لم تخالف الأستاذ، وإنما خالفت الإسلام!! كيف يمكن إذن أن يتم نقاش وأن يدور حوار؟ هنا يكون الإرهاب الفكري بأجلى صورته.

إنك إذا اعترضت على طريقة سير هذا أو منهج فكر ذلك، يقولون أنه انتماء فكري لا بد من الإخلاص له.. ويتخذون ذلك مبرراً لإصدار الأحكام بالبراءة والاتهام.. إنها عبودية قالب فكري، وتبعية مشيئة، واعتقال للعقل في سجون الآخرين!

ونشير كذلك إلى كتابات نفر من الباحثين ممن يقفون في مواجهة الفكرة الإسلامية، وكيف يؤدي بهم هذا إلى "اصطياد" كل ما هو سيئ، وغيض النظر عن كل ما هو جيد، حتى لقد دفع هذا أحد المفكرين أن يطلق على عملية البحث عند هذا النفر المشار إليهم بأنها عملية بحث في القمامة والنفايات، ذلك أنهم كرسوا جهودهم من أجل تقديم الإسلام في أتعس وأبأس صورته. لا يقرأون إلا صفحاته القمامة أو السوداء، ولا يدخلون إليه إلا من أبواب عصور الانحطاط، ولا يستوقفهم في رحلته الطويلة والعريضة إلا كل ما هو مكذوب، أو ممسوخ وشائه، ولا يستنلون إلا بالاعوجاج والنقيصة وبأكثر المواقف شذوذاً وانحرافاً!

ولعل مثالاً لأحدى الكتابات التي من هذا النوع توضح لنا ما نقول، فقد أراد كاتب لإحدى الدراسات أن يدلل على تهالك كتب الفقه وتنوع مادتها، فقال إنها تحدد لنا الآلات الموسيقية المشروعة والمحرمة، وحكم دية الكلب، ورضاع الرجل الكبير، وحكم من كسر عظام الميت، وحكم من أتى بهيمة! ويتساءل الكاتب، وتتساءل حقاً معه: لماذا لم تستوقف الباحث في كتب الفقه سوى تلك العناوين؟

إن هذا الاتجاه نفسه هو الذي اتهم عمر بن عبد العزيز بالجهل ونسب إليه خراب الدولة الأموية بناء على رواية تقول أن والي حمص كتب إليه يستأذنه في إصلاح حصن المدينة، فرد عليها قائلاً: حصنها بالعدل، ثم علق الكاتب على الرواية قائلاً: إنها - ورغم ما فيها من بلاغة تستهوي العرب - تستوجب الموازنة البرلمانية في أي نظام حكم ديموقراطي! لقد استندت الدراسة إلى تلك الرواية، في

حين أن هناك رواية أخرى، هي الأكثر قبولاً في سياق شخصية الخليفة العادل، تقول إن والي خراسان هو الذي بعث إليه بالرسالة، ليرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها، قائلاً: "إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط"، فكان رد الخليفة الذي اتهم بالجهل أن قال له: كذبت! بل يصلحهم العدل والحق، فأبسط ذلك فيهم. وهي القصة التي سجلها الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه عن عمر بن عبد العزيز. وهكذا نرى أن الروايتين موجودتان في كتب التاريخ، ولكن "عين السخط" كان لابد أن تغفل عن الرواية الثانية، وترى الأولى بجروح مدهش إلى تشويه الصورة وتحطيم المثل!

إننا نرجو ألا يفهم القارئ من حديثنا هذا أنه دعوة إلى "الحياد الفكري" فلست ممن يؤمن أصلاً بقيمته، ولابد بالفعل للإنسان أن يكون "منحازاً" .. لكن الانحياز هنا لابد ألا يكون بدرجة ١٠٠% .. لابد أن يكون انحيازاً عاقلاً، تتوافر لدى الإنسان فيه القدرة والاستعداد لأن ينقد ما قد يكشف الآخرون عنه من عيوب الفكرة. وهو انحياز يتغير باختلاف الوقائع والمواقف. وهنا تظهر أهمية المنهج الخاص والرؤية الذاتية في الحفاظ على الاتساق وعدم التناقض، بحيث لا تتحول المسألة إلى ورقة من الشرق وأخرى من الغرب .. إن الإنسان هنا موقفه كممثل موقفه عندما يأكل: فهذه قطعة من الفاكهة، وتلك قطعة لحم، وهذه قطعة خضار، وهذا ماء .. وهكذا، يأخذ كل ذلك ويضممه، لا يبقى في جسده (قطع متجاورات) كما كانت، وإنما لتتحول إلى جزء من نسيج جسمه هو كريات بيضاء وحمراء تسري في عروقه وشرابينه.

إنه لموقف يبعث على الخجل حقاً أن يقف البعض منا موقف التقليد الأعمى والتبعية الذيلية ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، بينما نجد نقرأ من مفكرينا العظام، عاشوا منذ قرون بعيدة، ورفضوا منطق التقليد "حنو النعل بالنعل" على حسب تعبير واحد منهم، حتى بالنسبة لقادة مذهبهم!

لقد روي عن عصام بن يوسف أنه قيل له: إنك تكثر الخلاف لأبي حنيفة، (رغم أنه تلميذه)، فقال: إن أبا حنيفة قد أوتي ما لم نوت، فأدرك فهمه ما

لم ندركه، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا، ولا يسعنا أن نفتي بقول ما لم نفهم من أين قال (تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ج ٢، ص ٩٢).

واتساقاً مع هذا النهج الفكري، نهي الأئمة الأربعة عن الأخذ بقولهم من غير معرفة دليلهم، ومن هنا كان قول الفقيه أبي الليث السمرقندي: حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي حنيفة أنه قال: لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين قلناه.

إنها لمأساة حقاً عندما نرى هذا الذي ينتمي إلى الاتجاه (أ) لا يقرأ إلا ما كتبه أصحاب هذا الاتجاه والمنتسبين إليه، وينظر باستنكار وازدراء إلى ما يكتبه أصحاب الاتجاه (ب) وأتباعه. ومن أبسط الأمثلة وأشيعها أن تسأل واحداً من بعض الجماعات الدينية: هل قرأت - مثلاً - الموضوع كذا في جريدة (...)? فيجيبك بالنفي معقياً: "أنا لا أقرأ هذه الجريدة لأنها يسارية! وتعجب: لماذا لا يقرأ صاحبنا الموضوع أولاً ثم يحكم عليه بعد ذلك، تطبيقاً للحكمة الإسلامية المعروفة، إن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، لا يبالي من أي وعاء خرجت. ألم يعلم المشركون من أسرى بدر، المسلمين؟ فلماذا يستنكف (الإسلامي) أن يقرأ ما هو ماركسي؟

ونفس الشيء بالنسبة لمن كانوا ينتمون للفكر الماركسي، في هذا المثال البسيط، كنت أسأل بعضهم: هل قرأت جريدة (...)? فيجيب بالنفي معقياً أن هؤلاء "ظالميون"، يريدون أن نعود إلى أحوالنا التي كنا عليها منذ أكثر من ألف عام. وتعجب أيضاً لهذا الحكم الجائر والموقف الظالم، لأن الذي يقول هذا تجده في أغلب الأحوال غير ملم بالإمام الكافي بأصول الثقافة الإسلامية مما يتيح له البصر السليم والرأي الموضوعي.

إن كاتب هذه السطور لا يعرف إلا إلهاً واحداً هو الذي يتبع، ومن عداه، فهو قابل للصواب أو الخطأ بغير تشنج وانفعالات...

لكم أشعر بالفخر حقاً عندما أتعامل مع أصحاب الاتجاه (أ)، أن أكون على قدر من التمييز، لأن الظروف قد أتاحت لي فرصة قراءة ما يقرعون وزدت عليهم

بقراءة ما كتبه أصحاب الاتجاه (ب)، ونفس الشيء مع هذا الفريق الثاني، بحيث يستطيع الإنسان بعد ذلك أن يشعر بقدرة حقيقية على ممارسة حرية الفكر، بينما آخرون، يقفون على جانب، غاضبين النظر عن الجانب الآخر، وبالعكس فهؤلاء يصعب عليهم أن يكونوا أحرار الفكر، وإنما هم، ومعدرة لهذا التعبير، عبيد في سوق رقيق الفكر!!

فكر التنفيس .. وفكر التحريك !

دعوتين تلقيتهما لمؤتمرين يعقدان في وقت واحد، أحدهما تقيمه جماعة من الجمهور العلمي والمهني الذي أنتمي إليه، يدور حول قضية من قضايا المجال الذي نحن متخصصون فيه ومختصون به، والثاني، تقيمه جماعة من جمهور علمي ومهني مغاير، موضوعه، لا يشكل مجالنا فيه إلا زاوية من الزوايا، ومع ذلك فقد لببت دعوة المؤتمر الثاني بالمشاركة واعتذرت عن المشاركة في الأول!!

كان مبرري بيني وبين نفسي، ما أشعر به منذ فترة، بأن أهلنا العلميين قد أصبحوا يكررون ما يقولون، وبالتالي، فلن أضيف إلى معلوماتي جديداً لو شاركته، أما بالنسبة للمجال الآخر، فلأن معظم قضاياها وزواياها، لست متخصصاً فيها، فمن المؤكد أن أضيف إلى معلوماتي معرفة جديدة.

ولم يكن هذا هو الموقف الأول، فهو حلقة سلسلة من حلقات، أحضر فيها ندوات أخرى ومؤتمرات يقيمها أهلنا العلميون، بالإضافة إلى ما يتاح لنا من قراءات متعددة لفحص الإنتاج العلمي المقدم للترقية أو بحوث للتحكيم تنشر بدوريات علمية، أو رسائل ماجستير ودكتوراه، هذا فضلاً عن عشرات البحوث والدراسات التي أتلقها لنشرها بمجلة (دراسات تربوية)، إذا غالباً ما أجد الزي جديداً، لكن المحتوى، في كثير منه، مكرر ومعاد. ومن أبرز الأمثلة التي يمكن أن أتذكرها، أنني اضطررت أثناء إعدادي دراسة عن الامتحانات أن أرجع إلى مجموعة دراسات كانت رابطة التربية الحديثة قد قامت بها عن (مشكلة الامتحانات في مصر) عام ١٩٣٨، فإذا بي أجد كل ما كتب طوال العقود الماضية لا يكاد يخرج عنها إلا قليلاً!!

وعندما كنت أتأمل هذا الوضع، أجد نفسي محاصراً بمشاعر إحباط قاتل، أحاول أن أخرج منه بمداولة فكرية بيني وبين نفسي، ساعياً إلى إقناعها بأن هذا

* ملحق الأهرام في ١٢/٢/١٩٩٣، نشر بعنوان (فكر التنفيس وتحريك الفكر)

الذي أزعمه، ربما يكون نتيجة غرور شخصي يهين لي أنني أوتيت من العلم ما يستوعب الكثير مما لدى الآخرين، ويكون الرد الفوري، قناعة شخصية بأنني، بالفعل لم أوت من العلم إلا قليلاً، وأن المشكلة هي أن (الاجتهاد العلمي) مطلق منذ سنوات بحيث تجئ الجهود العلمية، إعادة عرض في شكل جديد، مثلما حدث في عهود التخلف الفكري بعد غروب الحضارة الإسلامية، عندما كثرت الشروح والحواشي والتعليقات، وندر الإبداع، بعد انقضاء عهود عمالقة الفكر أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن النفيس وابن الهيثم وغيرهم.

الأخطر من ذلك زلزلة للنفس حقاً، تساؤل هام أعود فأوجهه إلى نفسي: ولماذا أشير بإصبع الاتهام إلى أهلي العلميين واستنثي نفسي؟ فإذا كان الآخرون لا يجدون، فماذا قدمت أنا من جديد؟؟!!

لا، بل هناك من همس في أذني: هوّن على نفسك يا مسكين، فلمت وحدك، ولستم وحدكم، فهناك عائلات علمية أخرى تشكو نفس الداء... إنها أوانسي مستطرفة.

والحق أنه من العسير أن نوفي هذه القضية حقها من المناقشة في هذا الحيز المحدود، فضلاً عن حاجتها إلى تعدد الآراء وتنوع زوايا الرؤية.

وإذا كان لي من رأي أبنيه موجزاً هنا، فهو ضرورة الانتباه إلى أن الفكر، غالباً ما يكون صورة لواقع، أو إن شئت الدقة، هو (عُلمة) تستند إلى رصيد من الخبرة البشرية، حتى إذا قلنا أن الفكر، في جانب منه، لا بد أن يكون مستقبلياً، يحاول أن يرسم صورة لما يجب أن يكون، فإن هذه الصورة المستقبلية إنما تستند كذلك إلا ما هو (واقع) و(حاضر).

وإذا أخذنا مثلاً على ذلك وضع (الأمية) في مجتمعنا، فإنه من غير شك، قد أوحى بكم يصعب حصره من الدراسات والبحوث والمؤتمرات التي شكلت جهداً فكرياً ضخماً قلب القضية من مختلف وجوهاها من ناحيتين: الأولى، الأوضاع القائمة، والأخرى، تتعلق بما يجب عمله للتغلب على تلك المشكلة ورسم صورة مستقبل أفضل.

فإذا ما أخذت السنون والأعوام، بل والعقود، تمر واحدا إثر آخر، دون تحرك جاد وشامل، وظل الوضع مستمراً، إلى الدرجة التي نجد فيها لدينا الآن عدداً من الأميين يساوي، على الأقل مجموع الشعب المصري كله منذ خمسين عاماً... وإذا ما حاول باحث أن يدرس الآن هذه القضية، فماذا عساه أن يأتي به من جديد يختلف عما سبق قوله عشرات المرات!؟

هنا تبرز المشكلة حقاً... عندما يستمر الواقع، بقضائيه ومشكلاته دون تغييرات جذرية حقيقية، فسوف يظل الفكر مردداً ما سبق قوله، ويعجز عن أن يقدم جديداً، وتصبح مهمة المفكر، وكأنه يقوم بمجرد (تأدية واجب) وعملاً (لإبراء الذمة)، فيتحول الفكر إلى فكر (تنفيسي) لأنه يعجز عن التغيير.

وتجديد الفكر لا يتأتى إلا بحركة الواقع، بحيث يستمر (الجدل) بينهما: الواقع يوحى بأفكار تستهدف تغيير الوضع القائم، فإذا ما تغير الوضع، أصبح لزاماً على الفكر أن ينتقل إلى وضع آخر، فتسري الحيوية والتجديد في عروق كل من الفكر والواقع. ولم يعد لدينا من الوقت لنسفسط فيه: من أين نبدأ أولاً: من الفكر أم من الواقع؟ فالذين يستمرون في مناقشة مسألة البيضة والدجاجة، إنما هم قتلة وقت، وإن كنا نستطيع أن نؤكد هنا أن الفكر قد قام بجهود لا حصر لها من الفحص والتحصيل والمناقشة والاقتراح، والخطوة القادمة المطلوبة، هي، من كل موقع عمل تنفيذي، على مختلف الأصعدة والمستويات.

مناظرة ... أم منافرة*

"المناظرة" في لسان العرب: "أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه" والفعل منها: ناظر - بفتح الظاء - نقول: ناظر فلاناً، صار نظيراً له، وأيضاً باحثه وباراه في المحاجة.

أما "المنافرة"، فهي (المفارقة) و(المحاكمة) .. المحاكمة في الحسب، والفعل منها: (ناقِر)، نقول: تناقِر القوم، أي: تخاصموا وتفاخروا. واضح إذن، أنك إذ تناظر، أي تسعى إلى أن تصير نظيراً لمن تناظره، ومساوياً له، إنه فعل لإثبات الذات مع وجود (الأخر). أما أن تناقِر، فمعناها، أن تخاصم، تسعى إلى إثبات الذات عن طريق نفي الآخر.

وقبل ظهور الإسلام، كانت تكثر (المناقرات)، حيث النهج الجاهلي يقوم على ترتيب الناس منازل وفق حسبهم ونسبهم، مما كان يفتح أبواب التخاصم والفرقة. فلما جعل الإسلام معيار التفاضل بين الناس (التقوى)، بدأت شمس المناظرة تغرب لتحل محلها المناظرة: الأولى لا عقلانية، تقوم على (الذات)، والثانية: عقلية تقوم على (الموضوع).

والذي يقلب صفحات تراثنا العربي والإسلامي الفكري، يستطيع أن يجد كماً كبيراً من المناظرات، بين الشعراء وبين الفلاسفة، وبين الفقهاء، مما كان له أثره في إثراء الفكر رأسياً، بتعميقه، حيث ترداد الفكرة ترسخاً بمزيد من الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، وأفقياً، بانتشار الفكرة بين كثير من الناس، حيث أن المناظرة، عادة، كانت تتم بين طرفين، أمام جمهور.

وفي عصرنا الحديث، وبصفة خاصة منذ أوائل القرن العشرين، كثرت المناظرات في سوق الفكر المصري، لا على صفحات الجرائد والمجلات فقط، وإنما كانت تعقد لها الاجتماعات الحافلة، فهذا واحد - على سبيل المثال - يخلصم

* ملحق الأهرام ١٩٩٢/٦/١٩

المرأة من حيث التحرير، والآخر يناصرها، فتعقد بينهما مناظرة، ليدلي كل منهما بحججه وبراهينه. وهذه مناظرة أخرى بين واحد من أنصار العلوم الأدبية، وذلك من أنصار العلوم الطبيعية .. وهكذا.

ولعمق الوعي بأهمية المناظرة لإثراء الفكر، عدّه كثيرون (علماء) من العلوم المنطقية والبعض الآخر، عدّه من العلوم الكلامية، يفتقدون له القواعد ويؤسسون له الأركان ويفصلون فيه الأبواب والفصول. وآية ذلك، كتيب طريف، في حوزتنا، بعنوان: (علم آداب البحث والمناظرة)، تأليف (مصطفى صبري) القاضي بالمحاكم الأهلية عام ١٩١٢، وفيه نجده يوضح مفهوم المناظرة في الاستعمال الجاري:

"المناظرة، هي النظر من الجانبين في النسبة بين الشئيين، إظهاراً للصواب، وبيان ذلك، أنه إذا اختصم شخصان في مدعي (ادعاء) ، كإثبات وجود الصانع (خالق)، مثلاً، فقال أحدهما: العالم حادث (مخلوق)، وكل حادث يحتاج إلى محدث (خالق) وهذا يقال له مدع ومعلل ومستدل، لأنه يقيم دليلاً على مدعاه ويعلله، أي يبين له علة متى سلم بوجودها، سلم المدع، فقال الآخر: العالم قديم، وكل قديم، غني عن المحدث، أي لا يحتاج إليه، فالعالم غني عن المحدث، فإن كلاً من الخصمين ينظر في النسبة بين الشئيين إظهاراً للصواب، وتلك النسبة هي وجود الصانع أو لا وجوده".

وفي الوقت الذي زاد فيه العلم تقدماً في عصرنا الحاضر، وزاد فيه الفكر ثراء، وأصبحنا نتحدث عن (انفجار المعرفة) و(ثورة المعلومات)، مما يؤكد ضرورة وأهمية المنهج القويم للتفكير السليم، إذ بنا نشهد في حياتنا الفكرية عودة إلى (المناقرة) وهجراً (للمناظرة)، وذلك يتبدى، أولاً في ندرة المناظرات بصفة عامة، ويتبدى ثانياً في أن ما يتم من مساجلات بين كاتبين، تسير الواحدة منهما كالاتي، وأنا هنا أسوق واقعة فعلية وليس موقفاً افتراضياً:

يكتب الكاتب (أ) عن رأي ما، وليكن، أن فترة تاريخية بعينها من تاريخ مصر المعاصرة، لها فضل كبير في التقدم الفكري والثراء الثقافي في مصر. ثم

يأتي آخر (ب) لا يرى هذا الرأي، ومن حقه بطبيعة الحال هذا، ويسوق الأدلة والبراهين، من وجهة نظره، التي يحاول من خلالها دحض الرأي الأول وإثبات ما يراه هو.

إلى هنا، والمساجلة تسير في طريق (المنافرة)..

لكن الأول (أ)، وهو كاتب كبير، أحمل له - شخصياً - قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير - وما أزال - لم يعجبه اعتراض الآخر عليه، فإذا به يستغرق نصف رده في بيان أن هذا الآخر، لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب! وأنه متزوج من أجنبية، وأنه عمل في الخارج وجمع آلاف من الدولارات، وأنه يعمل حالياً لدى جهة أجنبية.. وهكذا .. جوانب متعددة، لا تقع في دائرة (الموضوع) وإنما في دائرة (الذات) .. صورة عصرية من صورة (المنافرة)!!

إن هذا مثال واحد، ويستطيع أي باحث مدقق أن يرصد كمّاً كبيراً من المساجلات التي تحدث بين أصحاب رأي ورأي آخر عندنا ليلحظ فيها جنوحاً مؤسفاً إلى أن يكون الحديث في (الموضوع) مستغرقاً أقل العبارات، وتفرد السطور الطوال للحديث عن (الذات).

ومثل هذا الانحراف إلى (المنافرة) من شأنه أن يخنق الفكرة ويصيب الفكر بالفقر العقلي، ليفسح المجال لآفات ملعونة تأكل جسم المنظومة الفكرية في المجتمع، ليصبح العقل العام متخلفاً، يتحرك بقدومه متراجعاً إلى وراء!!

إن للحوار منطقاً، وللنقاش آداباً، ولا يتسع المقام لذكرها هنا، فهي متوافرة في كثير من الكتب، كتب المنطق ومناهج البحث، لا بد من الالتزام بها، فذلك طريق أساسي لاستقامة التفكير، واستقامة التفكير طريق لصحة عقل الأمة، وعقل الأمة السوي، هو زناد النهضة القومية.

منطق المواجهة العلمية وأسلوب إطفاء الحرائق*

في أواخر العام الماضي - على وجه التقريب - وجّه الدكتور محمد علي محجوب - وزير الأوقاف - مشكوراً - الدعوة إلى يقرب من الأربعين من صفوة من المفكرين والخبراء والباحثين وأساتذة الجامعات ورجال الدين المسيحي، أذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر: د. صوفي أبو طالب، د. صبحي عبد الحكيم، د. أحمد كمال أبو المجد، د. محمد سليم العوا، د. ميلاد حنا، د. محمد عمارة، د. جمال الدين عطية، أ. فهمي هويدي، المستشار ماهر الجندي، د. سعيد إسماعيل علي، لدراسة ما أطلق عليه اسم (السلام الاجتماعي)، وذلك في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإشراف د. عبد الصبور مرزوق .

وكان من الواضح أن جميع المدعويين قد قبلوا الدعوة بكل التقدير والارتياح، لأنهم بدعوا يشهدون الخطوة الجوهرية والضرورية لمواجهة أي تهديد يمس السلام الاجتماعي للشعب المصري، تلك الخطوة التي تتمثل في الدراسة المنهجية العلمية الجادة لظاهرة مرضية خطيرة، من قبل نفر من الأمة يمثلون خبرة وعلماً وفكراً ووطنية، يكفل تلاقيها وتعاونها، الكثير للصحة الاجتماعية المنشودة، بدلاً من ذلك الأسلوب المعتاد الشهير الذي يجعل المواجهة أشبه بمجرد (هبة) يستتفر لها كثيرون، لفترة من الوقت، بهدف إطفاء حريق، ثم ننسى القضية، إلى أن يداهمنا الحريق مرة أخرى، فيتكرر نفس الأسلوب في المواجهة.

وإذ تبدأ المناقشات وتثري وتتعدد جوانبها واتجاهاتها، يتضح أن المسألة ليست مجرد مجموعة منحرفة من الشباب تتعامل بالرصاص، نابذة الجدل بالتالي هي أحسن، في المسألة الدينية، وإنما أمام ظاهرة مجتمعية، حيث لا يحدث (الطفح) فيها في المجال الديني وحده، وإنما في مجالات متعددة، وأنها مهما تعددت وتتوعدت، فلا بد بالضرورة أن ترتد إلى أسباب خلل أساسية أصابت الجسم

* الأهرام في ١٩٩٢/٩/٢٨

الاجتماعي في الفترة الأخيرة.

وقد لا يتسع المجال للإشارة إلى صورة الخلل هذه وأسبابها، وإنما يكفي أن نشير إلى أن الجسم الاجتماعي للأمة، منذ أول الخمسينات من هذا القرن، قد تعرض لجملة تحولات تاريخية كبرى في فترات قصيرة قد لا تزيد، كل منها، عن سنوات معدودة على الأصابع، بينما تستغرق التحولات التاريخية الكبرى للشعوب، عادة، عشرات السنين، لكل منها. لقد كانت العملية أشبه بمن يخرج من غرفة شديدة الحرارة إلى أخرى شديدة البرودة ثم يعود إلى الأولى.. وهكذا عدة مرات متلاحقة، مما تكون نتيجته، بالضرورة، مرض يصيب البنية الهيكلية للجماعة البشرية.

ولا ينبغي أن يفزعنا القول بأن الجسم الاجتماعي مصاب بخلل هيكلية يحتاج إلى المواجهة والمعالجة، فما من مجتمع في التاريخ، يخوض حرباً إلا ويحدث له هذا، فما بالك بأمة عاشت من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٧٣ في حروب ضارية مدمرة؟ فضلاً عن انقلابات وتحولات وتوجهات سياسية وفكرية حادة من يمين إلى يسار ومن يسار إلى يمين.. وهكذا.

ليس عيباً إن الاعتراف بهذه الحقيقة مهما كانت مرة، ولكن العيب، كل العيب لو حاولنا المداراة، ورددنا مع من يردد، أن الأمة بخير، وأن ما يحدث إنما هو (خدوش) على سطح ماء، من قبل قلة من الشباب المنحرف. وصدق من قال: ليس عيباً أن تسقط وتعثّر، لكن العيب أن تبقى حيث سقطت وتعثرت!!

إن الوقائع والأحداث تشير لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن (العنف) و(الانحراف) قد تعددت وتتنوعت صورته ومجالاته، ويستحيل أن ننجح في مواجهته إذا لم نبصر جيداً هذا التعدد والتنوع والترابط الذي بين مجالاته وعناصره، وبالتالي، تجئ المواجهة بأسلوب منهجي علمي يقوم على النظر الكلي والبصر الشامل ويكفي هنا أن ندلل على صحة ما نقول، بالإشارة إلى أمثلة قليلة (لكلية الظاهرة):

- فمن التقاليد الاجتماعية الضاربة في الجذور التاريخية الحضارية للشعب

المصري، الاحترام الشديد والتقدير البالغ من قبل الأبناء لآبائهم وأمهاتهم، والحب العميق والود الجارف من قبل الآباء والأمهات لأبنائهم، فإذا بنا نشهد ما لم يكن يحدث أبداً: أن يقتل أبناء آباءهم وأمهاتهم ويذبحونهم، والعكس أيضاً، أي أن يقتل آباء وأمهات أبناءهم!!

- وكان المشهور عن الزوج الشرقي عامة، سطوته وتحكمه في زوجته، ولا يدهش أحد إذا سمع عن زوج ضرب زوجته - رغم أن هذا مكروه - ثم إذا بنا نشاهد زوجات يقتلن أزواجهن، بل ويقطعن الجثة لتعبئتها في أكياس!!

- ومن تراث هذه الأمة الاجتماعية، تلك المكانة الرفيعة التي يحتلها - أو كان - المعلم، حتى أننا عندما كانا نلعب في الشارع أو الحارة، نتوقف تماماً ونرفع الأيدي بالسلام، إذا أطل معلم ولو من بعيد، فإذا بنا اليوم نرى ونسمع تلاميذ يضربون معلمهم!!

- وكنا نسمع عن كبار (سناً) يدخنون (الحشيش)، وننظر إلى هذا على أنه منكر (ومصيبة)، فإذا بنا اليوم نرى (صغاراً) يتعاطون أنواعاً متعددة فاحشة السوء مدمرة، إلى الدرجة التي وصلت بأب أن يحمده الله أن ابنه يدخن (الحشيش) ولا يتناول هذه الأنواع الجديدة المدمرة!!

- وكنا نسمع ونرى، مستكرين، قلة من التلاميذ تغش في الامتحانات، فإذا بنا نرى ونسمع عن معلمين ونظار وموجهين وآباء يبسرونه ويسمحون به، بل - وباللهلول- قد يشاركون في ممارسته!!

- وعندما كنا نسمع ونرى مواطناً متديناً، فقد كان هذا يعني أن نرى نبعاً يشع تقوى وسماحة وطيبة قلب وعفة لسان وطهارة يد، فإذا بنا الآن، عندما نسمع عن بعض، قيل أنهم تدينوا، يبرز إلى الذهن التعصب وضيق الألق واستخدام العنف.

وهكذا .. وهكذا .

إنها إذن (أواني مستطرفة)، قد تتخذ هنا شكلاً، وهناك شكلاً آخر، لكنها، في النهاية، ترد إلى قاعدة واحدة.

من أجل هذا، فقد انقسم المدعوون في لجنة (السلام الاجتماعي) المشار إليها سابقاً، إلى لجان فرعية تختص كل منها بدراسة جانب أو مجال من جوانب ومجالات الظاهرة، فهذه لجنة (الانحراف الفكري)، وهذه لجنة (الوحدة الوطنية)، وتلك لجنة (العنف الاجتماعي)، وتلك لجنة (الإيمان).

ولقد تأكد لنا، بعد مزيد من المناقشات والمحاورات، أن الدراسة العلمية الجادة تحتاج إلى فرق عمل تنبث في مواقع ومواطن متعددة تمتد بامتداد مصر، وأن ذلك يحتاج إلى شهور طويلة.

وهنا ظهرت تلك الآفة التي تصيب منهجيتنا في تناول كثير من الأمور. فلقد قيل أن الخطر ليس على الأبواب، وإنما قد دخل الدار فعلاً، ويستحيل أن نقضي عاماً أو عامين ندرس ونبحث ونفكر ونناقش ونتحاور، وقد شب حريق بالبيت، ولا بد من خطة (عاجلة).

ثم نصل إلى الحل (التوفيقي) الشهير: فلنقم بوضع خطة عاجلة لمواجهة الموقف الراهن، وفي الوقت نفسه، نعمل على وضع خطة طويلة المدى..

إن هذا منطق في التفكير لا غبار عليه، لكن الخبرة الماضية علمتنا، بكل الأسف وبكل الأسى، أننا، غالباً، ما نركن إلى تلك الخطة (العاجلة) وحدها، ويفتر حماسنا، بل وننسى تلك الخطة (الطويلة). ولأن المواجهة (العاجلة) تكون أشبه بعملية الإسعاف العاجلة، فإنها (تسكن) الوضع لبعض الوقت، لكنها لا تحسمه، وبالتالي تظل المشكلة قائمة، بل، وغالباً، ما يستفحل أمرها.

إن الخلل المجتمعي يكون، عادة - نتيجة أخطاء تراكمت عبر سنوات طويلة، وبالتالي، فإن علاجها لا يتأتى أبداً في أيام وأسابيع. وكم نحتفظ بأمتلة كثيرة لأمم متقدمة، خصصت لجاناً قامت بدراسات تستغرق شهوراً طويلة لمواجهة أوضاع مجتمعية كبرى، ولم يقلقهم هذا، لأن العمل العلمي المجتمعي، هذه هي طبيعته، ولذلك ينجحون في المواجهة والمعالجة. وفي رأبي أن الوضع عندنا، كما تدل على ذلك الأحداث الأخيرة، قد وصل إلى درجة مقلقة، تحتم علينا اعتماد منطق المواجهة العلمية والإقلاع عن أسلوب إطفاء الحرائق.

• حاجتنا إلى ثورة للإصلاح المعرفي

تاني!

كان هذا هو رد الفعل الفوري لزميل سألني عن القضية التي تشغل فكري حالياً، فأجبتته بأنها قضية (حاجتنا إلى ثورة للإصلاح المعرفي). وعندما استفسرت عما عناه بهذه الكلمة، إذا بي أكتشف أن الذي أثاره هو كلمة (ثورة)، وأن مصطلح (الإصلاح المعرفي) ذكره، في ارتباطه بكلمة (ثورة) بما كان من أمر (الإصلاح الزراعي)!

ويبدو أن رد الفعل هذا جاء متسقاً مع ما نشاهده منذ سنوات، على الساحة السياسية، فعلى وجه التقريب، اختفت (الثورات) .. ربما لأن كثيراً من الشعوب اكتشفت أنها ثورات مزعومة لم تزد عن كونها (انقلاباً) استبدل حكماً مفسدين من نوع جديد بحكام مفسدين من النوع التقليدي، وربما لأن أضخم وأكبر ثورة شهدها القرن العشرون، ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ والتي تمخضت عن (الاتحاد السوفيتي)، قد انتهى المآل بها إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من التحلل والانهييار والتمزق.

ومع إيمان كاتب هذه السطور بأن أي انهيار في بناء سياسي لا بد وأن يكون له مسبباته في نفس البنية، فإن الخوف من اتهام بتبني نظرية المؤامرة لن يثنيه عن الاعتقاد (لا الظن) بأن (شيطان العصر)، صاحب قوة البغي المهيمنة على الساحة الدولية الآن، له دوره الفعال الواضح.

فمن المؤكد أنه قد كانت هناك ثورات وطنية حوصرت واستنزفت وضربت من الداخل ومن الخارج، ومن أبرز هذه الثورات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فلو أن واحداً ممن عاشوا سنوات أمجادها، وخاصة في الفترة من سنة ١٩٥٦ حتى

• مجلة الهلال، مارس ١٩٩٧ نشرت بعنوان : جواز المرور إلى القرن الحادي والعشرين

انفصال دولة الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١، والذي يعد بداية الانكسار والتراجع، عادت به ذاكرته إلى هذه الفترة وحاول أن يتخيل أن الضباط الذين قاموا بهذه الثورة وتخرمت فكرتها لديهم على أرض فلسطين وقد تخضبت أمام أعينهم بدماء شهداء عرب، بأيدي سفاحين صهاينة، ستطوى صفحاتهم تماماً لتفتح مصر أبوابها لهؤلاء السفاحين وأبنائهم يحصدون ثمار (سلام الأوهام) .. هل يمكن أن يتخيل إيمان حدوث هذا؟!

ولو أن واحداً ممن عاشوا هذه الفترة الزاهية ولمس كيف وقفت الولايات المتحدة الأمريكية بالمرصاد لكل جهد ولكل خطوة للثورة الوطنية لتحاول إفسادها وإجهاضها وضربها، يمكن أن يتخيل أن يدور الزمن دورته فتصبح مصر هي الحليف الأساسي لها بالتعاون مع إسرائيل؟!

.. وهكذا تضعف الثقة بمنطق الثورة ومنهجها إلى درجة قد تصل إلى الكفر بها.

ومع ذلك فيبدو أننا (اعتقلنا) فكرنا في ساحة السياسة، وهذا لا يتيح لنا فرصة البصر بحقيقة أن مصطلح (الثورة)، إذا كان سيئ السمعة سياسياً، فإنه قد اكتسب شهرة وانتشاراً في ساحات أخرى، إذ أصبحنا نسمع عن:

- ثورة المعلومات ..
- ثورة الاتصالات ..
- الثورة التكنولوجية ..
- الثورة العلمية ..

ومن هذا المنطلق، نفث نحن عن حاجة أمتنا إلى ثورة من نوع آخر .. ثورة (أم) تعتبر الثورات الأربع السابقة: المتصلة، المتداخلة، نتاجاً لها. بل نكاد نؤكد أنه بدون (الثورة المعرفية) - وهي التي نعتبرها الثورة الأم - فلن نستطيع أن نعيش هذه الثورات كمشاركين ومنتجين، وربما تستمر علاقتنا الحالية بها على نفس المنوال، وهي علاقة المشاهد والمستهلكين بما يشاهدونه ويستهلكونه فماذا نعني (بالإصلاح المعرفي)؟!

لقد تفجرت (آبار) نفط في مجتمعات عربية فتدفقت عليها الثروة، لكن (الثروة) لم تؤد إلى (ثورة)، وإنما أدت إلى (انقلاب) جعل كثيرين يستهلكون ويملكون العديد من منتجات العصر، ذلك لأن الثورة الغائبة عن ذلك التغيير الجذري الكبير الذي يتناول منهج التفكير وزوايا الرؤية وأسلوب التحاور.. إنه المنطق العقلي السائد..

وآن لنا أن نفجر آباراً أخرى هي القدرة على إحداث التغيير المجتمعي الهيكلي، لا بقوة السلاح، ولا بالبيانات العسكرية ولا بالاستيلاء على السلطة.. إنها الآبار العقلية التي يحملها كل فرد من أبناء هذه الأمة.

لقد فاضت أنهار صحف ومجلات وكتب، واهتزت أمواج أثير تبث الخطب والأحاديث تنذر بشرور مستطيرة سيجرها ما أسموه (بالانفجار السكاني). وفي يقيني أن هذا الانفجار السكاني يمكن أن يتحول من (نقمة) إلى نعمة إذا صاحبه ما يمكن تسميته (بالانفجار العقلي)، الذي يولد تحولاً معرفياً هو وحده جواز المرور إلى القرن الحادي والعشرين.

لقد كان الإصلاح المعرفي عبر قرون سلفت، قبل ازدهار الفلسفة اليونانية مكبلاً بالخرافة، يتصور أن وراء الظواهر المختلفة قوة غير محسوسة تغضب على الإنسان فتصيبه بالشرور، وترضى عنه فتفيض عليه بالخيرات والنعم، فتوسل لاسترضائها بالسحر والرقى والتعاويذ والقرابين، وظهرت طبقة المنفعين من الكهان، يتزعمون التوسط بين الإنسان وهذه القوى غير المنظورة.

وعلى الرغم من أن الحضارة اليونانية لم تخل هي الأخرى من مظاهر التفكير الخرافي، لكن ميزتها الكبرى هي ظهور جيل من عمالقة الفكر مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، حاولوا وضع قواعد يسير بمقتضاها العقل فينتج تفكيراً راشداً يتسم بالاتساق والمنطقية والمنهجية، فشكل هؤلاء الفلاسفة العظام بأفكارهم المنهجية ثورة للإصلاح المعرفي، كان لها دورها فيما اتسمت به الحضارة اليونانية من إبداع وازدهار جعلها منبعاً ومبتدأً لما جاءت به أوربا بعد ذلك من حضارة حديثة. بل وأفاد منها كثيراً، فلاسفة مسلمون مثل ابن سينا والكندي

والفارابي وابن رشد، وغيرهم قطعوا الفكر الإسلامي بأسباب قوة مضائقه زادت تنوعاً، وأكسبته ثراء.

وعندما ذبلت الحضارة اليونانية، وتلتها في القيام، ثم الانحلال، الحضارة الرومانية، ودخلت أوروبا في (جُبِّ) التخلف وظلامية العصور الوسطى، برز الفيلسوف الإنجليزي الشهير (فرنسيس بيكون)، ليعبر عن مطلع الثورة الحضارية القادمة.

لقد وجد أن منطق أرسطو المتمثل في (القياس) والذي يسير على نهج التفكير الرياضي، إذا كان يصلح في بعض المجالات المعرفية التي تدور داخل العقل لا تتعداه إلى الواقع المعاش، وإذا كان يصلح للبرهنة المنطقية والاستدلال العقلي على صفحات الورق، فإنه لا يصلح في التعامل مع حركة التغيير في الطبيعة وفي المجتمع، فالتعامل مع هذين المجالين (الطبيعة) و(المجتمع) يتطلب منطقاً آخر للتفكير يقوم على استخدام الحواس والاستقراء والتجريب.

وتوج جاليليو هذا التوجه الحضاري الجديد بخطوة عقلية جريئة، ربما تفوق العديد من المخترعات التكنولوجية الحديثة، في أثارها الاجتماعية والعقلية.

فلقد تعود الأوربيون من قبله - على وجه التقريب-، إذا واجهتهم معضلة أن يفتحوا الكتب التي كتبها كبار المفكرين السابقين، يلتمسون لديهم الجواب، لكن جاليليو أراد أن يضع ما يقوله هؤلاء المفكرين أنفسهم موضع الاختبار، فوقف أمام ما يقولوه ليسأل سؤالاً بسيطاً للتكوين اللفظي، لكنه خطير الأثر، باهر النتائج، ألا وهو: هل هذا صحيح؟ .. وهكذا.

ولعلنا بعد هذا بحاجة إلى أن نتساءل عن السبل التي يمكن، عن طريقها إحداث هذه الثورة المأمولة للإصلاح المعرفي:

١- إن أول سبيل إلى ذلك، يبدأ في أول مراحل تنشئتنا لأبنائنا من زاوية بعينها. فنون أن نتبته فإن الله عز وجل قد خلق الإنسان منذ نعومة أظفاره (فيلسوفاً)، لا يكف عن طرح التساؤلات عن كل ما يراه ولا يفهمه، وأهم تساؤل يطرحه هو (لماذا) أو (ليه) ؟ باللهجة الدارجة. فإذا قالت الأم لطفلها أنها سوف تذهب

إلى عملها، سارع الطفل متسائلاً : ليه؟ وإذا أمره الأب بالأب يفعل أمراً ما، بلدره الطفل متسائلاً: ليه؟ ..، وإذا رأى الطفل أحداً بالأسرة بيكسي، تساعل: ليه؟ .. وهكذا.

إن معنى أن يسأل الطفل أنه يرى أمامه منطقة مجهولة من المعرفة يريد أن يكشف عنها، وبالتالي كلما تساعل، وأجيبناه، كلما عرف أكثر ونما عقله. وفضلاً عن ذلك فإنه يتعود على أن يسأل دائماً عن الحقيقة.

لكننا مع الأسف كثيراً ما نصيق ذرعاً بأبنائنا ولا نتحمل السير معهم إلى ما شاء الله في التساؤلات التي يطرحونها، بل ونصيح فيهم ناهين (بلاش دوشة)!!

إن هذا التصرف منا يعني أننا نبذر في شخصياتهم بذرة ضعف خطير في التكوين المعرفي. إنه يعودهم على أن يروا أحداثاً ووقائع دون سعي إلى أن يفهموا لماذا حدث هذا أو ذاك؟ ومثل هذا التعود يؤدي إلى السلبية، فضلاً عما يؤدي إليه من نقص معرفي. وإنسان يعيش نقصاً معرفياً مستمراً دون سعي إلى التغلب عليه، سرعان ما يصبح متخلفاً في عصر قوامه المعلومات وسرعة تدفقها.

٢- وثاني هذه السبل ترتبط بما سبق، فعندما يلتحق الأبناء بالمدرسة، نجد أننا نعلمهم (تلقيناً) .. المعلم يتكلم والتلاميذ ينصتون .. المعلم وحده يبدو في صورة "العارف"، والتلميذ يبدو دائماً في صورة المتلقي السلبي، كأن التلاميذ صناديق فارغة، والمطلوب من المعلم أن يملأها ببضاعته من المعلومات، ويطلب من التلاميذ أن يحتفظوا بها إلى وقت معلوم أمانة لديهم، ثم يستردها منهم بعد ذلك في صورة (امتحان) يقيس قدرة التلميذ على (التذكر)، وهو أدنى مستويات المعرفة.

إنه من الضروري أن يشارك الطلاب بتوجيه من المعلم في الحصول بأنفسهم على بعض المعلومات، حتى يشعروا بأن لهم دوراً ولديهم القدرة على الكشف عن المجهول. والمعلومة التي يصل إليها التلميذ بنفسه يكون أقدر على

التفاعل معها، وتصبح قابلة للذوبان حقاً في سلوكه، تماماً مثلما يستسيغ إنسان طعاماً فيمضغه، ويمر بعمليات هضم، فإذا به يتحول إلى خلايا في جسم الإنسان، بينما هذه المعلومات إذا جاءت (صبأً) و(حشوأً) في عقول التلاميذ، تظل محشورة في ذاكرته، كما ينحشر الغذاء دون هضم، وعند الامتحان (يتقيأ) التلميذ ما حفظه، وتتقطع الصلة بين ما تعلم وبين السلوك.

ولابد أن يتعود الطلاب أن يستمدوا ما هو مطلوب منهم تعلمه من (الأشياء) لا من (الكلمات) المسطورة على صفحات الكتب بقدر الإمكان، فذلك يوثق الصلة بين عالم الكلمة وعالم الفعل، ويربط الكلمة بأصولها المتجذرة في أرض الواقع، فلا يجمع الإنسان في سماء ألفاظ قد يعلو رنينها، لكنها جوفاء الداخل، والكلمة عندما تنبت الصلة بينها وبين جذورها الواقعية، تعجز عن أداء دورها المنشود في تحريك الواقع وتغيير السلوك.

٣- ولا يكفي أن نشرك أبناءنا وهم يتعلمون، في الحصول على المعرفة، أو أن يتعاملوا أكثر مع (الأشياء)، فلا بد كذلك من إخضاع ما نعرف دائماً لمحك الفحص والاختبار والنقد. لقد سبق أن سمعنا أم كلثوم تغني قاتلة (الشك يحيي الغرام)، ونحن نقول كذلك، أن الشك يحيي العقل، فهو أول درجات الصعود إلى (اليقين)، ولا يتأتى ذلك إلا بطرح هذا التساؤل دائماً: هل هذا صحيح؟

إن كثيراً من مظاهر (التطرف) التي لمسناها لدى قطاعات من شبابنا في مجال الدين ترجع - ضمن أسباب أخرى - إلى أنهم (ألفوا) أن يسمعو من (س) أو (ص) ممن علموهم بأن كذا حلال، وكذا حرام دون أن تكون لديهم دربة على فحص هذا الذي قيل لهم لمعرفة مدى درجته من الصواب أو الخطأ، إلى الدرجة التي تجعلهم بعد ذلك لا يطيقون أحداً يسألهم عن ذلك، وربما اعتبروا الشك فيما لقنوه من آراء شك في جوهر الدين يؤدي إلى الكثير!!

إنني أذكر أن قد كان لي كتاب في الفلسفة قرره وزارة التربية والتعليم على طلاب الثانوية العامة في أواخر الستينات، ولما جاء فيه ذكر لكلول

ماركس، وضعت تاريخ ميلاده ووفاته بين قوسين، لكن حدث خطأ مطبعي بحيث قلبت الثمانية في تاريخ الوفاة إلى سبعة، ومع ذلك ظهرت كتب (خارجية) متعددة تثبت نفس التاريخ الخاطئ، مع أن أحداً لو فكر قليلاً لأدرك بمرعة أن معنى هذا أن الرجل مات قبل أن يولد، لكن منهج (التسليم) الأعمى الذي درج عليه كثير يُعجزهم عن النظر الناقد، والبصر الفاحص المدقق، وهو السبيل الأساسي لتصويب خطو الإنسان، وبالتالي أن يسير على طريق الصواب، فيتقدم.

كذلك فإننا نتطلع إلى وعي يتوافر لدى الأباء والأمهات بحيث يحرصون - من حين لآخر - عندما يشاركون أبناءهم في مشاهدة بعض البرامج التلفزيونية، وخاصة الدراما والإعلانات، على أن يتوقفوا معهم متساقلين عن مدى معقولة حدث ما أو صواب معلومة تقال.

إن هذا أمر ضروري وحيوي في هذا الزمن الذي نتلقى فيه سيلاً من الأنبلاء السياسية التي تحتاج إلى التساؤل، وعلى سبيل المثال، فقد تنقل بعض وكالات أنباء خيراً من الأرض المحتلة عن مقاومة فلسطينية واصفة إياها بأنها عمل إرهابي، فعندئذ ننبه أبناءنا إلى أن الدفاع عن أرض الوطن (بطولة) و(فداء)، وأن قمعها هو الذي يسمى إرهاباً.

٤- إننا نعلم بكل تأكيد أن جسم الإنسان إذا تغذى على نوع واحد من الغذاء -هما كان لذيذاً ورائعاً فإن الإقتصار عليه فترة طويلة لا بد أن يصيب الجسم ببعض الأمراض .. كذلك (العقل)، فهو يتغذى على الآراء والمعارف، ولو ظل العقل لا يسمع ولا يرى إلا اتجاهاً واحداً في الرأي، فلا بد أن يصاب بأمراض سوء التغذية الفكرية فتقل قدرته على الفهم والحكم والتقدير، وتلك كارثة حلت بتلك المجتمعات التي عاشت تحت وطأة استبداد وقهر.

إن المسألة ليست أن المستبد ينهب ويسلب ويفسد في خيرات البلاد ومواردها، فهذا كله يمكن تعويضه فيما بعد بمضاعفة الجهد، ولكن الخطورة تكمن فيما يفعله الاستبداد من حجر على العقول بحيث لا تتغذى إلا على رأي

القاهر المستبد. وفي يقيني أن هذه كانت المصيبة الأكبر التي وضحت لنا عند انهيار الاتحاد السوفيتي، فقد ظل مواطنوه أكثر من سبعين عاماً لا يتغنون إلى على فكر واحد.

من هنا كانت ضرورة (الحوار).

والحوار بين أفكار مختلفة وآراء متباينة .. ذلك هو الأصل، ذلك أننا نسمع أحياناً عن (حوارات) جرت أو تجري في مثل هذه المجتمعات التي يسودها فكر واحد، وهي حوارات مزيفة، فكأن المحاور شخص واحد يجلس بين زوايا مختلفة لمرايا متعددة، توحى بتعدد زائف!

إن علماء الوراثة يحذرون من التزاوج بين الأقارب..

ونحن كذلك نحذر من التزاوج بين الأقارب .. أقصد الحوار بين أطراف لا يظلمها إلا اتجاه واحد وفكر وحيد. لا بد من تلاحق القول حتى تنتج فكراً جيداً، فتثري الحياة الفكرية.

أذكر أن نظام الثانوية العامة الجديد، عندما بدأ تطبيقه، ظهر وزير التعليم في برنامج تلفزيوني مع بعض الضيوف، وأخبر المذيع مشاهديه أنه سيدير حواراً، فإذا بنا نرى الضيوف هم مستشارو الوزير الذي أسهموا معه في وضع النظام الجديد، فهل يكون هذا حواراً حقيقياً؟!

٥- لكن الحوار له آداب معروفة يؤدي تغافلها إلى إفراغه من قيمته، بل وقد يؤدي به إلى أن يكون (عراكاً) و(مشاجرة) وليس (حواراً) و(محاورة).

لقد لاحظ علماء الأنثروبولوجيا في دراستهم على الإنسان، في حالات تطوره الأولى، أنه يزيل الحواجز بينه وبين ظواهر الطبيعة فيتصور أنها تغضب وترضى، تتألم وتفرح، بل لقد تصور الآلهة - في مرحلة التعدد في تطور الفكر الديني - على نفس منواله، تحب وتكره، تتزاوج، وتتحارب، وتدبر المؤامرات. لقد تحررنا طبعاً، منذ فترة طويلة تمتد إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح من هذا النمط الفكري، ولكننا ما زلنا نحتفظ ببعض منطوق هذا التفكير، وذلك بالتوحيد بين الذات والموضوع سواء بين صاحب الرأي أو

صاحب الرأي الآخر، إذ كثيراً ما يتجاوز المحاور الموضوع ليبيدي رأيه في (شخص) الآخر، وقد يلتزم المحاور بإبداء رأيه في الموضوع، لكن الآخر يوحد بين نفسه وبين هذا الموضوع، فإذا جاء الرأي مفنداً لكثير مما يقول، عدّ ذلك إهانة له.

ولا أظن أنني بحاجة إلى التنبيه إلى مستوى ومحتوى الألفاظ المستخدمة في التحوار. كانت هناك دراسة للماجستير أشرف عليها، فإذا بها وهي تتناول أعمالاً بحثية لآخرين تشير إلى أوجه نقص بها بعبارات مثل: "ونسى فلان" و"تغافل فلان عن.."، وما هو أشد من هذه الكلمات وما سار على نفس الدرب، فنصحته بأنه بدلاً من ذلك تشير إلى أن فلاناً هذا كان الأفضل لو ذكر كذا، وأن فلاناً الآخر ربما لم ير أهمية في كذا مما دفعه إلى ألا يشير إليها .. فمثل هذه العبارات البديلة تقول نفس الشيء، ولكنها -في تقديري- تخلو من الاستفزاز وطول اللسان.

وأحياناً نستكثر أن يشاركنا في الحوار من يصغروننا مرتبة ومقاماً وسناً، وخاصة إذا جاء رأيهم مخالفاً لما نذهب إليه، فنرميهم بقلّة الأدب أو عدم الولاء، وضعف الإخلاص!

وقد يحدث العكس، فيتصور المبتدئ أنه لو ألقى حجراً على كبير فإن هذا

يضعه في دائرة الضوء ويجعله محط الأنظار ومحور الأحاديث والتعليقات!!

٦- وللإبداع والابتكار شروطهما المشهورة والتي لا محل هنا للإشارة إليها، وإنما نريد التأكيد على أن العقل الذي يعيش على (النقل) فيجتز ما سبق أن وصل إليه السابقون يصيب الفكر بالعمق ويصيب المعرفة بالضحالة. إن البعض قد يذهب إلى أن تقاليدنا الثقافية التي استمرت قروناً طويلة والتي قامت على (علوم دينية) هي التي أرسدت هذا النهج، حيث أن طبيعة هذه العلوم تقتضي (النقل).

ورأيانا، أن هذا، حتى ولو كان صحيحاً، فإن هناك قطاعات معرفية أخرى لا تقوم إلا (بالعقل) وليس (النقل)، وهي كل المعارف غير الدينية. هذا من

جانب. ومن جانب آخر، فليس صحيحاً أن العلوم الدينية تعتمد فقط على (النقل)، فمساحة العقل فيها جديرة بالاعتبار، وإلا فكيف ظهرت المذاهب الأربع على سبيل المثال؟ ألا نتذكر مقولة الإمام الشافعي الشهيرة: رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب؟

وألا نتذكر أن واحداً من تلاميذ أبي حنيفة كان يكثر الاختلاف مع آرائه، فلما سأله بعض الناس عن ذلك فسرّه بأن الله عز وجل قد أتى أبا حنيفة ما أتاه فأدرك عقله ما أدركه، وأن الله أتانا ما أتانا فأدرك عقلنا ما أدركناه؟

ثم إن أشد ما يجني على شبابنا الذين يتعلمون بالجامعات، زحف ما يسمى بالكتاب المقرر. إنه إن جاز أن يكون الكتاب المقرر هو محور التعليم فيما قبل الجامعة، فلا يجب أن يكون كذلك في الجامعة فمثل هذا السبيل (نمط) و(يقولب) التفكير، لا، بل نحجر على فكر شبابنا وينشئهم على النقل والتقليد، خاصة وأن الامتحانات، في ظل هذا النمط تقدر نجاح الطالب بمقدار ما ينقله الكتاب المقرر. ولو طال العام الجامعي - فعلاً لا قولاً، وتنفيذاً لا تصريحاً رسمياً - ولو خففت مناهج التعليم الجامعي ووجه الطلاب إلى دراسة موضوعات من أكثر من مصدر، وقُيِّموا على أساس ما يصلون إليه بأنفسهم من تفسيرات وإدراك علاقات واستبطاب ووجهة نظرهم النقدية، لو حدث هذا فإننا نضع شبابنا بالفعل على طريق الإبداع والابتكار.

٧- وإذا كانت أمثلتنا، في معظمها قد جاءت من خبرة التعليم، فإن هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن جنابة التلفزيون بصفة خاصة على التكوين المعرفي لأبناء الأمة، إذ نستطيع أن نشير بلا حرج إلى المساحة التي يشغلها (الترفيه) قياساً إلى تلك التي يشغلها (التثقيف)، وكأننا نضع عملاقاً ضخماً بجوار جسم ضئيل قصير هزيل الصحة والعافية.

ونستطيع أن نشير إلى غناء هذه الموجة، أو (الهوة) بمعنى أصح، والتي سميت خطأ بالأغاني الشبابية، والتي صدق أحد الصحفيين بتسميتها (الهابية)، إذ فيها ما فيها من ركافة الألفاظ والتراكيب اللغوية وسذاجة المعاني، فضلاً

عن الأنغام التي تमित التنوق الجمالي وتشيع القبح، وتضعف الحاسة الأخلاقية.

إن مثل هذه المادة (الفنية) يؤدي التعود عليها إلى تعود على السطحية وتمرس بالسذاجة والألف مع القبح، وكل هذا، وما سار على دربه، يستحيل أن يكون مغنياً للعقل، منمياً لمعرفة.

ثم أن المادة التي تجذب الناس أكثر إلى مشاهدة التلفزيون هي (الأفلام)، ولكن هذا التكرار الممل والذي فاق كل تصور، لما سبق إذاعته عشرات المرات، من شأنه أن يرسخ في الأذهان (الجمود) و(الثبات)، والظن أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، إذ ليس هناك جديد تحت الشمس، وأن رجال الأمس لن نرى لهم مثيلاً، روعة وعظمة، وفي هذا تقليص لمساحات التجديد والإبداع والابتكار.

وماذا نقول في الكثرة الغالبة من الحوارات الساذجة الغبية التي تجئ الأسئلة فيها وكأنها أسئلة امتحان، مثل ما هي عوامل كذا أو كذا، أو تكون دعاية ممجوجة من قبيل: نريد من سيادتكم إخبارنا بأهم الإنجازات العظيمة التي تمت في الفترة الأخيرة؟ .. وهكذا!!!

إنني أنكر مذيعاً قابل أسرة سورية على أحد الشواطئ المصرية وسألها عن انطباعاتها، ثم سألها إذا كانت قد زارت شواطئ أخرى خارج مصر، ولما بدأت الأم تقول زرنا كذا وكذا، إذا بالمذيع يكمل لها الإجابة: وطبعاً لم تروا أجمل من شواطئ مصر!!

وماذا لو قالت السيدة أنها رأت أفضل من الشواطئ المصرية، وعندئذ يسألها المذيع عما لم يعجبها لدينا فيكون ذلك مدعاة للتطوير والتغيير، أم أننا فعلاً قد وصلنا إلى مرحلة الكمال!!؟

ومذيع آخر قابل رجلاً معمرًا من سكان سيناء تجاوز عمره المائة عام، مما يجعلنا نتوقع سؤاله عن الخديوي توفيق أو عباس أو السلطان حسين أو الحوب العالمية الأولى، أو الاحتلال البريطاني، أو ثورة ١٩١٩، لكن المذيع الأكمعي سأل الرجل عن ذكرياته عن حرب أكتوبر ١٩٧٣!!.. وهكذا.

٨-ولا نستطيع أن نختم هذا المقال دون أن نشير إلى التحرر الواجب للصحافة المصرية. إننا لا ندعي أنها فاقدة الحرية، حتى يبادر المتطوعون بالتأكيد على أن صحافتنا تعيش عهد حرية غير مسبوق .. فلنسلم جداً بذلك..

فهل يمكن أن يحول هذا بيننا وبين أن نطمح في مساحات أوسع للحرية؟ هل يمنع هذا أحداً منا من أن يتطلع إلى المزيد؟

لقد انصرف كثيرون عن قراءة الكتب لظروف وعوامل متعددة، ولكن ما زال الناس يقبلون على قراءة الصحف والمجلات، مما جعل منها القنوات الرئيسية للإعلام والتثقيف المكتوب.

لكن بقاء أهم الصحف والمجلات تحت سيطرة (الحكومة) وتوجيهها - مع التقدير الكامل لأفلام معروفة تلتزم بأمانة الكلمة وصدق القول - يجعل النتائج الفكرية محدوداً بحدود ما تريده الدولة، وهو نهج يقرب كثيراً من نهج النظم الشمولية، فإذا كنا قد انحزنا إلى خصخصة الاقتصاد، أفلا يقتضي هذا أن نتيح الفرصة كذلك لخصخصة (الفكر)؟

ربما يشير البعض إلى الصحف الحزبية، لكن هذه الصحف إنما تعكس نوع ومستوى التعدد الحزبي الذي تضاعل وهبط إلى حد كبير نتيجة ظروف الحياة الحزبية في مصر مما أدى ببعض الصحف إلى إثارة العاقبة والسلامة لتسير مع حزبها على نهج (المسايرة)، وأدى ببعض آخر إلى مزيد من الانفعال والتطرف في لغة الخطاب، فضلاً عما لمسناه القارئ عبر سنوات تجربة الصحافة الحزبية، من أنها قلما يكون لها أثر في تغيير واقع وتوجيه إلى طريق جديد، وهذا وذلك من شأنه أن يصرف، وهو ما حدث فعلاً، قراء وكتاب كثيرين عن هذه الصحف.

مرة أخرى ...

لقد قالوا أن الإنسان قد تميز عن غيره من الكائنات بامتلاكه (عقلاً)، ونحن نقول أن العقل أداة ما لم يحسن تفعيلها وتشغيلها لإحداث الإصلاح المعرفي المنشود فسوف نكون ممن أشار إليهم سبحانه وتعالى لنا قلوب لا نفقه بها ولنا أذان لا نسمع بها "إنهم كالأنعام، بل هم أضل".

الوظيفة الاجتماعية للمعلم

كما تصورها رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي

حقيقة اجتماعية نبه إليها منذ زمن طويل، فيلسوف الإغريق الكبير، أرسطو.. وأكد عليها فيلسوف العرب العظيم ابن خلدون وهذه الحقيقة نقول، أن المجتمعات البشرية لا يستقيم أمر كل إنسان فيها إلا بالتعاون، أما العزلة والانفراد والاستئثار والانتواء وما ينعطف عليها كلها، فمن أضداد المجتمع والاجتماع وما إليهما، وكل شيء يعمل به الإنسان منفرداً يمكن أن يتم بشكل أحسن في ظل التعاون مع الغير. وفي التعاون تكامل للجهود، كما أن من مقتضياته وجود قيادة تحسن تنسيق الجهود المتعاونة وتكامل بينها وتوجهها نحو الأهداف المشتركة. وفي مثل هذا المجتمع المتعاون أفراده المتكاملة جهوده، المستبيرة قيادته، يجد الفرد أمنه وطمأنينته ويستقر وضعه، وهذه هي أسس سعادته التي لا تتحقق إلا في إطار الانتظام القائم على التنسيق والتكامل المستند إلى الحركة الديناميكية التي لا توجد إلا في مجال القيادة الرشيدة المرنة والتبعية البصيرة المقتنعة.

وإذا كان لنا أن نزعّم أن (المثقفين) يتحملون مسؤولية كبيرة في (القيادة الاجتماعية)، فإن لنا أيضاً أن نؤكد أن (المعلمين) - كأحد فئات المثقفين - يتحملون قدراً هاماً في هذه المسؤولية لعدة اعتبارات:

١- أن المعلمين يضمون فيما بينهم كافة التخصصات العلمية والفنية الموجودة في الحياة العامة، فما من مشكلة اجتماعية إلا وأساسها العلمي والاجتماعي عند بعضهم بحكم دراستهم المتنوعة.

٢- أنهم بحكم تخصصهم يتقنون - أو مفروض أنهم يتقنون - عمليات التوجيه والإرشاد والقيادة والإقناع والتنظيم، فهذا فئهم.

٣- أنهم متغفلون في أرض الوطن بعيدها وقربها، عامرها وغامرها، منوها وقرأها، حضرها وباديتها، فحيث لا يوجد طبيب أو محام أو مهندس، يوجد معلم بالضرورة.

٤- أن علاقاتهم متصلة بجميع الناس بلا استثناء، فلا توجد أسرة في أي بيئة إلا والمعلم جزء مكمل لحياتها عن طريق معالجتها لأولادها وبناتها بالتربية والتعليم، وما من فرد إلا وله معلم. المعلم فني أو أخصائي كل الناس، زبائنه يحتكون به يومياً، على حين أن الطبيب لا يتصل إلا بأحد المرضى، والمهندس لا يتصل إلا بأحد من أصحاب الثروة، والمحامي لا يتصل إلا بأحد من أصحاب القضايا، ولكل من هؤلاء محام أو مهندس أو طبيب، أما عامة الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الاقتصادية، فلمهم علاقات بأكثر من معلم، وكل معلم يعتبر زبائنه أو عملاءه بالآلاف. (أبو الفتوح رضوان : في المجلد الثاني من الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، ص ٥)

هذا هو (المثال) .. لكن إلى أي حد يقترب (الواقع) منه أو يبتعد؟ لقد درجت العادة أن تكون الإجابة عن مثل هذا السؤال بإجراء دراسة ميدانية تقن لها أدوات الاستقصاء والاستفتاء، فماذا لو حاولنا طريقاً آخر هو البحث عن (الرؤية الأدبية) لهذا الواقع كما تصوره رواية مثل رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشراوي؟ لقد حظيت هذه الرواية المبدعة بالكثير من الأبحاث والدراسات من زوايا وجوانب شتى، ومع ذلك، فأمامنا اليوم جانب آخر لا نظن أنه - في حدود علمنا - قد حظي باهتمام من قبل.

ولعل ميزة هذه الرواية بالنسبة لموضوعنا، أنها لا تقدم لنا نموذجاً واحداً من المعلمين وإنما ثلاثة نماذج: معلم الكتاب، ومعلم المدرسة، وناظر المدرسة. كذلك فإن موقعهم في إحدى القرى المصرية يضعهم بالفعل أمام أهم قضايا المجتمع ومشكلاته تلك التي تدور حول الاستقلال الرأسمالي للفلاحين والاستبداد السياسي، وشيوع التفكير الخرافي الذي يشل كل قدرة لدى المواطنين نحو التقدم. يقدم لنا الشراوي نموذج معلم الكتاب وكيف كان يقوم بوظائف متعددة،

فالشـيخ الشـناوي هو فقيه القـرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي، ومعلم الأولاد فيها، وواعظ الكبار، ومن جملة الصفات التي يقدمها لنا الكاتب عنه نعلم مدى (نهم) هذا المعلم وتكالبه على المأكولات، كما نقف أيضاً أمام تلك العلامة الهامة التي تميز هذا الصنف من المعلمين وهي (العصا)، الأداة الأولى في التعليم، فهو رجل طويل عريض ضخـم الجثة، غليظ القفا، عظيم الكرش، يحب الموالد والطعام، ولا يكاد يوجد في القـرية رجل لم يذق عصا سيدنا الشـيخ عندما كان يقرأ في الكتاب.

وإذا كنا نحن الآن نشاهد ونعرف أن عمل المعلم يكاد ينحصر داخل أسوار المدرسة بحيث يرفع مسؤوليته عن الأولاد والبنات خارجها عن كاهله، فإن هذا لم يكن حادثاً في القـرية، وبالنسبة لهذا النوع من المعلمين بالذات، فالمعلم لا ينتهي بانتهاء اليوم المدرسي، وهو يمتد إلى كل مكان يوجد فيه التلاميذ والتلميذات، ولعل هذا أيضاً يرتبط بنمط العلاقات الاجتماعية في الريف الذي يختلف اختلافاً كبيراً عنه في المدن، فالجميع في القـرية على وجه التقريب يعرف بعضهم بعضاً، وكل فرد يعتبر نفسه - إلى حد كبير - مسؤولاً عما يحدث للآخرين من آلام ومشكلات وعوائق، ويتشاركون في مواجهتها، وكذلك الأمر في المسرات. لذلك نجد أن الصبية الذين كانوا يلعبون لعبة (العريس) في المصلى يفرعون فرعاً شديداً عندما يشعرون باقتراب الشـيخ الشناوي:

- سيدنا الشـيخ الشناوي !! يا دي الحوسة.. إجري يا بنت .. قوم يا وله، إجري يا واد .. إجري .. سيدنا طب يا جدعان.

ويصيح الشـيخ وهو لم ير بعد ما يحدث:

- انجر منك له لها .. انجروا بعيد عن المصليّة أحسن تتجسوها .. يعني طاهرين قوي؟ .. اللي أهاليكو ما بتهوب ناحية الجامع..

وعندما يشعر بأن (اللعبة) تقوم على علاقات جنسية يثور ثورة عنيفة ويهددهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، فهي (خطيئة كبرى)، وهي تجعل الإنسان معرضاً (لنار جهنم)، وهي "عيب" كبير، أما لماذا هي خطيئة كبرى؟ ولماذا

تعرض الإنسان لنار جهنم ولماذا هي عيب؟ فلا أحد يبين للصغار ذلك، مما يجعل القيم الأخلاقية تتسرب غامضة غير مفهومة، وتفقد المنطق والتبرير والاعتداع، وتفتح الأبواب فيما بعد لأية فرصة للتحايل عليها، وتسير تعليقات الصبية معبرة عن عدم الفهم:

- سمعنا لأول مرة كلمة الفحشاء، وسمعنا لأول مرة كلمة الزنا.. الزنا الذي قال عنه سيدنا أنه يخرب البيوت.

- وفي الحق أننا لم نفهم سر ما يغضب علينا الشيخ الشناوي.

- كنت أنا و(وصيفة) والداية الصغيرة طول الوقت في المصلى، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين، ولم نشعر أبداً أننا نرتكب شيئاً يستحق هذا كله.. وبصفة خاصة يستحق النار..

- ولم يكن أحد قال لي بعد أن الصغار حين يلعبون يمكن أن يلعبوا بأشياء يحرقون من أجلها بالنار.

فها هنا يتخلى المعلم عن دوره الاجتماعي والديني، إنه معني بمهمة (النهي) و(الزجر) لكنه ينسى أهم قاعدة في (التربية) وهي أن الإنسان لكي يسلك، فلا بد أن يقتنع، وهو لكي يقتنع، لا بد أن يفهم، وأن تحقيق الفهم لا يتأتى إلا بالوقوف على (الأسباب) و(المبررات).

وعندما يعلم الأب بالحكاية، ينال الابن عقاباً صارماً، ولكن : هل يقول له أحد لماذا أيضاً؟ .. كلا، ف(التربية الجنسية) لا وجود لها في هذه البيئات، والنتيجة أن الأبناء يبحثون عن كل ما يتعلق بـ(الجنس) من مسالك ودروب أخرى قد لا تكون صحيحة، فتكون سبباً في عديد من الأخطاء والعقد النفسية فيما بعد.

"لم أسأل أبي عن تفسير لكل هذا.. ولكنني حاولت أن أسأل (وصيفة)، فقد كانت تعرف كل الأسرار".

ويدبر عمدة القرية مكيدة للفلاحين بمساعدة (محمود بك)، قريب أحد الباشاوات الإقطاعيين وذلك في أول الثلاثينات، وتكتب (عريضة) بمطالب القرية (هكذا) ادعاء معتمدين في ذلك على الأمية الشائعة بين الأهالي، فهم لن يقروها

وسيكثفون بالسؤال عما فيها، وبالطبع من السهل ممارسة الكذب عليهم هنا لغياب الوعي. بيد أن معلم الكتاب يعرف القراءة والكتابة، ويستطيع أن يعلم ما فيها فيحذر الفلاحين من هذه المكيدة، لكنه لا يفعل ذلك، فهو يلتمس رضا ممثلي السلطة أكثر مما يرى التماس رضا الناس (المساكين)، ولذلك فهو يوقع على الورقة دون قراءة، ولا يكتفي بهذا، بل يحدث الناس على أن يفتدوا به فيحملون أخطامهم ليضعوها تحت إمضائه، فإذا ما سأل أحد عما في العريضة أو إذا طلب أحد قراءتها، ثار فيه الشيخ وشتمه.

ولا يعجب هذا الموقف ذلك الفلاح الذكي، صلب الإرادة (عبد الهادي)

فيقول في استنكار واضح:

- دهدي مش تقرأ لهم العريضة في الأول.. حد عارف إيه اللي في العريضة؟
ويصيح فيه الشيخ الشناوي:

- أعوذ بالله منك يا واد يا عبد الهادي! بقه إنت مناكف في كله كده أه؟ مالكوش
دعوة بعبد الهادي يا أولاد انجروا انتوا عالدار.

وظل (سيدنا) واقفاً في الطريق يهز عصاه على الرؤوس ويلتقط أي رجل يروح ويجيء، ويأمره بالذهاب إلى الدار، ويأمر بعض الرجال بإحضار أختام النساء اللواتي يملكن أرضاً وظل سيدنا يقول:

- اللي يحب الله ورسوله يروح عالدار.. ياللا يا كفره، يا بلد زنادقة!

إنه يقحم الدين لخدمة السلطة الظالمة بينما تنطق آيات عديدة من هذا الدين بأنه يأبى للإنسان أن يرضخ للظلم، ويأبى على الإنسان أن يستغل الآخرين.. إن المعلم بهذا السلوك يحارب من حيث لا يدري الدين لأنه يقدمه مشوهاً محرفاً، وهو كذلك يساعد في تثبيت أركان الظلم والاستغلال، ويدعم صور القهر والاستعباد.

وهو يمارس صوراً متعددة من التفكير الخرافي من شأنها أن تسهم في إخضاع الفلاحين لما يقع عليهم من ظلم واستبداد وكأن هذا (قدر) قد كتب عليهم ولا حيلة لهم في مقاومته والثورة عليه، وما على المرء إلا أن يمارس الطقوس الدينية ويكثر من الأدعية حتى يمكن أن تنصلح حاله:

فالإقطاع والاستبداد السياسي يتعاونان في سلب أهل القرية حقهم في ري أراضيهم، ويتشاورون فيما ينبغي عليهم عمله لمواجهة هذا التحدي السافر، ولكن معلم الكتاب (الشيخ الشناوي) يرتفع صوته ويطلب منهم أن يصلوا على النبي!! وتردد الأقواء بطبيعة الحال همسات الصلاة على النبي، ولم لا؟ فالفلاحون قوم متدينون، ولكنهم لا يجدون أمامهم من يستغل هذه القوة الهائلة في سبيل ترقية أحوالهم وتطوير حياتهم والثورة على الأوضاع القائمة، وبمسك شيخنا بالمسبحة ويرفع يديه ويقربها من عينيه، ويطلب من الموجودين أن يقرأوا عدية ياسين على من قصر مواعيد الري: أن ينتقم الله منه بحق جاه النبي!! وليس ذلك من الدين بطبيعة الحال، فهو - هكذا المفروض - أداة تطور لا أداة جمود، وهو سبيل التقدم لا سبيل الرجعية، ومن هنا كان تنبيهه للناس بأن (الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).. بيان عام للناس، ومنهم بالتالي هؤلاء الذين لم ينالوا قسطاً من التعليم، والناس بفطرتها تعلم هذا، تعلم أيضاً أن مجرد (الكلام) و (الدعاء) لا يغير من الأمر شيئاً، ويتمثل هذا في (عبد الهادي) الذي يعارض فكرة الشيخ ويطلب منه أن يفكر في غير هذا، أو فليستك هو .. ويترك أصحاب الشأن يفكرون!

ويشير الشيخ في وجه عبد الهادي تلك السلاح البيض، سلاح (التكفير)..
- يه، يه، إنت حا تخوض يا عبد الهادي؟ أنا عارفك ضلالي وما بتركعهاش،
طب قوم قوم دا المغرب قرب يوجب .. قوم بنا عالجامع.. وهكذا.

ولابد لنا من أن نعترف أن هذا النموذج قائم بالفعل ومنتشر في أحياء البلاد، ويمارس هذه الأنشطة الهدامة، وقديماً قال العرب : (أحمق من معلم كتّاب)، بل أن العرب أحياناً ما كانوا يرفضون الاعتراف بشهادة (معلم الصبية)، على أساس أنه لطول معاشرته لهم، ينزل بمستوى تفكيره إلى درجات دنيا لا يصح عندها الاستناد إلى حكمه والرجوع إلى رأيه، لكن من الضروري أيضاً أن نلفت النظر إلى أن هناك أنماطاً أخرى من المعلمين الفقهاء ذوي الأذهان المتفتحة والعقول الراجحة ممن يعرفون حقيقة الدين ويدركون خطورة ما يحتله المعلم ورجل الدين من موقع قيادي هام، فيمارسون صوراً أخرى تبعث على الفخر

وتشيع الرضا في النفس.

ولعل هذا يجعلنا نقف دائماً أمام مثل هذه النماذج في بعض رواياتنا ومسرحياتنا موقف الحذر التام، إذ الحق أن كثيرين من كتابنا يظهرون دائماً طائفة (الشيوخ) في صورة مزرية متعفنة هدامة، لا هم لهم إلا ملء البطن والتسييح بحمد أولي النعمة وأصحاب السلطة والجاه حتى ليخرج القارئ أو المتفرج بانطباع سيء عن هذه الفئة متصوراً أن الجميع هكذا، بينما نؤكد - مرة أخرى - أن هناك نماذج أخرى أكثر إشراقاً وأشد فاعلية في اتجاه التطور ومصالح الجماهير مهما كلفها ذلك من تضحيات.

والنموذج الثاني الذي يقدمه الشراوي هو (محمد أفندي) الذي يصفه بأنه رجل هادئ الصوت قصير، نحيل، رقيق الجسم، طويل الرقبة.. يخلق ذقنه بانتظام، ويقص نصف شارب بطريقة لا يفعلها أحد غيره في القرية..

وهو يقرأ الصحف أحياناً، ويقرأ لرجال القرية بعض المقالات التي تعجبه بصوته الهادئ العميق، وجلبابه نظيف على الدوام، مخطط واضح الخطوط.. وشبشه الأصفر فاقع اللون.. والطاقيّة المربعة البيضاء على رأسه تميل عن منبت شعر منسق هو الشعر الوحيد الطويل المنسق بين رجال القرية.

وهو مثال لمدرس المدرسة الإلزامية أو الأولية التي كانت قائمة قبل الثورة، يتقاضى مرتباً بسيطاً للغاية (أربع جنيهات) شهرياً، وهو نموذج آخر للسلبية، فإزاء العديد من ألوان البطش والاستغلال وخاصة ما يتعلق بمياه الري، يجد أن مجرد كتابة (شكوى)، ورفعها إلى المسؤولين، وسيلة كافية لدرء الخطر المتوقع. ومن الغريب أنه إذ يفكر في هذا نجد أن شخصية قروية أخرى تتمثل في محمد أبو سويلم الذي كان شيخاً للخبراء، يندد بهذه الوسيلة مؤكداً أن التجربة قد علمته أن الحكومة تخاف ولا (تختشي). وعندما يمر المعلم يصيح أبو سويلم:

- ما تخلي الحكومة تقول يا جدع خليم يقولوا، مش نقصوا مواعيد الري حاضر خليم يقولوا بس، واللي في القلب في القلب! خليم يتكلموا على كيفهم، واحنا نروي على كيفنا.

وهكذا، بينما يقف المعلم في الجانب السلبي، يقف (الفلاح) - أبو سويلم - في جانب يتسم بكثير من الإيجابية.

والمعلم هنا يسلك مثلما يسلك هؤلاء الذين يرهبون السلطة فيخطبون ودهما دائماً بالحق أو بالباطل، ولذلك، فهو بعد أن يكتب (العريضة) التي تحمل شكوى أهالي القرية، يصر على الذهاب إلى (العمدة) أولاً ليخبره بالأمر على الرغم من علمه بمواقفه غير المشرفة من أهل القرية بتحالفه الصريح مع القوى المستغلة للجماهير، وعلى الرغم من تحذيرات عدد من الفلاحين وتنديدهم به:

- عمدة إيه يا راجل؟ وحياء النبي دا ما يركب نمتي بكوز درة...

- عمدة قال! بعد اللي عملوا فينا! بقى دي بلد؟

- العمدة .. ما هي كل المصايب جاية من تحت راس النيلة.

وبطبيعة الحال تكشف التجربة عن فشل هذه الوسيلة العقيمة المعاجزة، فالمطالب لا تتال بالتمني، وإنما تؤخذ الدنيا غالباً فيما يقول شوقي. إن اللجوء إلى ممثل السلطة العميلة يجعل القضية أكثر تميماً. ومن هنا نجد أبو سويلم يصيح عندما يسمع بفشل الشكوى:

- دهدي! هيه ما تصلوا بينا على النبي يا جدعان وتقولوا لنا بس نعمل إيه؟ إيه

محمود لا هو خد العريضة وسافر بها مصر، ولا هو اللي كتب ولحده جيده!

والزرع أهو حاي موت والحمد لله حانقعد كل مرة نخطف المية ونستحمل ززالة

شيخ البلد؟ عايزينها تتحل قبل نور المية الجاي! كانت شورة غبراء، شورة

العريضة دي.. قلت لكم بلاش العمدة.. أدي آخرتها! ما قولك بقى يا سي

محمد؟ أديك طلعت ابن الحمار! أم قالوا عليك ابن الحمار، فلماذا يقول هذا

(المعلم)؟! ولماذا لا يشتمونه وهم يعلمون مدى ضعفه وسليبيته؟ ومن المضحك

أنه كان يتصور أن (الأساليب البيانية) والتزويق في الكلام والكتابة يمكن أن

تواجه أساليب الإقطاع والاستبداد، فهو يتحسر إن لم تجد الشكوى نفعاً رغم أنه

كتب فيها "إن الفلاحين إذا قطعت منهم خمسة أيام ري، فإنهم سيفترشون

الغبراء ويلتحفون بالسماء!!" صورة من صور البيان استعارها من المنفلوطي،

وها هو أسلوب المنفلوطي يفشل!

ورغم ما تلقاه محمد أفندي من شتائم، فهو يسعى إلى (محمود بك) الذي شتمه، يسعى إليه مرة أخرى بالعريضة التي أجبروا أهل القرية أن يوقعوا عليها دون أن يعلموا بما فيها .. حتى هذا المعلم!! لذا فقد استحق أن يسخر منه عبد الهادي بقوله:

- لكن محمد أفندي حاسافر إزاي مع البية بعد ما قال عليك ابن الحمار يا سي محمد؟

ولا تفلح هذه الأقوال وغيرها في تبصيره بالواقع المر، وإنما على العكس من ذلك فهو سعيد وفخور أن سيذهب مع (البيه) إلى مصر متوهماً أنه سيقابل الحكام هناك، وأنه بذلك سيقابل الحكام أيضاً، وبالتالي فسوف يستطيع أن يأتي للقرية بالخير العميم، وإن كانت بعض الوسوس والخواطر تهيج في رأسه من حين لآخر عن حقيقة (العريضة):

- جحشة معتبرة، وبردعة قطيفة وركبة ملوكي. والله عال! بقى إنت يا واد يا محمد أفندي يا ابن الحمار رايح تقابل الحكام في مصر؟ حكام إيه يا اخواتي يقابل مين يا عم بقى إنت اللي حاترجع لنا المية؟ طيب لما نشوف آخرة العريضة دي يا بلد ٠ هوه حد عارف العريضة فيها إيه؟ مختمين على إيه؟ يمكن مختمينها على كمبيالة! حد كان قرأ العريضة؟ ما يمكن مغرز وانعمل في البلد! أه يا بلد!

وعندما يذهب محمد أفندي إلى القاهرة مع محمود بيه، وتأتي اللحظة التي يقف فيها على ما في (العريضة)، يجد أنها تشتمل على التماس بشق طريق زراعي!! وعندما يحاول أن يناقش الموضوع، يثور سعادة البية فيوجهه ويوجه إليه الإهانة تلو الإهانة:

- إنت عارف الحكاية كويس! جاي تستعبط هنا؟ عمدتك قال لي إنك فاهم، أمال نفعت فلوس على إيه؟ هو لعب عيال؟

وهكذا يفشل هذا النموذج الثاني من المعلمين في ريفنا المصري في

مواجهة مشكلات وقضايا مجتمعه وأفراده من الفلاحين البسطاء الفقراء.

بيد أن الشراقي لا يتركنا هكذا لليأس، إذ يقدم لنا نموذجاً ثالثاً يعرف موقعه في الخريطة الاجتماعية، ويمارس بالفعل نوراً إيجابياً بناءً وإن كان يقاسي من جراء ذلك متاعب وألواناً من الاضطهاد متعددة .. ذلك هو الشيخ (حصونة).. تلقى تعليمه بالأزهر، واشتغل معلماً بالصعيد حيث خبر حياة شاقة صعبة يعرفها هؤلاء المعلمون الذين كانوا يمارسون التدريس في تلك المناطق منذ زمن، إذ كان ينام على سرير من (جريد) النخل ترحف تحته العقارب. وقد شغل بعد ذلك وظيفة ناظر للمدرسة الأولية في إحدى القرى المجاورة وظل يعمل بها ويحظى باحترام أهلها حتى إذا تولى إسماعيل صدقي رئاسة الوزراء سنة ١٩٣٠ وكان ما سمي بـ(حزب الشعب) بدأ يمارس دوره الحقيقي في القيادة الواعية نحو مقاومة الاستبداد والظلم فقاوم هذه الوزارة. وعندما بدأت الحكومة في إجراء انتخابات جديدة، قاطعتها كل الأحزاب، ووقف هذا الشيخ موقفاً مشرفاً للغاية، إذ طلب من أهل القرية أن يقاطعوا الانتخابات، وأذن للمدرسين أن يتركوا المدرسة ليصبحوا على مقاطعة الانتخابات.. ولم لا؟ فالمدرسة ليست مكاناً لتعلم مجموعة من الحقائق والمعارف والمعلومات عن الطبيعة والحساب والجغرافية والتاريخ.. إلخ، ولكنها مكان لتعلم الحياة بكل جوانبها، والقضية الوطنية بناءً على هذا، والاشتغال بها عمل تربوي هام تتراجع أمامه كافة الأعمال الأخرى في مثل هذه اللحظات التي يمارس فيها الزيف والاستبداد على الشعب.

وعندما يزور نائب حزب الشعب القرية التي يعمل بها الشيخ حصونة، يرفض الشيخ استقباله في المدرسة، بل والأدهى من ذلك إنه يصرف التلاميذ إلى منازلهم ويغلق أبواب المدرسة، وينصرف هو الآخر حتى إذا جاء النائب لم يجد إلا الصمت القاتل.. أقوى من أي كلام!!

ويحدث - صدمة - أن يتقابل مع النائب في الطريق، فيسوق إليه التحذير تلو التحذير بأنه لو زار القرية التي فيها أرضه، فسوف يهاجمه الفلاحون ولا يتركونه إلا وقد قطعوا رأسه بالبنوس!!

وشيعت القرية المجاورة النائب الزائر بالطوب وصراخ النساء، ولذا فهو يسعى لدى المسؤولين في نقل الشيخ حسونة إلى مدرسة أخرى بعيدة أو فصله. وتم نقله بالفعل مدرساً بقرية تبعد كثيراً عن قريته لا يستطيع الوصول إليها إلا في (وابور البحر) وهو يُنقل لا كناظر كما كان، وإنما كمدرس عادي. وهكذا تلعب المناورات الحزبية التي كانت البلاد تنن منها، دورها في تحطيم القيم الديمقراطية في هذا الميدان الهام، عالم التربية والتعليم، فإذا كان المعلمون يعاملون من قِبَل السلطة هكذا لا شيء إلا لأنهم يمارسون حقهم المشروع في إبداء الرأي، فكيف يمكن أن نتوقع منهم أن يربوا لنا أجيالاً تؤمن بالديموقراطية وتستطيع ممارستها؟ إنها حقيقة مرة لا بد أن تسجل، وهي أن القيم الديمقراطية إذا كانت تنبج على أبواب المدرسة، فلا أمل إطلاقاً في العثور، حتى على صورها الباهتة في ركن من أركان المجتمع.

وعلى الرغم من هذا الذي حدث للشيخ حسونة، فقد ظل أهل قريته والقوى المجاورة، بل وفي المدرسة الجديدة، يسمونه —(حضرة الناظر) تقديراً له واحتراماً لمواقفه المشرفة بجانب قضاياهم ومشكلاتهم، تماماً مثلما عزلت نفس الحكومة، الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب لعدم رضوخه لمطالبها غير السليمة، فحملته الجماهير على أكتافها مرعدة بصوت قوي أصم آذان المستبدين. إن السلطة إذا كانت قد حرمته من منصب العمادة، فسوف يظل الشعب يخلع عليه نفس اللقب، وأقرب منذ ذلك الوقت بـ(عميد الأدب العربي) بدلاً من (عميد كلية الآداب) وظل اللقب متداولاً طوال حياته لاتفاقه مع واقع الحال إلى حد كبير.

ويتجلى تقدير الجماهير وحبها لهذا المعلم الوطني (الشيخ حسونة) عندما يسمع أهل القرية بأنه سيأتي لزيارتهم:

- يا سلام يا جدعان .. أهو دا الراجل اللي ينفع دلوقت صحيح.. جاي في وقت عوزة تمام دا حنا ياما شفنا مع بعض أيام السلطة (الحرب العالمية الأولى).

- بقى كده بقى حضرة الناظر جاي سلامات يا شيخ حسونة سايبنا وقاعد في

مصر على طول ليه؟ تعالى شوف اللي بيجرى تعالى شوف!

وعندما يأتي الشيخ حسونة، يبدأ في ممارسة قيادته الصحيحة الواعية، فهو يوبخ قريبه (محمد أفندي) وهو النموذج السابق للمعلم السلبي الضعيف، ويحثه على ضرورة أن ينشر الوعي السياسي والاجتماعي بين الفلاحين حتى لا يقعوا فريسة للحكام المستبدين:

- إنت عارف إيه اللي حصل في الانتخابات إنت يا أخينا مش تفهم الحاجات دي كويس عشان تنور الفلاحين ولا بس شاطر تجري لي مرة ورا العمدة، ومرة ورا محمود ابن إنجه هانم ومرة ورا البنات المايعين؟
وعندما يشكو أهل القرية من سوء حالة القطن ويتناقشون في الأسباب، يلفت نظرهم إلى الأسباب الحقيقية البعيدة:

- شوف .. اطرد الإنجليز واطرد حزب الشعب كمان، ورجع الدستور، والقطن يبقى عال، ولا إنت لسه مش فاهم يا محمد الناس بيقولوك يا محمد أفندي، خليك متتور وأفندي بصحيح، إقرأ الجرائد يا أخي. . سعد باشا قال: مفيش فائدة طول ما الإنجليز هنا.

ويستحث أهل القرية على عدم الرضوخ لإجراءات الحكومة المستبدة، وضرورة أن ينفذوا ما يريدونه هم وما يرونه صالحاً للقرية، فهو سُجن وُعُذِّب، ومع ذلك فما هو بكل قوته وعاقبته أصلب عوداً وأشد مراساً:

- يعني همه رايحين يحرموننا من الهوا؟ هما كانوا شاقو من البلد إيه يسكتهم يا (ابو سويلم) لازم البلد توربهم العين الحمره.

وهو لكي يؤكد هذا الذي يقول، يسترجع لهم بعض أحداث ثورة ١٩١٩ ودورها في حياتهم ودوره فيها، فقد كان فلاحو القرية أثناء الثورة يسيرون في جماعات كبيرة يرددون: (يا انجليزي يا حرامي أصولي .. خد شعيري وقمحي وفولي) وكان الشيخ حسونة يرفع يديه ويلوح بإصبعه ويقول: (وبالاستقلال أبشر) فيردد الفلاحون : (رغم أنف الإنجليز).

ولم يقتصر دوره على قيادة حركة المظاهرات والتهافتات، بل قاد القرية في حركة كفاح مسلح، فقد هبطت فرقة من الجنود الإنجليز وعسكرت بجوار

القرية، فجمع عدداً من رجال البلد وفتيانها وحمل كل منهم قطة أو كلباً صغيراً وعقد في ذيله شريط قماش مبلل بالبتروول، وزحفوا على البطون ومعهم الكلاب والقطط حتى إذا وصلوا إلى المعسكر الإنجليزي، أشعل كل منهم عود كبريت في الشريط المربوط بذيول الحيوانات وقذفوا بها إلى حقول الحنطة، فانطلقت تجري بجنون وتشعل اللهب في الأعواد اليابسة حول الجرن الذي يقيم فيه عسكر الإنجليز حتى أصبح المعسكر وكأنه عقرب كبير حاصرته دائرة من لهب ودخان، ومنذ ذلك الحين لم يحاول الإنجليز أن يرسلوا إلى القرية رجالاً آخرين!

الظروف الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في تكافؤ الفرص التعليمية

كما تصورهما بعض روايات نجيب محفوظ*

أصبح من المسلم به الآن على مستوى العالم أجمع على وجه التقريب أن التعليم له دوره الأساسي في إعداد الكوادر البشرية اللازمة لأية عملية تنمية بحيث يقاس مستوى النمو في المجتمعات ويقارن بينها، وفقاً لمستوى التعليم ودرجة نموه. كذلك أصبح من المسلم به أن للتعليم دوره الواضح في رفع مستوى الوعي الذي يسمح للمواطن أن يتابع الحقائق المتصلة بمجرى الأحداث بعقلية نافذة تستطيع أن تميز بين الحقيقي وبين الزائف، وأن تربط بين الجزئيات لتبصر الاتجاه العام والمجرى الرئيسي.

ومن هنا فقد أصبح من المحتم بالنسبة لأي مجتمع يريد أن يسير على طريق الديمقراطية أن يتيح فرص التعليم لأبنائه دون أن تعوقهم عن التمتع بها عوائق سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية لتظل القدرات العقلية والاستعدادات الخاصة والجهد المبذول هي وحدها معيار النجاح أو الفشل.

ومن هنا أيضاً حرصت قوى الاستعمار العالمي والاستغلال المحلي على أن تضع من العقبات ما يحول بين الجماهير العريضة وبين الحصول على حقها من التعليم حتى يقللوا بقدر الإمكان من فرص (الحراك الاجتماعي) الذي قد يؤدي إلى صعود أبناء الطبقات الفقيرة إلى مستويات اجتماعية عالية، وحتى يستمر الكم الأكبر من الناس في سبات يُمكن لهذه القوى من الاستمرار في استعمارها واستغلالها بكل السبل والوسائل.

*مجلة الهلال في ديسمبر ١٩٨٥ ونشرت بعنوان (الجوع والتعليم في روايات نجيب

محفوظ)

وقد نجحت هذه القوى في سلوكها هذا السبيل فترة طويلة من الزمان في مصر، فحالت مصروفات التعليم الباهظة التي كانت مقررة في الأربعينات فما قبل بين جماهير عريضة وبين ولوج أبواب التعليم. كذلك فإن المستوى الاقتصادي المتدهور للكثير من العائلات المصرية في هذه الأزمنة أثقل كاهلها بالكثير من الأعباء التي استندت قواها بحثاً عن لقمة العيش وصرفها بعيداً عن التعليم ومتطلباته.

وفي رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ نلمس شواهد عدة تؤكد على هذه الحقائق إذا كان للبعض أن يقول أنها (خيالات) أديب، إلا أن الكثير من شواهد التاريخ التعليمي في مصر تماثلها وتدعمها، فقد توفي رب الأسرة وله ولدان في المدرسة الثانوية، ولم يكن لهم قريب يعتمدون عليه، بل لم يترك الأب إلا معاشاً هزياً لا يكفي بأي حال من الأحوال أن تستمر تلك الأسرة متوسطة الحال على نهجها السابق "فالحياة تبدو كالحة الوجه".

وتبدأ الأسرة في اتخاذ بعض الإجراءات التي تقلل بها من الإنفاق العام، وكان من هذه الإجراءات التي تعيننا في هذا المجال، حرمان الولدين من المصروف المدرسي مع ما يترتب عليه ذلك من بذر لمشاعر الدونية لديهما عندما لا يجدان أنهما يمكن أن يمارسا صور النشاط المدرسي المعروفة وغيرها من ألوان النشاط الشبابي على وجه العموم، فها هي الأم تقول لولديها إعلماً لهما بالقرارات الاقتصادية الجديدة:

- لن يكون في الإمكان إعطاؤكما أي مصروف يومي، ومن حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة على وجوه تافهة.

والأم تعبر بهذا عن وجهة نظر خاطئة تشيع بالفعل عند كثير من الآباء والأمهات عن هذه الأنشطة إلى الدرجة التي كانوا ينظرون فيها إلى التلميذ المشترك في صورها بأنه طالب فاشل، بينما لهذه الأنشطة دور خطير في (التربية المتكاملة) لشخصية المواطن، فالبرامج المدرسية تركز عادة على (حشو) العقول بالحقائق والمعلومات دون عناية تذكر بتنمية الجوانب الاجتماعية والجسمية

والوجدانية، ومن هنا تكون ممارسة الأنشطة المدرسية فرصة ذهبية كنوع من (التربية التعويضية).

وعندما يعبر أحد الولدين (حسين) عن مشاعر الأسى لهذا القرار العسير ، يجد أمه تستمر قائلة :

- كذلك أحنركما من ترك نصيبكما من الغذاء المدرسي كما تفعلان عادة.
وعندما يتساءل حسين:

- لماذا لا نأكل في بيتنا كعادتنا؟

لا تشفع له الأم هذا التساؤل، وإن كان قد ساقه برقة ملحوظة، فترد بامتعاض:

- من يدري فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذي تحبه!!

ويصور نجيب محفوظ شعور الأخوين بعد الوفاة عندما يدخل المدرسة فيقول: "شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة.. لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شيء وهيئات أن تخفى خافية عن أعين التلاميذ.. وكانا يعانيان من هذا شعوراً مؤلماً وإن تباينت درجة ألمهما".

ويبلغ الشعور بالمرارة حده الأقصى عندما يحدثه أحد التلاميذ بضرورة حسن اختيار الوصي عليهما، وإن الأمر يتوقف على نوع التركة، فإذا كانت أراضي زراعية، تيسرت سبل الخداع، وإذا كانت عقاراً، ضاقت السبل على الوصي بعض الشيء!!

وكذلك يضطر حسين أن يقول لرئيس فريق القدم:

- أرجو أن تعفيني من الاشتراك في نادي شبرا.

وعندما يتعللا بوفاة والديهما، وينكر الرجل أن يكون هذا سبباً داعياً لترك النادي، لا يجد حسين جرأة في أن يكشف عن السبب الحقيقي فيقول:

- إن الحداد يقضي بهذا.

ويضطر الطالبان إلى قبول عرض عليهما بإعطاء دروس خصوصية في اللغة الإنجليزية والحساب لابن جارهما وهو فريد أفندي (سالم) الطالب بالسنة

الثالثة الابتدائية، وإن كانا قد شعرا بأن هذا الجار الكريم لم يفعل ذلك إلا رغبة في مد يد المساعدة إلى الأسرة دون أن يجرح كبرياءها.

ويحصل حسين على (البكالوريا) - الثانوية العامة- ومن الطبيعي أن يتطلع الشاب إلى استكمال دراسته في الجامعة، ولكن: هل تستطيع إمكانيات الأسرة المالية أن تواصل الإنفاق عليه في الجامعة مع حسنين في الثانوي؟ كان ذلك عسيراً للغاية، والأم تترك ذلك وتترك أنه قد أصبح من المحتم أن يكتفي ابنها بما حصل عليه من تعليم ليلتحق بإحدى الوظائف حتى يمكن أن يعين الأسرة على هذه الحياة الشاقة خاصة وقد بدأ ما في يديها ينفد، ولكنها كأم تشعر بمقدار صعوبة قبول هذا بالنسبة لطموحات ابنها فتخجل أن تجبره على ذلك، بيد أن حسنين يجد من أثنائته جرأة تدفعه إلى أن يوازن بين أن يعمل حسين فوراً وبين أن تنتظر الأسرة عاماً آخر حتى تنتظره هو:

- الحقيقة أنني أود أن أرحم أسرتنا مما تعانيه، فضلاً عن هذا وذاك، فإذا كان على أحدنا أن يضحي بذاته - إذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية - فأنت الذي يجب أن تبذل هذه التضحية .. لا لأنني أريد لك ما لا أريد لنفسي، ولكن لأن أسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن، على حين يجب أن تنتظر عاماً آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا.

ورغم ما يعلمه حسين في منطق أخيه من خبث وزيف، إلا أنه يعلن أنه يوافق على عدم إكمال تعليمه حتى يستطيع معاونة الأسرة على استمرار الحياة، كما أن في ذلك انسجاماً مع إحدى القيم الأساسية في الأسرة المصرية في ذلك الوقت من حيث إلقاء المسؤولية الأكبر على عاتق الأخ الأكبر باعتبار أنه (خليفة) الأب، والأبوة تقوم على التضحية بالنفس في سبيل الأبناء.

وهكذا نستطيع أن نقول أن تكافؤ الفرص التعليمية لا يقتصر فقط على مجرد تقديم الخدمة التعليمية للجميع داخل المدرسة، وإنما يمتد ليعني أيضاً تكافؤ الفرص الاجتماعية والاقتصادية خارج المدرسة، وإلا أصبحت هذه الفرص التعليمية فارغة المضمون.

- ينبغي أن يضحى أحدنا ويرضى بالتوظيف الآن، وهذا من واجبي أنا.. أنا أخوه الأكبر، وأنا صاحب البكالوريا. إنني أدرك الحال على حقيقتها، وأعلم أنه من القسوة الشريرة أن أفكر في تكملة تعليمي، فلأرضى بحظي، ولندع الله جميعاً أن يوقفنا إلى ما نريد !!

ويوقفنا نجيب محفوظ على جانب آخر بهذا الصدد، فالكليات العسكرية كانت تطلب من الطالب مصاريف ضخمة يعجز عن الوفاء بها فقراء الطلاب إن لم يكن أوساطهم أيضاً، فضلاً عن اشتراط مستوى اقتصادي واجتماعي مرتفع، والنتيجة هي حرمان الجمهرة الكبرى منهم من هذا اللون من التعليم وقصره على الطبقات القادرة، وبهذا تجتمع مع (القوة)، (القدرة الاقتصادية) ويصبح أصحاب الشأن في المناصب العسكرية من أبناء الإقطاعيين والرأسماليين فتزداد المسطرة وتشتد القبضة ويظل أبناء الفقراء تحت هذه الوطأة يئنون ويصرخون.

فعندما يصل حسنين هو الآخر إلى البكالوريا ويفكر في الالتحاق بالحربية، يجد أن مصروفاتها تبلغ سبعاً وثلاثين جنيهاً، وبمقاييس الفترة التي جرت فيها أحداث هذه الرواية، فإنه مبلغ ضخم ورهيب. ولما كانت المدرسة تخصص بعض المحال المجانية من قبيل (الإحسان)، فقد فكر الشاب في (واسطة)، وإلا فلا يمكن لمثله أن يحصل عليها:

- ليس الأمل في المجانية معدوماً أو على الأقل في نصف المصروفات، ولنا في أحمد بك يسري شفيح عظيم القدر في هذه الحال..

ورغم أنه قال ذلك، فإن الأم تظل على قلقها وعدم اقتناعها فتمتعنا:

- وإذا لم يتيسر إعفاؤك من المصروفات؟

ويشعر بالحرَج، ولكنه يؤكد أنه لو حدث هذا، فإنه يمكن الاعتماد على أخيه حسن الذي فشل في التعليم ويحصل على المال بطرقه الخاصة غير الشرعية:

- سأحتاج بادئ الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات، وفي مرجوي أن أنالها من أخي حسن . لا أظنه يتخلى عني كما لم يتخلى عني حسين.. أما الباقي

فليس بمتعذر توفيره إذا نزلت لي عن نقود حسين ، بالإضافة إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (أخته حيث كانت تعمل خياطة) .. ولا أظنها تبخل علي..

وعندما يذهب حسنين إلى أخيه حسن ليعينه ببعض المال، في شارع كلوت بك، يشعر بالكثير من الألم حيث يجده يعيش من معاشرة النساء العاهرات والبالطجة، ويجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب ما لا يعلم من أين يأتي: "ولعن هذه الحاجة من أعماق قلبه في يأس وقهر.. وأمرٌ من هذا كله أن حاجته هذه لم تنته.. فسيعود إليه بعد أيام ويمد إليه يده سائلاً .. هل يستطيع أن يغضب لكرامته حقاً؟ هل يستطيع أن يرد هذه الجنيهات إلى أخيه ويصيح في وجهه : إنني لا أرضى عن حياتك القنرة؟ إنه يعلم أنه يهذي هذياناً سخيلاً .. سيعود إليه راضياً ويأخذ النقود إذا تفضل بها - شاكراً ممتناً، ولو علم أنه ذاهب ليسرقها، ما يسعه إلا أن يدعو له بالتوفيق!!

وتحدث ظروف مشابهة إلى حد ما في رواية (خان الخليفي)، فأحمد عاكف يحصل على البكالوريا عام ١٩٢١ ويضطر إلى الانقطاع عن الدراسة نظراً لإحالة والده على المعاش وهو يشارف الأربعين لظروف مصلحية. والتحق أحمد بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربي أخوين صغيرين مات أحدهما، وتوظف الثاني في بنك مصر. ولعل ما يدعو إلى الأسى والحسرة حقاً، أن يكون الانقطاع عن الدراسة، لا لفشل أو تكاسل، فأحمد كان طالباً مجداً طموحاً واسع الآمال وكم داعبت الآماني والأحلام خياله، فإذا درس القانون، فقد ينتهي الأمر به إلى ما انتهى به سعد زغلول، ولكن .. أواه من هذا الواقع المر الأليم: "وطوحت به الأحلام والآماني، فلما أجبِرَّ على الانقطاع عن الدراسة، أصابت آماله طعنة قاتلة دامية، ترنح من هولها، واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه فامتألت نفسه مرارة وكمداً".

ولمثل هذه المشاعر بطبيعة الحال أثارها المؤسسة في التكوين الشخصي وعلى علاقات الشخص إلى الدرجة التي قد ترجع إليها هي في تفسير كثير من التصرفات التي تصدر عنه بعد ذلك، فسوف يظل معتقداً أنه ظلم وأضطهد، وأنه

طاقة هائلة وإمكانات ممتازة، ولكن الحظ العاثر هو الذي ضيعها أو على أقل تقدير، لم يعرف بعد كيف يستغلها فقبرها. بل أن هذا ليندفعه إلى أن يكرر أمام سامعيه أنه (لو) أتم دراسته، لأصبح الآن كذا وكذا!!

- إنني أدنو الآن من الأربعين، فتصور يا صاح لو أن الحياة سارت كما ينبغي، فلم يعترض مجراها الحظ العاثر، أما كنت محامياً قديماً يعتر بضممة في القضاء تناهز العشرين عاماً؟ وماذا كان ينتظر من رجل في مثل جدي في غضون عشرين عاماً؟

ومن المحتمل جداً بالنسبة لهؤلاء الذين حالت بينهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة وبين استكمال التعليم أن يتحولوا إلى طاقة حقد وضغينة تكره الناجحين، وتبغض المستمرين على طريق التعليم إلى آخر مده.

وهو إذ يتأمل بالذات في هذه الفترة من تاريخ مصر الحديث، يزداد تحسراً وألماً، فالترقى لم يكن وفقاً لمعايير السن والخبرة العملية، وإنما وفقاً للجاه الموروث!!، فتجد شباناً يقفزون إلى كراسي الوزارة. وكان صاحبنا -غالباً- ما يتبع زملاءه ممن تابعوا الدراسة بحكم إمكاناتهم الاقتصادية والاجتماعية، فتمكنوا بالتالي من احتلال مراكز مرموقة :

- "أتعرفون فلاناً الذي يقولون عنه ويعيدون؟ زاملني عهد الدراسة فصلاً فصلاً، وكان تلميذاً خاملاً لا يستطيع أن يدركني يوماً ما!!"، ويعلق على وضع آخر فيقول:

- يا لطف الله! .. وكيل وزارة؟! .. ذاك الغلام القنر الذي لم يكن يعي شيئاً مما يلقى عليه هي الدنيا!!

وهكذا تتم تعليقاته وأفكاره عن عواطف قد تلوثت بالتمرد والسخط والكبرياء المجروح حتى لقد أصبح يعيش في هم وعذاب مقيمين.

بيد أنه يحاول أن يعوض ما فات، فإذا كان قد ترك التعليم النظامي والتحق بعمل ما، فقد كان بإمكانه أن يواصل الدراسة (حراً) بعد الانتهاء من العمل، وبالفعل أخذ يقتني كتب القانون وينقطع للمذاكرة. وأخذ يذاكر لمدة عام

كامل، إلا أنه رسب في الامتحان، فيشعر بأنه قد أصيب في الصميم، ولكنه يعلل هذا للناس بأنه قد أصيب بمرض عاقه عن التحصيل والتعلم.

ويؤدي هذا الفشل إلى إضافة مشاعر وأفكار سوداوية أخرى، إذ تجعله يصب لعنته على الامتحانات وعلى الشهادات، وكيف أنها علامات كاذبة وآيات زائفة لا يجب أن نركن إليها في تقييم الأشخاص، لكنه من حسن الحظ يخرج من هذا بنهم كبير لاقتناء الكتب وقراءة عدد لا بأس به منها حتى يعوض ما شعر به من نقص في تعليمه.

ويقع أحمد عاكف في هوى صغرى بنات أرملة من صديقات والدته، وتشجع الأمان ذلك الحب وتدعوانهما بالعروسين، لكن كارثة إحالة والده إلى المعاش عقب حصوله على البكالوريا أصبح على الفتاة -إذا أرادت الزواج به- أن تنتظر عشرة سنوات إلى أن ينتهي من تربية أخيه حتى كفر بالحب وبالمراة، بل وبالنديا كلها.

وعندما ينتهي من تعليم أخوه رشدي فيحصل على بكالوريوس التجارة، ويلتحق بوظيفة في بنك مصر، شعر بأنه يمكن الآن أن يستمتع بحياته كما كان يحب ويهوى، فيتقدم إلى ابنة تاجر يقيم في غمرة، فإذا به يواجه بالحقيقة المؤلمة.. لقد طال به الزمن الآن وأصبح كبيراً في السن لا يستطيع أن يقوم بواجباته، كما أنه -لتوظيفه بالبكالوريا فقط- لا يملك إلا مرتباً صغيراً!!

ويصور لنا نجيب محفوظ الآثار النفسية التي تترتب على هذا الفشل المتوالي في الحب والزواج فيقول: "وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل نقیصة، فهن حيوانات مأكرة، ومكرهن شئ قوامه الطمع والكذب والتفاهة .. إنهن أجساد بلا روح، إنهن مصدر آلام الإنسان وويلات البشرية، وما أخذهن بظاهر العلم والتقن إلا خدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن في شباكهن الضحايا، ولولا شهوة خبيثة أقيت في غرائزنا، ما ظفرن برجاء ولا مودة .. وهن .. وهن .. إلخ".

وفي (القاهرة الجديدة) نجد نموذجاً آخر.. محبوب عبد الدايم، الطالب بليسمانس الآداب، والده كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقطار، يعمل فيها منذ خمسة

وعشرين عاماً بمرتب لا يتعدى ثمانية جنيهاً، يرسل له منها ثلاثة جنيهاً عليه أن يسكن منها ويأكل ويشرب ويلبس ويدفع المصروفات ويركب المواصلات، ويشترى الكتب اللازمة للدراسة. وهو فضلاً عن ذلك شاب مثل غيره يشعر في أعماقه برغبات جامعة وطموح جشع فيرمق ملاذ القاهرة من بعيد ويسترق السمع إلى أخبارها منهم بنهم وألم!! ثم يجيئه خطاب مفاجئ يخبره بأن والده مريض وملازم للفراش، فتتوارد الخواطر والظنون على ذهنه.. ما العمل إذا انقطع أبوه عن العمل؟ إن الأب لن يحصل على مكافأة أشهر معدودات.

ويذهب محبوب إلى والده فيجده مريضاً بالشلل الجزئي، ويلقي إليه الطبيب بالمفاجأة المرة وهي أن والده لا يستطيع أن يعود إلى عمله بعد ذلك، ولذلك آثار ونتائج لا بد من الترتيب لها فيسأل الأب ابنه:

- أصغ يا بني. لن أعود إلى عملي بالشركة. هذه هي الحقيقة، فماذا ترى؟ ثم يبتدئه الرجل قاتلاً:

- ربما منحتني الشركة مكافأة صغيرة، ستفد بلا شك قبل مضي أشهر قلائل، بل من المؤكد أنه لن يبقى منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر.

ثم يلقي إليه بالمهم، وهو ضرورة أن يترك الدراسة ويلتحق بعمل ما!! فيقول محبوب بتوسل وعيناه تقطر المأ وقنوطاً:

- الامتحان يا أبي على الأبواب، نحن في يناير وهو في مايو، أما إذا وظفت الآن، فسأعمل كحامل البكالوريا، وفي ذلك ضياع لمستقبل عظيم!!

وعندما يرد عليه الأب بأنه يعلم ذلك، ولكن ما الحيلة والحال كما يعلم، يقول الشاب بتوسل حار:

- أربعة أشهر فقط، بيني وبين ثمرة كد خمسة عشر عاماً. أمهلني قليلاً يا أبتي، سنكفينا المكافأة حتى أنهض على قدمي. لن نجوع ولن نتعرض للفضيحة بإن شاء الله..

وعندئذ يسأله الأب:

- هل تستطيع أن تعيش بجنيته واحد في الشهر؟

بالأمس كان يعيش في ضيق وهو يحصل على ثلاثة جنيهات، فهل سيعيش الآن بجنيه واحد؟ ولكن لا حيلة له في هذا، فليكن..

صورة مأساوية حقاً لمجموعة من الضغوط لا سبيل للإنسان في مقاومتها، أن يكون أو لا يكون .. أن يتضور جوعاً ويتعلم، أو يترك التعليم وهو على بعد أمتار من الهدف الذي ظل يسعى إليه عبر سنوات طويلة ليحصل على لقمة العيش.. مجرد الاحتياجات الأساسية.. صحيح أنه اختار الحل الأول، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ إننا عندما نكمل قراءة الرواية ونرى ما صار إليه حال محبوب نشعر نحوه بالاشمزاز والقرف، لكننا بطبيعة الحال عندما نمنع التأمل في مثل هذه الظروف، نتجه بالاتهام إليها لا إلى هذا الإنسان الذي لا يعدو أن يكون ضحية.

وينشط في الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة وضيعة، فيجد واحدة على سطح إحدى العمارات بأربعين قرشاً في الشهر، فلا يجد بيده إلا ستين قرشاً للشهر كله، أي أن عليه أن يعيش بقرشين في اليوم .. للغذاء والغاز والحلاقة والغسل .. أما فنجان القهوة، فهو يصبح من الكماليات المحرمة : "الحياة الجديدة شاقة ومتعبة، فشبوح الجوع يلاحقه ليلاً ونهاراً، وهو لا يستطيع أن يتفرغ تماماً للدراسة حتى يمكن له القيام بالأعمال الضرورية مثل الكنس والغسيل وما إلى ذلك.. ووصل به سوء الحال انه لم يدرك كيف يقتني بعض الحاجات التي قد لا يدرك قيمتها بعض الناس ك شراء قطعة صابون أو غاز المصباح أو أوراق تلزمه في دراسته مما اضطره إلى أن يقتصر على وجبة طعام واحدة في بعض الأيام، حتى ساءت صحته كثيراً وأخذ به الهزال مبلغاً كبيراً، .. إنهم يقولون العقل السليم في الجسم السليم، فمن أين يتأتى له هذا الجسم السليم في مثل هذه الظروف؟ وأين له بالذهن الصافي اللازم لعمليات الاستذكار والتفكير!؟

ثم نقف على صورة أخرى لما يعانيه فقراء الطلاب من مشقة الحصول على الكتب الدراسية، فالكلية تطالبه بكتاب في اللاتينية، وهو لا يستطيع ذلك حيث

أن ثمن الكتاب خمسة وعشرون قرشاً، فيضطر إلى المرور بمواقف تريد إذلاله
وسخطة وتبرمه..

صحيح أن العام الدراسي قد مر على أية حال وحصل على اليسانس،
ولكن ماذا ننتظر من مثل هذه الشخصية التي طحنها الجوع وأمات أحسيسها
البؤس والشقاء واعتصرتها الحاجة والفاقة؟ قليلون هم الذين يمرون بمثل هذه
الظروف وهم أشد صلابة وأقوى عزيمة على الجهاد والكفاح، وأكثر شعوراً بالآلام
الفقراء ومشكلات الناس فيزدادون التصاقاً بالجمهير وحماسة للعمل من أجلهم،
ولكن الكثيرين يخرجون من هذه الظروف - إذا قدر لهم أن يمروا بها بسلام -
وهم أقرب إلى الحقد على المجتمع وكفراً بالمبادئ والقيم ورغبة عارمة في إشباع
الذات الذاتية التي طال حرمانها، ونهماً قاتلاً إلى الانتقام من المجتمع في كل
صورة يقابلونها .. في التلميذ، في الفصل، إذا كان معلماً .. في الجمهور إذا كان
موظفاً حكومياً، ويصبح الغش والخداع والتدليس والرشوة أساليب طبيعية ضرورية
لضرورة التعامل مع الناس في مثل هذا المجتمع، والمحصلة النهائية.. داء وييل
يمتص دماء الشعب ويزيد المجتمع فساداً بطريقة أكثر خطورة مما لو كان جاهلاً:
"ما الذي تمنحه الكرامة .. الكبرياء؟ تباً له ألم يكفر بكل شيء؟ ألم
يستهزئ بالقيم؟ فما باله يأبه للكرامة والكبرياء؟!!"

رؤية أدبية لتاريخ العلم*

من المقولات المأثورة المألوفة لدى دارسي الفلسفة أن دراسة تاريخها هو نفسه دراستها، ذلك أن المعرفة الفلسفية لم تكن معرفة تراكمية، يبني فيها اللاحق على ما وصل إليه السابق، وإنما ظلت كثير من القضايا التي طرقت منذ قرون طويلة، تطرق أيضاً حتى الآن.

وما هكذا دراسة العلم، فالمعرفة العلمية معرفة تراكمية، يبدأ فيها اللاحق من حيث انتهى السابق، ومن ثم تصبح دراسة تاريخ العلم شيئاً آخر غير دراسة العلم نفسه.

لكن، هل يعني هذا "ثانوية" تاريخ العلم؟

كلا ..

فتاريخ العلم يكشف لنا عن أن المعرفة العلمية، مثلها مثل الكائن الحي، في النمو والتطور، وإن كانت تتميز عن هذا الكائن الحي بأن عمرها ليس محدوداً بفترة زمنية قصيرة تموت بعدها، وإنما عمر المعرفة العلمية يمتد بامتداد حياة الإنسان في هذا الكون.

وتجميع نماذج من جهود العلماء في صورة "بانورامية" واحدة من شأنه أن يكشف عن عبقرية هذا الإنسان التي مكنته من أن يجوب آفاق هذا الكون باحثاً منقياً مجدداً، يقتحم الصعاب، ويقهر أعتى المشكلات، مسخراً كل ما عده إلى ما فيه دفع للتقدم ورفاهية البشرية، محققاً بذلك مهمة "الاستخلاف": "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم ما لا تعلمون". البقرة آية (٣٠).

نعم، فإله قد أودع هذا الإنسان من القدرات الإبداعية ما يجعله سيد المخلوقات حقاً، بما يكشف من معرفة علمية.

* نُشر بملحق الأهرام في ١٩٩٧/٩/٥

وتاريخ العلم يكشف كذلك عن أصوله الاجتماعية، فالنظريات العلمية ليست مجرد كشف عن قوانين، وإنما تجيء سداً لحاجات بشرية، وعلى يد "إنسان"، له ظروفه، وتكوينه، ويعيش مجتمعاً بعينه، وثقافة لها توجهاتها ومعالمها، لكن كل هذا غالباً ما لا يظهر أمام دارس العلم، فتجئ دراسة تاريخه لتكشف عن "السياقات الاجتماعية" التي واكبت الكشوف العلمية.

من هنا تبرز أهمية وقيمة هذا العمل العلمي الضخم، غير المسبوق (قطوف من سير العلماء) للدكتور صبري الدمرداش، فهو عمل موسوعي، وصل إلى ١٥٧٠ صفحة، في مجلدين كبيرين نشرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في صورة فاخرة، تتسق مع روعة محتواه.

والحق أنك إذ تجوس بين صفحات هذه الموسوعة الكبيرة، قد تظن لأول وهلة أنك أمام أديب من طراز ممتاز يؤرخ للعلم، لكنك إذ تقرأ عن دقائق التطور العلمي، تشعر بأنك، بالضرورة أمام "عالم" يعرف الحقائق والذخائر والأسرار العلمية ويحيط بها إحاطة خبير، من الدرجة الأولى. إنه من ذلك الطراز الذي كنا نشهده من رواد نهضتنا الحديثة، مثل المغفور له الدكتور أحمد زكي، الأديب العالم، والعالم الأديب، في وحدة كيميائية تتخلل فيها روح الأديب في شرايين العلم، وتبسط فيها روح العلم في أساليب التعبير الأديبي.

واقراً معي في مقدمة المؤلف لعمله الكبير، تجد هذا الحس الأديبي الرفيع الذي يشع بشمسه الربيعية فيذيب ثلوج الكلمات ليسقي بها معان وألفاظ تتحول أمامك إلى بستان رائع المنظر، فهو يشرح كيف فكر في موضوع الموسوعة، فيقول (ص ٢٧):

"الفكرة إن لم تكن عدماً، وإنما كان لها في النفس بذور، وإن شئت جنور، وفي الفكر إرهاصات وبدايات. ونمت الفكرة، ولم يكن نموها طفرة، وإنما كان لابد لها من ماء وزاد: ماؤها السهر حتى السحر، وزادها إعمال الفكر حتى مطلع الفجر، في ليالٍ قسا بردها، وأخر قاطح حرها، وكان القاسم بينهما ييوع عن طيب ما حوى، ويمد خاطر بما وعى. كتاب يفصح عن مكوناته ويكشف عن خبي محتوياته".

وانظر إلى المؤلف كيف يقدم لك الحديث عن العالم الشهير "جاليليو" (١٥٦٤-١٦٤٢م). إنه يستغرق صفحتين متحدثاً عن "بريخت" الذي كتب نصوصاً مسرحية ثلاثة مختلفة عن حياة جاليليو في مسرحيته المعروفة "حياة جاليليو"، وظروف كل نص طارحاً السؤال: أي هذه النصوص الثلاثة أقرب إلى الحقيقة التاريخية؟

مؤلف ساحر حقاً (يسرق) انتباه القارئ الذي يظن أنه يشاهد (حدوتة) مسلية، فإذا به ينتهي وقد ألم بمجموعة من التطورات والتبدلات العلمية التي عادة ما يشيخ الكثيرون عن متابعتها، لما تتسم به من جفاف، خصوصاً إذا كانوا من غير المتخصصين.

والمسألة ليست مجرد "أسلوب" أدبي رفيع المستوى، وإنما هو يسوق الكثير من قضاياها في صورة "قصة"، يقف فيها عند بعض التفاصيل الصغيرة التي إذا انتزعت من سياقها، بدت عديمة المعنى، فإذا بها هنا، عندما ينسج المؤلف من عشرات منها نسيجاً واحداً، تظهر لك ثوباً بديع المنظر، محمل بالمعاني البعيدة، والأفكار العميقة.

ومؤلفنا ليس مجرد "عالم" و"أديب"، وإنما هو كذلك "صحفي" بارع، فالأسلوب الصحفي يتسم عادة بخفة الدم، والرشاقة، تقرأه فكأنك تتابع حركة "غزال" يتهدى رقة ودلالاً، فهو -مثلاً- عندما يتحدث عن "أوبنهايمر" (١٩٠٥-١٩٦٣م) أبو القنبلة الذرية (ص ٤١٣) يسوق عناوين فرعية على النحو التالي:

أنت المسئول يا ترومان - الصبي الصغير يُرَوِّع العالم - النماتان والديناصورات النووية - جاء اليوم الموعود - صحوة ضمير - محاكمة بأثر رجعي - جاليليو "يُبعث من جديد" .. وهكذا.

ومؤلفنا يفاجئنا بكم غير قليل من (الطرائف) ليبرهن لنا أن تاريخ العلم مسرحية تمتلئ بالمشاهد التي تستأثر بالألباب والمفارقات التي قد تثير الابتسام حيناً والضحك حيناً آخر.. فكلنا -تقريباً- قد سمع وعرف "جوتة"، أديب ألمانيا الكبير صاحب (فاوست) و(الأم فرتز)، لكن قلّ من يعلم أن جوتة كانت له بحوث ودراسات في علم الفيزياء، تبلورت في كتاب له بعنوان (نظرية الألوان).

إن المفاجأة ليست فقط في هذا، وإنما فيما كتبه جوتة نفسه عن نفسه، إذ كتب "أما فيما يتعلق بما أنجزته كشاعر فإنني لا أخخر به على الإطلاق .. ثمة شعراء ممتازون عاشوا معي في نفس العصر، وثمة شعراء أكثر امتيازاً، عاشوا قبلي، وثمة آخرون سيأتون بعدي، ولكن في القرن الذي أعيش فيه أجد أنني الإنسان الوحيد الذي يعرف الحقيقة في علم الألوان وعالمها، لذا تجنني أحس بفخرو غير قليل" ص ١٣٧

ومما يسجل للمؤلف حقاً هو ذلك الاحتفاء الواضح بجهود علماء المسلمين على طريق تطوير المعرفة العلمية، إذ لا يستطيع الإنسان عندما ينتهي من قراءة ما كتب عنهم إلا ويجد نفسه وقد امتلأ بآيات الفخر والتقدير، وفي نفس الوقت يرتفع السؤال: هكذا كان من الأجداد علماء أفاضاً بالأمس، فماذا قدمنا نحن الآن؟ وماذا سوف نقدم غداً؟

ولا يفوتني أن أشير إلى أن هذا العمل العلمي الكبير قد رصعت صدره جوهرة علمية هي ذلك التقديم المتعمق للأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي عميد علوم عين شمس الأسبق، وعضو مجمع اللغة العربية.

وكم أشعر بقدر غير قليل من الغيرة والفخر والتقدير، أن يصدر هذا العمل لعالم مصري، خارج مصر. الغيرة، لأنني تمنيت أن يصدر من مصر. ومن المحزن أن المؤلف قد دار بمخطوطة الموسوعة على نور نشر كبرى فاعتزت، ومن هنا لا بد أن نوجه التقدير والتحية إلى مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وخاصة الدكتور عبد الرحمن الأحمد المسئول عن النشر فيها، فقد تحملوا بذلك عبئاً ضخماً ولكنه في الوقت نفسه يحمل لهم، في كل مكان توجد فيه الموسوعة وتقرأ، آيات الامتتان والعرفان بالجميل.

هل جنى أحمد أمين على الأدب العربي؟

عندما كنت أستاذاً زائراً بجامعة الكويت في عام ١٩٩٥، دار بين وبين عدد من الزملاء هناك نقاش حول تلك الظاهرة المؤسفة التي يعاني منها الفكر التربوي على مستوى الوطن العربي، ألا وهي خلوه من تلك المعارك العلمية النقدية التي تنثري الفكر وتذيعه وتزيد تفعيله في حياتنا التعليمية، على غرار ما كان يحدث بين كبار الأدباء "أمثال طه حسين والمنفلوطي والرافعي والعقاد وزكي مبارك وغيرهم".

وفي اليوم التالي فوجئت بصديق وزميل كويتي (د. صالح الراشد) يهديني كتاباً له صلة وثيقة بقضية الحوار السابق، ولفت نظري عنوان الكتاب: (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) للدكتور زكي مبارك. وعلى الرغم من أن الكتاب ينشر للمرة الثانية ويحمل تاريخ عام ١٩٩١، إلا أنني أعتزف بأنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها الكتاب، والطبعة بيرونية.

ففي التاسع من شهر مايو عام ١٩٣٩، نشر أحمد أمين في مجلة الثقافة التي كان يرأس تحريرها، حيث كانت قد بدأت في الظهور في مستهل علم ١٩٣٩، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، مقالاً بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي)، ثم أتبعها بأخرى، تحمل نفس العنوان في الثالث والعشرين من نفس الشهر (مايو)، فإذا بزكي مبارك ينشر رأياً مضاداً في مقال له بمجلة الرسالة عن (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) وذلك في الثاني عشر من يونية علم ١٩٣٩، فيستأنف أحمد أمين مقالاته، ويوالي زكي مبارك نقده، وبلغت مقالات أحمد أمين خمس مقالات أما مقالات زكي مبارك فبلغت (٢٢) مقالاً.

وقد تفضلت السيدة / كريمة زكي مبارك بإعداد الكتاب، في طبعته الثانية جامعاً مقالات زكي مبارك، مع مقدمة للأديب العربي حسين رشيد خريس.

مجلة سطور، يونية ١٩٩٨ ونشرت بعنوان (أدب الروح وأدب المعدة)

وإذا كانت مقالات زكي مبارك تشكك في القيمة الأدبية لأحمد أمين، فمن المفضل أن نتوقف قليلاً أمام شهادات ثلاث، أولها لأحمد أمين نفسه، ثم طه حسين، فحسين ابن أحمد أمين.

ففي كتابه عن سيرته الذاتية (حياتي، طبعة بيروت ١٩٦٩) يشير أحمد أمين إلى انتقاله من العمل في سلك القضاء إلى التدريس سنة ١٩٢٦ بالجامعة المصرية القديمة بناء على ترشيح طه حسين، فهذا التغيير جعله يطلق كتب الفقه ويعود إلى كتب اللغة والأدب والنحو، حيث درس في أول سنة درسين: درساً قرأ فيه الكامل للمبرد، ودرساً قرأ فيه البلاغة، ثم يعقب على هذا بقوله "ومن قديم لم تعجبني البلاغة العربية، فبحثت في المكتبة الإنجليزية عن كتب في البلاغة فأنا أقرأها وأقارن بينها وبين ما كتبت في البلاغة العربية وأختار خيرهما وأوفق بين مصطلحاتهما" (ص ٢٠٠)

وفي مواضع مختلفة من سيرته الذاتية يستطيع القارئ أن يلمس مدى الإعجاب الشديد من قبل أحمد أمين بكتابات المستشرقين والكتابات الغربية على وجه العموم وخاصة منذ أن بدأ يعرف اللغة الإنجليزية (بعد سنة الخامسة والعشرين)، مما كان له أثره في منهجه في الكتابة، ذلك المنهج الذي لا يضيف قداسة على الموروث الثقافي، بل يتناوله بالنظر النقدي، يقول "ومن مخالفتي في الجامعة لبعض المستشرقين أتعرف منهم ما يعملون، ومن قليل من الأساتذة المصريين يتبعون خطتهم ويسيروا على نهجهم، لذلك بدأت في هذه السنة أجرب حظي في البحث" (ص ٢٠٢)

ولكي نتفهم عدم رضا بعض الأدباء عن نهج أحمد أمين، فلنسمع إلى ما قاله عن نزعه في الكتابة التي لم تكن مألوفة في الثلاثينيات. ففي سنة ١٩٣٣ فكر أحمد حسن الزيات في أن يشترك مع بعض أصدقائه من لجنة التأليف في إخراج مجلة الرسالة، وكان أحمد أمين أحدهم، فكان يكتب في كل أسبوع -تقريباً- مقالة "وكان هذا عملاً أدبياً يلذ نفسي بجانب بحثي العلمي، فأنا كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرره، واضطرتني في ذلك إلى قراءة كثير من الكتب الإنجليزية

استعرض فيها ما يكتب وكيف يكتب... وأكثر ما اتجهت في هذه المقالات إلى نوع من الأدب تغلب عليه الصبغة الاجتماعية والنزعة الإصلاحية، فهذا أقرب أنواع الأدب إلى نفسي وأصدقها في التعبير عني" (ص ٢٥٦-٢٥٧).

وهذا هو نفس النهج الذي كان طه حسين يبشر به ويدعو له، فهو يكتب مقدماً لأول جزء من موسوعة أحمد أمين الشهيرة عن تطور الحياة العقلية في العصور الإسلامية، (فجر الإسلام):

"إن الأدب العربي كغيره من الآداب، بل كغيره من كل ما يتصل بالحياة الإنسانية، بل كغيره من كل ما يصلح موضوعاً للدرس في هذا الكون، شئ لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه منقطع الصلة عما حوله، وإنما هو جزء من كل، وليس إلى معرفة الجزء سبيل إذا لم يعرف الكل، أو إذا لم يعرف ما يحيط به من الأجزاء الأخرى على أقل تقدير، وإن فلان ينبغي أن نقف جهودنا على درس الشعر والنثر وحدهما، وتعرف ما لهما من قيمة فنية، وإنما ينبغي أن يدرس الشعر والنثر من حيث هما مرآة لحياة الأمة العربية في طور من أطوارها، وإن فلا بد من أن تعرف الأمة العربية في هذا الطور معرفة واسعة عميقة واضحة، تعرف في حياتها الخاصة بينها وبين نفسها، وتعرف في حياتها الخارجية بينها وبين الأمم التي اتصلت بها" (ص/ح)

ثم يشهد طه حسين بأن أحمد أمين "قد نهض بهذا العبء من درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمي الحي بعبء من الأعباء"، وهو كذلك يشهد بأن أحمد أمين "قد استطاع أن يكشف لنا ببحثه هذا عن رجل لم تكن نقدر أن نراه، فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب، جد حتى تتقف بالتقافة الأجنبية الأوروبية، ولكننا لم تكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق خط وأقربه إلى الإبتقان والكمال، فأحسن العلم بمنهجها والاستعمال لهذه المناهج، كما أحسن العلم بمنهج القدماء في الفقه وعلوم الدين والاستعمال لهذه المناهج" (ص/ط)

وإذا كانت المقدمات التي يكتبها كبار المفكرين، لكتب غيرهم، تتسم بقدر غير قليل من صور المجاملة والمبالغة في القول، إلا أننا لا نظن أن هذا مما ينطبق على كلمات طه حسين التي قدم بها فجر الإسلام، فوصف أحمد أمين بالأديب العالم، بمعنى الأديب الذي يستند إلى مناهج البحث العلمي، وخاصة الغربية، نلمسه في كثير من صفحات سيرة أحمد أمين الذاتية. وتشير لنا سطور طه حسين الأخيرة إلى سر إعجابه بالعمل الذي قدمه أحمد أمين إلى القراء بعنوان (فجر الإسلام)، هذا السر يكمن في اصطناع أحمد أمين لمناهج الثقافة الغربية في بحث الأدب العربي.

فماذا يقول الكاتب الكبير (حسين) عن أبيه؟ في كتابه الذي صدر في سلسلة كتاب الهلال (في بيت أحمد أمين)، العدد (٤١٥) الصادر في يوليو ١٩٨٥، كتب يقول: "إن هذا الذي نسميه بضعف الهوى أو غلبة العقل عند أحمد أمين قد يكون هو المسئول عن كونه عالماً ومؤرخاً أكثر من كونه فناناً أو أدبياً بالمعنى الضيق للأدب" (ص ١٤)

وفي صفحتي ١٥٦، ١٥٧ من نفس الكتاب يشهد كاتبنا المرموق (حسين) بانبهار أبيه بكثير مما كان يراه في أوروبا، حين صار يُدعى إلى مؤتمرات المستشرقين "فإن كان قد سطر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الاعتراف بتفوق الغرب في كل مضمار تقريباً، وإلى التحسر على حاضر العالم الإسلامي. كذلك كان يكن احتراماً عميقاً لكبار مستشرفي عصره، من أمثال هاملتون جيب وبرجستراسر وشفالي ومرجليوث، خاصة الأول الذي كان يزوره كلما حضر إلى مصر".

وأخطر ما جاء في كتاب حسين أحمد أمين مما يتصل مباشرة بموضوعنا هو ما كتبه بجرأة وصدق في ص ١٥٩، من نفس الكتاب عن أبيه: "وكنيت أعجب لقلّة نظره، نسبياً، في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له، فهو يستتكر منه غلبة المدح، وبذاءة الهجاء، وجمعية الفخر، وتكلف المشاعر، وزيف الوصف. وأعتقد أن زكي مبارك كان محقاً حين اتهم والدي بالعجز عن استماعة

الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً مخلصاً حقيقياً وإنما جاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكيمهما على الشاعرين."

هل معنى هذا أن نفصل في القضية التي يشير إليها التساؤل القائم في

العنوان؟

كلا، على الرغم من أن الحكم الذي أصدره حسين أحمد أمين، يجيب بالإيجاب، إلا أننا لا نريد التسرع في الحكم، ولا نزع للقارئ أننا سوف (نفصل) في القضية، وإنما عرضنا الأساسي أن نفتح باب النقاش، ومن هنا اكتفينا بتوفير بعض العناصر التي قد تساعد القراء على إيذاء الرأي.

لكن ما هي الفكرة الرئيسية التي قال بها أحمد أمين، وأثارت زكي مبارك؟

ينقل زكي مبارك في كتابه (ص ٥٦) نصاً لأحمد أمين جاء فيه:

"ترى في العصر العباسي طغيان أدب المعدة على أدب الروح. هذا البارودي (رحمه الله) اختار لثلاثين شاعراً من خيرة شعراء الدولة العباسية.. وكانت مختاراته في أربعة أجزاء كبار، فكان ما اختاره من المديح ٢٤١٨٥ بيتاً، ومن الألب ١٦٩٧ بيتاً، ومن الغزل ٤٦١٦ بيتاً، ومن الهجاء ١٢٢٩ بيتاً، ومن الوصف ٣٩٩٣، ومن الزهد ٤٧٣ بيتاً. ونظرة واحدة إلى هذا الإحصاء تدعشنا أشد الدهش: إذ يتبين لنا طغيان أدب المعدة - وهو المديح والهجاء - على أدب الروح، طغياناً كبيراً".

ثم ينقل زكي مبارك (ص ٦٠) نصاً آخر من تسفيه أحمد أمين للأدب

العربي:

ثم انظر بعد إلى الفن المبتكر في العصر العباسي، وهو فن المقامات، فقد ابتدعها ببيع الدين الهمداني، فلم يجعل محوراً حياً ولا غراماً كما يفعل الروائيون اليوم. ولم يجعل محوراً شيئاً يتصل بأدب الروح، ولكنها كلها "أدب معدة"، فأبو الفتح الإسكندري بطل المقامات كلها، رجل مكر واحتيال، يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال، نراه مرة قرّاداً يسلي الناس ويضحكهم، ومرة واعظاً مزيفاً يعظ

وينصح، ثم تتكشف حيلته، فإذا هو مهرج، ومرة مشعوذاً يحتال على الناس بشعونته ليفتحوا كيسهم ويغدقوا عليه من مالهم، وهو في كل ذلك مستجد مسائل محتال. وجاء الحريري فجعل مكان أبي الفتح الإسكندري أبا زيد السروجي، وهو كصاحبه دناءة نفس، وخساسة حرفة، يشخذ ثمن كفن لميت يدعيه، ويتعامى فتقوده امرأته إلى المسجد ليبتز أموال المصلين، ويُجمل غلامه ليوقع الوالي في شركه فيلبسه ماله وهكذا، ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدي والسؤال .. أليس هذا كله أدب معدة؟

ويضيف أحمد أمين إلى ذلك قوله : (ص ٦٦): "وانتشر بجانب أدب المقامات أدب آخر من أدب المعدة بمعناه الحقيقي هو أدب التطفيل.. وخلف لنا الأدب وصيتين طويلتين يوصي بهما نقيب الطفيليين ولي عهده: إحداهما من إنشاء أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الأديب المعروف، والثانية من إنشاء المولى تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني".

وعندما أراد أحمد أمين أن يقارن بين الأدب العربي والأدب الأجنبي،

كتب يقول: (ص ٦٤)

"أصبحنا إذا قرأنا ما يقوله الإفرنج عن تعريف الأدب بأنه (نقد الحياة) عجبنا من هذا التعريف، لأننا لا نرى الأدب العباسي ينقد الحياة، وإنما يصف نوعاً من حياة القصور، فأما الشعب فلم يوصف إلى قليلاً".

وقد دافع زكي مبارك عن شيوع المديح والهجاء في الأدب العربي وهما يمثلان (أدب المعدة) على حسب تعبير أحمد أمين، وقام دفاع مبارك على أساس أن المديح والهجاء هما السجل الصحيح للأخلاق العربية، فمن المديح نعرف كيف كان العرب يتمثلون المناقب، ومن الهجاء نعرف كيف كانوا يتصورون المثالب، ومن المحاسن والعيوب يعرف الباحث صور المجتمع في الحياة العربية الإسلامية. ويضاف إلى ذلك أن المادحين والهاجين لم يكونوا جميعاً طلاب أرزاق، وإنما كان أكثرهم أصحاب مبادئ وعقائد، وكانوا يؤدون في خدمة الدولة ما تؤديه الصحافة في هذه الأيام، وهي تؤرخ الصراع بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين.

كذلك فإن شيوع المديح والهجاء في البيئات العربية يدل على خلق عظيم من أخلاق العرب وهو (النخوة)، فالعربي يسره أن يذكر بالجميل ويؤذيه أن يذكر بالقيح، ومن هنا كانت المدائح والأهاجي لا توجه في الأغلب إلا إلى عظماء الرجال.

وبالنسبة لرأي أحمد أمين في أدب المقامات، فيرى زكي مبارك أن أحمد أمين قد غفل عن النظرية التي تقول بأن للفن والأدب غاية أصيلة هي الصدق في وصف ما ترى العيون وما تحس القلوب، وما تدرك العقول، وليس من المحتم أن يكون الأدب والفن جنديين في جيش الأخلاق، فبعض أشعار ديك الجن وأبي نواس أرفع قيمة من بعض ما كتب ابن مسكويه والغزالي، أرفع من الوجهة الأدبية والفنية وإن كانت أضعف من الوجهة الدينية والأخلاقية.

واتهم زكي مبارك أحمد أمين بالسطحية في النظر إلى الأخلاق، ذلك أن تعمقها يشير لنا إلى أنها تخضع في كثير من الأحيان إلى الصفة الاعتبارية أو النسبية، فما نعيه اليوم في طرائق التعبير لا يجب أن يكون كذلك في أذهان من سبقنا من الأدباء في سالف العصور.

ثم إن أحمد أمين فاته أن فن المقامات لم يقف عند الحدود التي رسمها الحريري وبيدع الزمان "ولو كان أحمد أمين من المطلعين على تاريخ الأدب العربي لعرف أن فن المقامات اتسعت آفاقه فشمّل الزهديات والفقهيات، وتحول مع الزمن إلى أن صار من الأساليب التعليمية".

وبالنسبة إلى وظيفة الأدب في نقد المجتمع، يتساءل زكي مبارك: من أين وصل الخطأ إلى أحمد أمين في هذه القضية؟

إنه يجيب على ذلك "وصل إليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين"، فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر شك ومجون، لأن فيه عصاة مشهورة بالزيغ والفسق، وهي جماعة أبي نواس ومطيع بن إياس، مع أن العصر الذي عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ فيه كبار الفقهاء

والنساك والزهاد، وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق.

ويسوق زكي مبارك العديد من الشواهد التي يؤكد بها خطأ أحمد أمين في أن الأدب العربي كان أدب معدة، يبعد عن غايات الروح، وعلى سبيل المثال عرفت البصرة أكرم نوع من نكران الذات حين كانت مهد الإخوان الصفاء، وأنها حين آوت هؤلاء الباحثين العظماء قهرت التاريخ على أن يشهد لها بقوة الروحانية، والبصرة هذه هي التي رأى أحمد أمين أنها البلد الذي أنشأت أدب التطفيل.

كذلك فإن البصرة استطاعت أن تنشئ مذهباً في النحو شغل الأمم الإسلامية نحو اثني عشر قرناً، والبصريون لم يصلوا إلى ذلك إلا بقوة الروح. لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحمت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ" (ص ٥٧)

والحق أنه يمثل هذه العبارة، ومثلها كثير، تطرف زكي مبارك في نقده، وتجاوز الموضوع ليشترك مع الشخص، وهو الأمر الذي عابه فيه البعض في جلسة سمر شهدها منزل طه حسين في إحدى الأمسيات وتضمنها نفس الكتاب الذي جمع مقالاته النقدية، فالدكتور منصور فهمي يخاطب زكي مبارك قائلاً: "لاحظ يا زكي أنك جرحت الأستاذ أحمد أمين وأن من حقه أن يعلن غضبه عليك". وقال أحمد أمين نفسه في ذات الجلسة "إن زكي مبارك لا ينقد الباحث نقد العالم للعالم وإنما ينقده نقد المصارع للعالم".

ولعل أمثلة أخرى من عبارات زكي مبارك يصف بها أحمد أمين تبين لنا كيف كان بالفعل متطرفاً في بعض الأحيان إلى درجة التجريح: "أحمد أمين باحث كبير بلا جدال، ولكنه ليس بكااتب ولا أديب وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية" (ص ٣٥)

لو كانت كلية الآداب تعرف أن في مصر رقابة أدبية لما وقعت في المضحكات حين قررت أن تدرس لطلبة السنة الأولى أسلوب أحمد أمين ولن تمتحنهم في أسلوب أحمد أمين .. أحمد أمين له أسلوب!؟ أنت بالله!!" (ص ٧٠)

"أحمد أمين لم يكن أديباً وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون، ثم قال له طه حسين كن أديباً فكان!!" (ص ٧٢)

لقد كان زكي مبارك قوي المنطق، ناصع الحجة، متدققاً في عباراته الناقدة، يملأه الحماس المستند إلى العقلانية والشواهد التاريخية والعلمية، لكنه أسرف في بعض الأحيان فخرج بقلمه بمثل هذه العبارات وأمثالها، ولعلها سمة نلاحظها في معارك هذا العصر، ومهما كانت ضراوتها وجديتها، إلا أنها بالفعل أثرت حياتنا الفكرية.

الاتجاه التجريبي العلمي*

إذا كان لفظ "اختباري" Empirical يدل على المعرفة والمقدرة الناتجتين عن عدد كبير من التجارب المختلفة، وليس عن فهم للمبادئ التي تقوم عليها هذه التجارب، وهو المعنى المعروف باسم "طريقة التجربة والخطأ" لاسامها بشئ من تأكيد الصفات العرضية لهذه التجارب، فإن المعنى الذي نقصده هنا هو "التجريبي" Experimental بالمفهوم العلمي الذي يقوم على المقدرة على السيطرة وتدبير الأشياء.

والفرق كبير بين المعنيين. فالمعنى الأول، ينظر إلى العقل على اعتبار أنه جهاز استقبال ليس غير ذلك، وكلما كان العقل منفصلاً انطبعت عليه الأشياء على حقيقتها أكثر من قبل.

التجريب العلمي: ولما كانت الانطباعات التي تحدثها الأشياء في العقل تسمى غالباً بالاحساسات، فقد أضحت النظرية الاختبارية Empiricism نظرية حسية، بمعنى أنها تأخذ المعرفة على أنها تقبل الانطباعات الحسية وتداعيها. أما الثاني وهو "التجريب العلمي"، فهو لا يصنع تقابلاً بين العقل والواقع، ولا يجعل من الخبرة مجرد تلخيص لما عملناه في الماضي على سبيل المصادفة. إن التجريب عملية سيطرة مقصودة على ما تعمله الأشياء بحيث يصبح ما يحدث لنا منها وما نفعله نحن بها على أكثر ما يمكن من الخصب في المعاني المقترحة، وبحيث يصبح وسيلة لامتحان هذه المقترحات وتبين صحتها. فإذا ما ذهب عن التجريب عمى الاندفاع والعرف، وصار موجهاً بهدف ومسيراً بطرق ومقاييس، فقد غدا حينئذ عقلياً حقاً. ومن هنا تفقد المعارضة بين المذهبين العقلي والاختباري. ما كان لها من سند في الوضع البشري الذي كان يكسبها معناها ويبررها بعض التبرير

* مجلة العربي الكويتية مارس ١٩٧٣

عندما كان المجتمع ينقسم إلى فئة قليلة تزعم في نفسها القدرة على التفكير للناس، وكثرة ليس لها إلا العمل الذي ينزل بهم إلى منزلة هي أدنى من تلك التي يكون عليها الذين يفكرون.

والكسب الكبير الذي حصل عليه الإنسان نتيجة الوصول إلى هذا المعنى من التجريب هو أننا لم نعد نسمى شيئاً معرفة إلا حيث ينتج عملنا بالفعل تغييرات مادية في الأشياء بما يوافق الفكرة التي تساورنا ويؤيدها، فإن قصرت معتقداتنا عن مثل هذه التغييرات المعينة، فهي إذاً مجرد فرضيات ونظريات واقتراحات وتكهّنات نقبلها مؤقتاً ونستفيد منها بما تشير به من التجارب التي يجب أن نجربها.

من أجل هذا كان لابد وأن نقرن اصطلاح "الاتجاه التجريبي" بـ "العلمي" حتى لا يلتبس معناه بالمعنى الذي يوحيه إلينا اصطلاح "اختباري"، وحتى يتأكد لدى القارئ أن المقصود من الاتجاه التجريبي العلمي، هو: النظرية التي تقول بأن جميع أنواع المعرفة يجب أن تكون مستقاة من الخبرة بشروط خاصة وطرق علمية وهي ما يصطلح على تسميتها بالمنهج العلمي في فرض الفروض التي يعتقد أنها تفسر الظاهرة الملاحظة، ثم القيام بعملية اختبار وتجريب لإثبات صحة هذه الفروض، أو خطئها تمهيداً للخروج بتعميمات تفيدنا في التنبؤ بما يمكن أن تقع وفقه أحداث المستقبل.

جهود كثيرة في التاريخ ساعدت على إرساء الاتجاه التجريبي :

وإذا كان من الضروري لمن يتصدى الآن للبحث في تاريخ الفكر ألا يقتصر على تبيان ما كان للفلاسفة والعلماء من جهود في سبيل إرساء دعائم اتجاه فلسفي أو علمي معين، فمن المهم بالنسبة لنا أن نمد البصر إلى ما يكمن وراء هذه الجهود لاستجلاء الظروف والعوامل التي أحاطت بالمجتمع البشري فكانت تربة هيات للفلاسفة والعلماء المناداة باتجاه معين مثل الاتجاه التجريبي الذي نتصدى للكتابة عنه في هذا المجال، ذلك الاتجاه الذي يكفل الإيمان والعمل به، إقامة التفكير الإنساني على أسس من المنهج العلمي الذي يسمه بالدقة اللازمة لكل تفكير سليم، والذي يؤدي إلى سرعة التقدم الإنساني بما يتقيد به من مراعاة أحكام الواقع

وضرورة التجربة، وإذا كان عصرنا الحاضر يتميز بالتقدم المذهل في كافة المجالات بفضل منهج العلم التجريبي، إلا أن هذا الاتجاه يعد نتاج عملية تاريخية طويلة تقلب فيها المجتمع البشري منتصراً على العديد من القوى المضادة التي ما كانت تبغي إلى عرقلة هذا التقدم حتى يظل المجتمع الإنساني في جموده وتخلفه وبالتالي تستطيع الفئات المستغلة أن تمارس استغلالها بأي وسيلة حتى ولو كان ذلك على حساب التطور الإنساني ورفاهية البشر.

ولا شك في أن هذه العوامل والظروف التي ساعدت على ظهور الاتجاه التجريبي وتأكيدِه وتدعيمه، إنما ساعدت في نفس الوقت على إبراز ما له من أهمية ومن ضرورة. ومن هنا نستطيع أن نقول أن الاتجاه التجريبي قد صار ضرورة بحكم التاريخ، وضرورته إنما تمثلت في العديد من العوامل التي يضيق المقام عن الإفاضة فيها، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها فقط، منها الثورة الجغرافية التي أبعثت شبح المجهول عن العقل البشري وأمدته بجرأة دفعته إلى ارتياد آفاق لم يكن يحلم بها، وكذلك الثورة الصناعية التي أظهرت للناس مدى ما يؤدي إليه تطبيق المنهج العلمي التجريبي من زيادة رائعة في سرعة التقدم والتطور مما يعود بالرفاهية على المجتمع، وقبل هذا وذاك الجهود التي قام بها العلماء العرب.

وقبل أن نفصل القول في هذا، نحب أن نؤكد أننا لا نجزم - وبصفة مطلقة - أن هذه العوامل والظروف هي التي أدت إلى ظهور الاتجاه التجريبي العلمي، لأن كثيراً من هذه العوامل قد يكون هو نفسه نتيجة لتطبيق منهج التجريب، مثل "الثورة الصناعية"، فهذه نتيجة لتطبيق المنهج التجريبي، لكنها سوف تعود إلى تأكيدِه ونشره، لأنها بذلك إنما تثبت جدواه وفاعليته، وفي هذا تشجيع له على الانتشار وتشجيع على تثبيت أركانه وأساسه مما يدفع المجتمع إلى اعتناقه واتخاذِه منهجاً للتفكير والحياة. وعلى هذا فنحن لا نقصد بالتحدث هنا عن هذه العوامل والظروف وأثرها على ظهور الاتجاه التجريبي العلمي ونشره وذيوعه، أن نفتني أثر علة في معلول، ولكننا نستطيع - مع شيء من التجاوز - أن نقول أن هذه العوامل والظروف قد ساهمت وساعدت على تأكيد منهج التجريب العلمي بحيث

استطاع أن يكتسب ما اكتسبه في العصر الحاضر من شيوع وذيوع حتى اتخذته كثير من الفلسفات المعاصرة منهجاً لها، وحتى أصبح دعامة لا يمكن أن يضمن مجتمع سلامة بنائه التقدمي دون أن يقيمه عليه، فكان أن اتسم عصرنا بالعلمية والتجريبية. وهذا تفصيل ذلك:

الثورة الجغرافية

إن أهم ما يلفت النظر فيما قام به الرحالة المغامرون من رحلات قاموا فيها بكشوف جغرافية رائعة فتحت مجالات كانت مغلقة أمام الإنسان، هو ما أدت إليه من تحرير للعقول من المجهول والتهيب من كل غريب غير مألوف، واتساع أفق التفكير الإنساني، وإن كانت من الوجهة السياسية قد ساعدت على ظهور الاستعمار. ذلك أنه كلما فتحت ميادين جديدة من الوجهتين الجغرافية والتجارية أفسحت الطريق أمام آفاق العقل البشري وفتحت مداركه. وإن ما حدث من توسع نتيجة الكشوف الجغرافية كان عاملاً أساسياً في انتصار حضارة المدينة وصناعة سكان المدينة وتجارتهم، مما زاد من حجم النمو التجاري وسرعته. ولولا هذا النمو التجاري على مستوى قومي بل عالمي، لما وجد الناس بمثل هذه السرعة أن معارفهم ومؤسساتهم القديمة أصبحت غير كافية لدرجة تستدعي اليأس منها. ثم أن ما حدث من تدفق للثروة التي عثر عليها ومن عثور على ذهب الأمريكيتين، واكتشاف مواد استهلاكية جديدة وضروب جديدة من المتع المختلفة، كل ذلك قد ساعد من غير شك على إبعاد الناس عن الاشتغال بالأمور الفرضية وصرف أنظارهم عنها، ولقت أنظارهم إلى العكس من ذلك، إلى الطبيعة للاستمتاع بما فيها وما في الحياة من مباحج ومتع.

وإذا كانت هذه الكشوف الجغرافية قد تمت على أيدي الأوربيين، إلا أنها أتاحت لهم فرصة الاحتكاك الثقافي بحضارات وعقائد وثقافات أخرى مما كان له أثره في اكتساب كثير من الأفكار والآراء المستنيرة التي كانت تنقص العقل الأوربي في الوقت الذي كانت فيه كثير من المدن الإسلامية تعد مراكز إشعاع حضاري، فساعدت هذه الكشوف الأوربيين على أن ينهلوا منها كل ما افتقدوه في

حضارتهم من علم. ولا ريب أن هذه الكشوف الجغرافية قد أدت إلى ازدياد ثقة المعلومات الجغرافية وتقدم علم الجغرافية وفن رسم الخرائط. وتطلبت الحيوانات والمعادن الخاصة بالعالم الجديد تفكيراً ودراسة مما أدى إلى تقدم علم النبات والحيوان والتعدين. هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه تلك الكشوف من تقدم في علم الفلك واتساع دراساته بعد ظهور مجموعات من النجوم لم تكن ترى إلا في النصف الجنوبي للكرة الأرضية، ولا شك أن كل هذا قد أدى إلى ازدياد الثقة بالعلم وبقدرته على تمكين الإنسان من تحقيق حلمه الأبدي وهو السيطرة على الطبيعة نهائياً لتسخيرها لخير الإنسان.

والخلاصة التي ننتهي بها من كل ما قامت به الكشوف الجغرافية، أن تلك الكشوف قد أتاحت للإنسان أن يتعود على روح جديدة وعادات جديدة كانت تنقص فكره ومنهجه ساعدته على ممارسة الشجاعة والمخاطرة، وما قام به المكتشفون من رحلات، كانت من غير شك أروع الأمثلة في كيف تكون الجرأة، وعلمت الإنسان الصبر وطول المثابرة. ولا نظن أن هناك ما يمكن أن يعود الإنسان على شيء من هذا القبيل مثل هذه الرحلات الطويلة التي لم يكن يوثق بما سياتر على عليها من نتائج، وعلمت الإنسان الثقة بقدرته وبإمكانياته الهائلة التي لا حد لها والتي يستطيع - إذا استغلها - أن يسيطر السيطرة المنشودة على الطبيعة.

وإذا كانت الكشوف الجغرافية وما أدت إليه من ثورة قد علمت الإنسان كل هذا وكثيراً غيره، فإنها بذلك تكون قد أمدته بكثير من الأدوات التي يمكن عن طريقها وبفضلها أن ينحو منحاً تجريبياً علمياً، بل إن الإنسان إذا تعود على المخاطرة في البحث والتقيب والشجاعة والمثابرة والثقة بقدرته وبإمكانياته، وبإمكانه السيطرة على الطبيعة، وفوق هذا وذاك، إذا امتلك الإمكانيات المادية اللازمة، فإن الاتجاه التجريبي العلمي يصبح ضرورة لا محيص عنها خاصة وأن هذه الكشوف نفسها قد كشفت لهؤلاء الرحالة، بل للعالم أجمع، أي نتائج يريدها الإنسان عندما يسلك سلوكاً علمياً تجريبياً. بدلاً من أن يقبع في داره ويروح يتظن الظنون على ما تكون عليه مجاهل الأرض.

الثورة الصناعية

وتُعرف هذه الثورة في التاريخ باسم "الانقلاب الصناعي"، وهو تلك العملية التي تم عن طريقها تغيير أساسي في تنظيم الصناعة وفي أدوات الإنتاج وسرعته وحجمه، وفي طرق التعدين وفي أساليب التمويل والتسويق والتوزيع، وفي مستوى الإعداد الفني اللازم للعمل في الصناع. ولا نظن أن المجال هنا يسمح بتعقب كل هذه التغييرات، ومن ثم فالذي يهمنا هنا هو الوقوف على ما أدت إليه من تغيير أساسي آخر على حياة الناس ونظم معيشتهم الاجتماعية والمادية، وما كان لهذا كله من أثر على منطق التفكير ومنهج العلم.

إن ما أدت إليه الثورة الصناعية من انقلاب لم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا ولمسها، ووفر للإنسان الكثير من وسائل الراحة والمتعة والرفاهية، إن كل هذا لم يكن إلا نتيجة لتطبيق منهج العلم التجريبي على الصناعة مما يبين للناس - وبصورة عملية ملموسة - مدى ما يمكن أن يجنوه من ثمار لا حد لها نتيجة لتطبيق منهج العلم التجريبي.

ومهما اشتدت الرغبة في جمع المال، أو الاستمتاع بالسلع والمنتجات الحديثة، ومهما قويت الهمة العملية، واشتد بالناس حب المغامرة والإقدام، فإنها وحدها لم تكن لتستطيع أن توجد هذه التحول الاقتصادي الكبير الذي تم في بضعة قرون والأجيال القليلة الأخيرة، لولا ما حدث من التقدم في علوم الرياضة والفيزياء وعلم الحياة، فمثل هذا التقدم شرط لا بد من توافره أولاً لحدوث ذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير. ومن هنا نجد أن تلك الدعوة التي نادى بها "فرنسيس بيكون" بأن المعرفة قوة، وإن حلمه بسلطان مستمر يعمل على تسخير قوى الطبيعة عن طريق استخدام العلم الطبيعي، قد تحقق إلى حد كبير بفضل ما يموج به عالم اليوم من مخترعات وآلات وابتكارات وعدد.

وإذا كانت هذه النتائج الرائعة قد أتت نتيجة تطبيق المنهج التجريبي، فقد أدت من ناحية أخرى إلى توفير أكبر الحوافز لحفز الناس على البحث العلمي ما دام ينتج مثل هذه النتائج المذهلة. كما أن مطالب الإنتاج نفسها تدفع الناس دفعاً إلى

ذلك، إذ لا يمكن أن يستمر الإنتاج على صورة معينة، وإنما لابد أن يسير قدماً في سبيل التحسن والتقدم والتطور وفقاً لحاجات البشر المتغيرة المتطورة، وسبيل هذا لا يكون إلا بالاتجاه اتجاهاً تجريبياً علمياً متطوراً يعمل على التطبيق المستمر للمنهج العلمي لتكييف الظروف القائمة وفقاً للحاجات الجديدة. ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا تتجه كثير من الدول الآن إلى أن تجعل جزءاً كبيراً من الميزانية المخصصة للأعمال الصناعية للبحث العلمي حتى يمكن أن تعمل على تحسين العملية الإنتاجية، والوصول إلى أساليب عمل صناعي جديدة. هذا بالإضافة إلى أن مطالب النقل الحديثة من سرعة ودقة وضخامة ضرورية حتى يمكن أن تعمل على تحسين العملية الإنتاجية، والوصول إلى أساليب عمل صناعي جديدة يمكن أن تتناسب مع تطور المنتجات الصناعية، فتفاعل الكشف العلمي إذاً مع التطبيق الصناعي تفاعلاً قوياً شاملاً متصلاً، جعل كلاً من العلم والصناعة يؤتي ثماره، وأكره العقل المعاصر على أن يفهم أن خلاصة المعارف العلمية هو تسخير القوى الطبيعية.

ولعل أهم ما أدت إليه الثورة الصناعية كذلك هو ما حدث من انقلاب في مجال "الاتصال". ولا شك أن هذا الجانب من أهم الجوانب التي تهتمنا هنا لأنه أوتقها صلة بنمو حركة الفكر وانتشار العلم والتعليم ذلك لأن اختراع السفن والطائرات والقاطرات والسيارات والتلغراف والبرق والمسرة واللاسلكي وغير ذلك من وسائل تكاد تطوي الوقت اللازم لنقل الكلام طياً، لها أثر لا يستهان به في سرعة انتشار الجديد من العلم بين سائر المجتمعات، ولا شك أن هذا الانتشار للعلم ونتائجه فيه ما يؤكد للناس جدوى وأهمية المنهج العلمي. وإذا كان البعض يقول بأن ما أدى إليه الانقلاب الصناعي من ثورة صناعية بدأت باختراعات لعمال عاديين لم يكونوا على قدر كبير من العلم والتعليم، إلا أن هذه الاختراعات كان يمكن أن تظل على بساطتها وبدائيتها لو لم يزد لها تطبيق منهج العلم التجريبي دقة وفعالية وضخامة وتعقيداً.

ولقد أيقن كل مجتمع بناء على هذا أن رفايته وتقدمه إنما هو أمر مشروط بمدى اتجاهه اتجاهاً علمياً، وهو أمر مشروط بمدى أخذه بأساليب التصنيع والتكنولوجيا، وإنه لن يتأتى لمجتمع ما يرحوه من تقدم ورفاهية ما لم يرهف وسائل بحثه وتجريبه ويتخذ من العلم أداة تقفز به إلى هدفه المنشود. وبمنظرة بسيطة إلى المجتمعات الحاضرة، نجد أن أساس ما يفرق بين الدول من حيث الضعف والقوة، التقدم والتخلف.. أساس هذا هو مدى التقدم في مضمار العلم. ومن هنا لا نجد أننا نتجاوز الحق في شئ حين نقول أن الاتجاه التجريبي العلمي قد صار ضرورة تاريخية لا بد وأن توضع في الاعتبار.

دور العرب لن ننساه

والمستقرئ لما أتينا على ذكره فيما سبق من ظروف تاريخية أظهرت ما للاتجاه التجريبي العلمي من ضرورة وأهمية، ومن عوامل ساعدت إلى حد كبير على تدعيم هذا الاتجاه وتعميق مجراه، يلاحظ إن كل هذه الأحداث والظروف والأحوال قد وقعت في غالب الأمر - على المسرح الأوربي، أو بمعنى آخر، في أوروبا بصفة خاصة، ومن ثم فإن هذا قد يوحي بأنه إذا كانت هذه الأحداث والظروف تمثل جذوراً تاريخية لاتجاه التجريب العلمي، فإن هذا الاتجاه أوربي الأصل والمنبت. بيد أن هذا إن كان يمثل جزءاً كبيراً من الحقيقة، إلا أنه لا يمثل الحقيقة كلها، فما كان للشعوب الغربية أن تشهد ما شهدته لو لم تستند إلى أساس متين من التراث العلمي الذي نقله العرب إلى أوروبا أثناء عصورهم الزاهرة في القرون الوسطى. ففي هذا الوقت كان الأوروبيون يتخبطون في ظلمات الاستبداد والقسوة والجهل والخرافة، وكان السواد الأعظم من أفراد المجتمعات الأوربية أرقاء أرض يسخرهم السادة الإقطاعيون، وكان رجال الدين يسيطرون على كلتا الطائفتين. كان هذا يحدث في أوروبا بينما كانت البلاد الإسلامية تموج بفيضان من الازدهار العلمي والتقدم الحضاري. وكانت المدن العربية تمثل مراكز إشعاع حضاري في أسبانيا وصقلية ومصر والشام.

ومما يذكر بهذا الصدد أنه لما مكنت الظروف الأوربيين من أسبانيا حيث طردوا العرب، أبقى بعض الحكام المنن العربية والمسلمين بمؤسساتهم ومدارسهم، وذلك ليعلموا الأسبانيين ما وقفوا عليه من أسباب الحضارة ودرجات العلم، وأسهم "ألفنسو العاشر" ملك "قشتالة" في حركة الاقتباس الأوربي لأسباب الحضارة العربية بأن قام بحركة واسعة نقل فيها كثيراً من مؤلفات العرب وعلومهم. هذا وقد صرف "جرار أوف كريمونا" (١١١٤ - ١١٨٧) سنين كثيرة في طليطلة حيث ترجم عن العربية اثنين وتسعين كتاباً، من بينها "الماجسطي" لبطليموس، وكتاب "القانون" لابن سينا في الطب. وحدث في صقلية مثملاً حدث في أسبانيا حيث اختلطت الحضارة العربية فيها بحضارة أهل البلاد في عهدي "روجر الثاني" و"فردريك الثاني" اللذين كان بلاطهما يعج بالعلماء والجغرافيين والشعراء العرب. وكذلك كان الأمر في مصر والشام.

ويطول بنا المقام لو حاولنا أن نقنّي أثر العرب في تهيئة الظروف وإعداد التربة الملائمة التي ساعدت أوربا على أن تبذر بنور الاتجاه التجريبي العلمي. فإذا كانت ظروف أوربا التاريخية قد أوضحت أهمية التجريب العلمي وضرورته، فقد كان للعرب دورهم في مد أوربا ببعض الأدوات الثقافية التي -سهما بلغت من بساطة - كانت بداية لا بأس بها انطلق منها الأوربيون إلى آفاق العلم المختلف بمنهجه التجريبي.

وهكذا تعلمنا استقراء التاريخ مدى ضرورة منهج التجريب العلمي، فما هو في استخدامه والإيمان به، يبلغ بالإنسان آفاقاً يمكن فيها أن يحقق أحلامه وأمانيه.

حسن البنا يهاجم طه حسين والعقاد!

كان عام ١٩٢٥ حقاً هو عام الزلازل الفكرية التي أصابت الحركة الفكرية في مصر باضطراب عنيف، ففي هذا العام أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتيبه المعروف بـ(الإسلام وأصول الحكم) الذي لم يتعد حجمه حجم محاضرة طويلة واحدة على وجه التقريب، ولم يكن الانفجار الذي أحدثه راجعاً إلى محتواه فقط، فكم من أفكار لا تقل عن أفكاره خطورة، أذيعت ونشرت ومع ذلك لم تحدث مثل هذا الانفجار، وإنما الظروف التي أحاطت به هي التي (صعدت) و(نفخت) في (الشرارة) التي أطلقها، ذلك أن مؤلف هذا الكتاب، كان ابن الرجل الذي عرض عليه الإنجليز عرش مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل، فرفضه، وقبله الملك فؤاد. كذلك كان المسلمون ما زالوا يعيشون في ذهول أحدثه إلغاء الخلافة مما أسأل لعاب بعض الملوك والأمراء وفي مقدمتهم الملك فؤاد كي يتطلع إلى أن تعود الخلافة على يديه.

وشهد عام ١٩٢٦ ظهور كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) الذي أحدث دويماً مروعاً أدى إلى تكاثر أصابع الاتهام لطه حسين في علمه وفي دينه. ولسنا في معرض معاودة الحديث عن المعارك التي أحدثها، فقد فاضت بها أنهر الكتب والأبحاث والدراسات، ولكننا نعرض هنا لموقف هام لا من هذا الكتاب وحده، وإنما من (شخصية) المؤلف في مجملها بسبب هذا الكتاب، والجديد هنا هو شخصية المهاجم الناقد، فهو (حسن البنا) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الذي لم يقف في هجومه على طه حسين وحده، وإنما تناول بالنقد والهجوم أيضاً عباس محمود العقاد لأنه وقف بجانب طه حسين، ولم يشفع له إعلانه أنه يقف بجانب طه حسين انطلاقاً من مبدأ حرية الفكر بغض النظر عن محتوى الكتاب.

وقد أورد حسن البنا هجومه هنا في مقال نشرته مجلة (الفتح) التي كان يصدرها الداعية الإسلامي المعروف (محب الدين الخطيب)، وذلك في العدد (٢٠٢) الصادر في ٨ المحرم عام ١٣٤٩هـ (يونية ١٩٣٠).

البنا ينتقد تأخير إعدام كتاب (في الشعر الجاهلي):

بعد مرور شهور قليلة على بداية عام ١٩٣٠ أثار النائب (عبد العزيز الصوفاني) في مجلس النواب مناقشة حول موضوع طه حسين اشترك فيها كثير من النواب، وقد تناولت أمرين هامين: أولهما الإبطاء في إعدام كتاب (في الشعر الجاهلي)، وثانيهما وجوب إخراج المؤلف من الجامعة وإبعاده عن التدريس. ولهذا ينتهز حسن البنا هذه الفرصة ليتقدم من خلال مقاله بعدد من الملاحظات إلى هؤلاء النواب الثائرين على طه حسين لا لانتقاد ثورتهم، وإنما من أجل المزيد من الثورة عليه، وسعيًا نحو محاصرة فكره.

والملاحظ أن حسن البنا لا يسوق ما يقول من آراء على أنها تمثل وجهة نظره هو، وإنما يقولها باعتبارها تعبيراً عن "شعور كل مسلم وعاطفة كل مؤمن وواجب كل مصري غيور على الدين والخلق". وبمنطق العلم ومنهجه نجد أن شيخنا قد تجاوز حدود ما له من صلاحيات، فللمراء أن يعبر عما يراه من رأي مستنداً إلى الحجة والبرهان والدليل المنطقي، لكن ما لا يقع في هذا النطاق أن يؤكد أنه إنما يعبر عن رأي (كل الناس).

كذلك مما نلاحظه على ما ساقه الشيخ البنا من آراء، أنها اتجهت بصفة أساسية إلى (شخص) طه حسين في جوانبه المتعددة موجهاً إليه سهام النقد الذي يصل إلى درجة التجريح، لكنه لم يناقش الكتاب الذي هو موضع الهجوم الأصلي إلا بعبارة عامة. ربما يكون الشيخ في ذلك عازفاً عن ترديد ما سبق أن قيل في نقد الكتاب مما لا نستطيع أن نقطع به، وإنما هو مجرد احتمال لا يصل إلى مرتبة اليقين.

إن البنا يعتمد في كلماته على قرار النيابة العمومية المصرح بأن هذا الكتاب "خطأ محض في مادته وفي أسلوبه وفي معانيه وفي غاية مؤلفه". وإذا كان

الأمر كذلك". فهل يسوغ لنا بعد كل هذا أن نتأخر في إنفاذ حكم الإعدام على هذا الكتاب؟ وهنا لا يرى البنا مسوغاً للنقاش والحوار حول الكتاب أفكاراً ومنهجاً بحجة أن ذلك إنما هو من مصلحة العلم وحركة الفكر والثقافة التي تزدهر بالمزيد من المناقشة والحوار، وفي عبارات حادة وتعميمات كاسحة واتهامات ساخنة يتساءل البنا: "فهل سمع أحد أن من مصلحة العلم أن يكون الجهل مصدراً من مصادره ومادة من مواد ينبع منها ويؤخذ عنها، وأن يعتذر آخر بحرية الفكر، ولم يقل أحداً أن معنى حرية الفكر إبطال الحق وإخفاق الباطل وخرق النواميس وانتهاك حرمان الشرائع والقوانين و الإساءة إلى أربعمائة مليون من المسلمين كما فعل صاحب هذا الكتاب؟"

والحق أننا نختلف مع طه حسين في بعض ما ورد في كتابه هذا خاصاً بالتشكيك في إخبار القرآن عن إبراهيم وإسماعيل، لكننا نختلف أيضاً مع البنا في استنكاره أن يستمر الحوار والنقاش حول أفكار الكتاب، كما نختلف مع منطق المصادرة فضلاً عن (الإعدام). إننا نذكر هنا بدعاوى الكفرة والملحدين والمشوكين وكيف كان القرآن الكريم يعرضها تفصيلاً ويناقشها، فما بالنا نحن نقف هذا الموقف من أصحاب الفكر المخالف لنا ونطالب بإيقاف النقاش حوله ومصادرتهم؟ هل يُبرر هذا بصدور قرار من النيابة بذلك؟ ربما! لكن الذي نراه - ولا نزعم أنه هو الصواب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أن التعقيب والنقاش في الأحكام الجنائية والمدنية قد يكون مكروهاً، لكن القضايا الفكرية تختلف عن ذلك، ولا يجب أن يتوقف النقاش فيها ما دام يكشف عن حجج جديدة ويشير إلى زوايا لم تثر من قبل.

والبنا لا يكتفي بطلب إعدام كتاب (في الشعر الجاهلي)، وإنما بأن يمتد قرار المصادرة إلى الطبعة الأخرى المعدلة من الكتاب والتي ظهرت بعنوان (في الأدب الجاهلي) لأنه، كما يؤكد البنا "لا يخالف سابقه إلا بالتسمية"، ووزارة المعارف إذا استجابت إلى نداء البنا "فتكون بذلك قد احترمت قرار المجلس

واعتبرت قول لجان انتدبتها من خيرة رجالها فحكمت على الكتاب بما يستحق وأحسنّت إلى العلم وأنقذت طلبته من مهاوي الحيرة والضلال".

ولنا أن نتساءل بعد ذلك : لماذا كان حسن البنا حريصاً كذلك على الدعوة

إلى إقصاء طه حسين عن التدريس والجامعة؟

إنه يستند في ذلك إلى أن المدرس يُنظر إليه من جهات ثلاث:

- من مواهبه الخاصة في المادة التي يقدمها لتلاميذه،
- ومن طريقته في التفكير،
- وما يبثه في نفوس طلبته من أخلاقه وطباعه.

ثم يبدأ بعد ذلك في تطبيق هذا المعيار على طه حسين مؤكداً أنه "متهم في ذلك جميعاً"، فطه حسين -فيما يقول البنا - "لا يحسن الشعر وإن حاول ذلك، فأتى بالغث المتكلف الذي يمجه الطبع ويستقله السمع"، ويستشهد البنا على حكمه هذا بلامية طه حسين التي يقول فيها:

مالي وما للبدر أطلب رده	بل ما لأفلاك السماء ومالي
لا در در المال لو لم يدخر	لبناء مكرمة وحسن فعال
لا در در المال لو لم يدخر	إلا لذات الطوق والخلخال
لا در در المال لو لم يدخر	إلا لنيل مراتب الإجلال

.. إلى آخر ما قال في هذا النظم "المهلل النسيج المتنافر اللفظ الضئيل

الغاية". ولا نستطيع أن نزعم لأنفسنا علماً أو خبرة بنقد الشعر حتى نحكم لأي الطرفين، وإنما يقف جهدنا هنا عند حد (النقل) إلى القراء.

كذلك يؤكد البنا أن طه حسين "لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى

الذوق العربي والبلاغة العربية وقسته بما وضعه الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه، "أما في غير ذلك من حشو القول والانتساع فيه وإطالته بالتشويق والتفهيق فالرجل في ذلك لا يشق له غبار"!!

ومن صور نقد البنا لطله حسين طعنه في أهليته وقدرته على النقد الأدبي، وهو الأمر الذي يثير الدهشة حقاً، فمهما اختلف إنسان مع طه حسين، إلا أن هناك ما يشبه الإجماع على أن الرجل علامة كبرى في تاريخ النقد، لا يقلل منها ما شاب بعض نقده من غلو اعترف هو به بالنسبة إلى بعض الأدباء، فالمطاحنات الحزبية والمعارك السياسية، والمنافسة الصحفية، كل ذلك وغيره كان له دوره في بعض هذا الغلو، يقول البنا: "وما هو بالناقد الذي يحسن النقد الصحيح في الشعر والنثر، وإن أحسن التهجين والتجريح والزراية على غيره من الأدباء والكتاب" ويسوق شيخنا مثلاً يؤيد به وجهة نظره بأحد أبيات شوقي في ميمته التي يقرظ بها ترجمة أحمد لطفي السيد لكتاب أرسطو (الأخلاق):

يا لطفي أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

فهنا يقول البنا أن طه حسين يفهم من هذا أن الشاعر يقول أن أرسطو كان ذا صوت رخيم، وأنه لا هو ولا شوقي سمع هذا الصوت، ويعلق البنا بأن ناقداً لا يدرك ما في هذه الاستعارة البليغة من عذوبة وجمال وتناسب، "لحري به أن يدع النقد لأهله وأن يعلم أن دعواه فيه كدعوى آل حرب في زياد"، وأنه ليحدونا الأمل حقاً أن يقوم أحد الباحثين بالتحقيق في هذا الموضوع.

ثم يطعن حسن البنا في (علم) طه حسين بتاريخ العرب، يسوق هذا الاتهام الخطير دون أدلة وبغير حجة إلا أن طه حسين "لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به في مدرسة، وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهن من يطالع كتب الأدب لا ليدرسها ولكن ليراها".

ذلك من ناحية مواهب أستاذ الجامعة في الأدب العربي وتاريخه، وأما من ناحية ما يقدمه لتلاميذه من المادة، فقد كانت باكورة ذلك كتابه (في الشعر الجاهلي) "وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والغثاء وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعاييب فيه يبرأ منها العلم، وأيد ذلك حكم القضاء".

وعندما ينتقل البنا إلى طريقة طه حسين في التفكير وما يبثه في نفوس طلبته من طبائعه وأخلاقه، نجده يقول "فما علم الناس من ذلك إلا الشك والحيرة والانسلاخ عن العقيدة والدين وتسمية ذلك منهجاً علمياً".

وينتهي من هذا كله لیتساءل: "فأي شيء بعد ذلك يسوغ بقاء أمثال هذا المدرس في منصب كبير كمنصبه الحالي؟"

ومن المعروف أن العقاد قد وقف بجانب طه حسين في هذه المعركة الطاحنة، ويسخر البنا أن يصف العقاد طه بأنه "نابغة الدهر ونادرة العصر، وأنه لا يمكن لأحد أن يسد فراغه أو يملأ مكانه أو يدرس الأدب كما يدرسه، وأنه قرأ كتابه فلم يجد فيه ما يمس الدين والأخلاق"، إن هذا الوصف يستثير حسن البنا فينحي باللائمة على العقاد الذي يبدو من حديثه أنه يكن له تقديراً وإعجاباً..

إنه يخاطب العقاد مستصرخاً إياه بأن يتراجع عن هذا الذي يقول لأنه يعني اتهاماً خطيراً إلى رجال وزارة المعارف الذين تخصصوا بدراسة هذه المادة "وفيهم أساتذة الدكتور طه وأولياء نعمته"، ويطعن العقاد أيضاً بقوله هذا (في تصور البنا) في تقارير تلك اللجان التي انتدبتها الوزارة لفحص الكتاب فحكمت عليه "بالخطأ والتجهيل وأظهرت معاييه في عشرات المواضع"، كذلك حذر البنا العقاد من أن قوله السابق يعني أيضاً حكماً على الأمة "بالجذب الأبوي" حيث قال أن طه هو الوحيد الذي يستطيع أن يدرس الأدب.

وعلى الرغم من تقدير البنا للعقاد، إلا أنه لم يسلم من بعض الغمز حين قال للعقاد أن حكمه السالف على رجال الأدب في مصر من نوع حكمه السابق على شوقي وحاظظ إبراهيم "وهما مفخرة أدب العرب"، إذ من المعروف أن العقاد قد حمل حملة شعواء على شعر الرجلين. ثم يختم عبارته بأن يطلب من العقاد "فاستغفر الله والأمة ورجال الأدب من دفاعك عن هذا الدكتور (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً)".

وينكر البنا على العقاد أن يحكم بأن كتاب (في الشعر الجاهلي) ليس به ما يمس الدين والأخلاق، وحثه في ذلك أن العقاد ليس من (أهل الدين

المتخصصين)، فإذا كان هؤلاء قد أفتوا بغير ما قال العقاد فأيهما نتبع؟ الإجابة عند البنا "أليس من الإنصاف والواجب عليك وعلينا أن نتبع هؤلاء في شئ هم أخبر الناس به؟". ويسوق البنا المثال الخاص بقصة إبراهيم وإسماعيل وتكذيب طه حسين للقرآن والتوراة والإنجيل في روايتهم لها، أو على أقل تقدير، فإن رواية هذه الكتب المقدسة لها لا ينهض دليلاً كافياً على صحة حدوثها. كذلك يضرب البنا المثل بما ذكره من إنكار طه حسين لصريح الأحاديث الصحيحة "وتعطيل أحكامها والخلط في الأغراض والأنساب والنتائج والأسباب".

ولم يكتف البنا بذلك لإقناع العقاد بخطأ دفاعه عن طه حسين، إذ يعود إلى محاضر جلسات مجلس النواب السابقة لينقل عنها بعض صور النقد، فمن ذلك ما جاء في جلسة ١٩٢٨/٩/١٣ على لسان الأستاذ عبد الخالق عطية في هذا الشأن فكانت شهادته على الكتاب "أنه ذلك الذي تضمن طعناً زريعاً على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة وعلى الإسلام دين الدولة المصرية بنص الدستور "وكانت شهادته على المؤلف" أن تصرفه كان مخالفاً للذوق، إذ لم يكن من المفهوم ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيصق في وجه الحكومة التي يتقاضى مرتبه من أموالها بالطعن على دين رعيتهما من أقلية وأكثريّة، وأن على الذين يريدون حرق بخور الإلحاد، أن يحرقوه في قلوبهم، أما أن يطلقوه في أجواء دور العلم ومنابر الجامعة، فهذا ما لا يمكن أن يفهم بحال من الأحوال".

كذلك ينقل البنا جزءاً من نص كلمة للشيخ القاياتي، جاء فيها: "لقد جاء في هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن، ونسبة جريمة للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه متحايل، وكذب صريح على التاريخ لا يجوز أبداً أن يهمل، ولا أن نترك صاحبه دون تدقيق معه في البحث ويكون حسابنا معه عسيراً، إن الدولة أعلنت في دستورها أنها دولة إسلامية، وإن دولة إسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها أن تجرح، لهي دولة أعوذ بالله أن تكون مصر من أمثالها.

وينتهي البنا في مقاله هذا، بالإضافة إلى دعوة العقاد بأن يتخلى عن الدفلع عن طه حسين، إلى توجيه الدعوة ملحاً إلى أطراف القضية من النواب ووزير

المعارف استناداً إلى أن الكتاب "مبتذل ممقوت، والمؤلف متهم في عقيدته ومادته، والأدباء غيره كثير،" ومن ثم فلا مناص من أن تعدموا الكتاب، ويطالبهم كذلك "واقصوا المؤلف عن بث تعصبه على الإسلام في أبنائنا .. وأيدوا الحق وأريحوا الطلبة والأمة من هذا العبء الثقيل".

وهكذا تمر الأعوام والسنون، والحديث عن هذا الكتاب لا ينقطع، وتلك ميزة الأعمال الفكرية العملاقة مهما اختلفنا مع بعض ما جاء فيها.

إعصار في الفكر العربي الحديث*

- ماذا تقول هذه النظرية ؟ لقد لفت نظري عبارات غريبة تقول : إن الإنسان سلالة حيوانية ، أو شيئاً من هذا القبيل ، أحق هذا ؟
* هذا ما تقرره هذه النظرية .

- و آدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟

* دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن " سيدنا " آدم ...

- لقد كفر دارون ووقع في حبال الشيطان ، إذا كان أصل الإنسان قرداً أو حيوان آخر ، فلم يكن آدم أباً للبشر ... هذا هو الكفر بعينه ، هذا هو الاجترار الوقح على مقام الله وجلاله ! إلا أني أعرف أقباطاً ويهوداً في الصاعقة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم ، فمن أي ملة دارون هذا ؟ إنه كافر ونقل كلامه استهتار ، خبرني أهو من أساتذتك بالمدرسة ؟

* دارون عالم إنجليزي مات منذ زمن بعيد ...

هذه (لقطه) من حوار نراه في الجزء الثاني من رائعة نجيب محفوظ (بين القصرين) يصور مقدار ما تركته نظرية التطور من آثار في فكر متقفينا في مطلع القرن العشرين ، وما أدت إليه هذه الآثار من فزع كبير لدى قطاعات عريضة من المجتمع ، لعل أبرز دواعيه ، هو ما تصوره البعض من أن هذه النظرية تؤدي إلى الشك في معتقدات دينية أساسية خاصة بخلق الإنسان .

ولم يمر هذا التأثير بتلك النظرية بسلام ، لا من ناحية الأبناء والأمهات والمحافظين على وجه العموم ، وإنما من ناحية (الاطمئنان النفسي) لشباب المتعلمين أنفسهم ، فهذه التساؤلات التي عبر عنها الأب (السيد أحمد عبد الجواد)

* مجلة الهلال ، أبريل ١٩٨٨

قد عرضت كذلك على ذهن ابنه (كمال) مرات ومرات ، كان من جرائها لا يكاد يرى للنوم سبيلاً إلى عينيه " لم يكن دون أبيه انزعاجاً ، ولم يغمض له جفن ليلتها حتى الصباح ، وتقلب في الفراش متسائلاً عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشراً : القرآن إما أن يكون حقاً كله أو لا يكون قرآناً ، انك تحمل على لأنك لم تدر بعدابي ، ولو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة .

ولم تكن الكتابة في مثل هذه القضية عملية سهلة ، وإنما سبقها كذلك صراع داخلي عنيف " لقد تردد طويلاً قبل أن يرسلها إلى المجلة ولكنه كأنما يود أن يعنى إلى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواطف الشك التي أرسلها المعري والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الجديدة فكانت القضية . " على أنني لست كافرًا ، لا زالت أو ومن بالله" .

وأمام لوعة الأم فيما تصورته من تردي ابنها في هذا الفكر (المنحرف) " فقد وعدها في سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ، يلي، وسيكون في تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان في إيمانه به ، فما الدين الحقيقي إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفاً وراء تلك الليلة العاصفة - التي صارع فيها الجهل حتى صرعه - حداً فاصلاً بين ماضٍ خرافي وغد نوراني ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة ."

ولا شك إن مثل هذا العذاب النفسي والاجتماعي الذي عانت منه قطاعات عريضة من شباب المثقفين في مجتمعاتنا ، فإنما كان ذلك لأنهم كانوا مشدودين إلى العقيدة الدينية الإلهية . لكن كانت هناك قطاعات أخرى لم تنق طعم هذا الصراع الفكري ، ذلك لأنهم تخلوا عن الفكرة الدينية كلية واختاروا ما فهموه عن العلم حتى ولو تعاوض - كما كانوا يظنون - مع العقائد الدينية الأساسية السائدة سواء في

الإسلام أو المسيحية .

ولعل أبرز الأمثلة لمثل هذا الفريق المفكر الشهير (شبلي شميل) .. والى حد كبير (سلامة موسى)

ففي سنة ١٨٧١، كان شبلي يدرس الطب في المدرسة الكلية السورية ، حيث سمع عن قيام رجل يدعي أن أصل الإنسان من القرد ، فلم يتحر هذا القول ، ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحمله على التبصير فيه ، يقول شبلي : " وغاية ما أذكر إني لم أسمع به حتى أظهرت اشمنزازي منه ومن قائله الذي اعتبرته حينئذ دعياً ما خالف إلا ليعرف " ص٢٦ من مقدمة الطبقة الثانية لكتابة (فلسفة النشوء والارتقاء، طبقة المقتطف بالقاهرة ١٩١٠) . ولا عجب ، فإن الكيفية التي ذكر له فيها والتي يذكره بها دائماً خصومة من أن القرد أصل الإنسان لا يمكن أن تحدث في مسامعها لأول مرة وهو منتشر بالاعتقادات المخالفة ، إلا نفورا ولو أن في نوع الإنسان من هو " أخط من القرد بكثير " ، وهو سلاح يفتريه خصوم هذا المذهب لتحقيره ، وإلا فمذهب دارون لا يقول أن القرد أصل الإنسان وأن الحمار أصل الفرس ، بل أن الإنسان والقرد والفرس وسائر الأحياء في الطبيعة قاطبة - وفقاً لهذا المذهب - من أصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة ، وبمجرد قواها ، وقد تغيرت تبعاً لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن الانتخاب الطبيعي .

ثم مرت الشهور ولا يذكر شبلي أنه عرف من هذا المذهب شيئاً جديداً حتى نسيه . ومن الغريب أنه بعد ذلك بزمان عند نيله الشهادة كان موضوع خطابه المدرسي النهائي " اختلاف الحيوان والإنسان بالنظر إلى الإقليم والغذاء والتربية " وقد جاء فيه بكثير مما يتفق مع هذا المذهب وهو لا يقصد فكان كالذي يقول النثر وهو لا يدري .

ولكن الذي لم يقصده في ذلك الحين لم يلبث أن صار موقف أفكاره وموضوع حديثه وغرضه في كل كتاباته بعد مبارحته المدرسة ورحلته إلى أوروبا وإطلاعه على هذا المذهب في مؤلفات أصحابه ، ويبدو أن تربية شبلي الأولية

واطلاعاته السابقة ، كانت تربة مناسبة هيأت للبذور الجديدة إن تجد بيئة خصبة للنمو والترعرع .

وكان من الطبيعي أن يعمم شبلي نتائج نظرية التطور على الظواهر الأخرى حتى ولو كانت من الظواهر النفسية والاجتماعية ، لذا نجده يعتبر علم النفس فرعاً من علم الفسيولوجيا " فيجب النظر في العقل كالنظر في وظائف الأعضاء باعتبار أنه عمل مادي ، فكل ما يتطرق إلى المادة من نواميس النشوء والتحول ، ويؤثر فيها ، يؤثر في العقل نفسه الذي هو ليس إلا أفعال الدماغ " ص ٢٧ ، ومن هنا فقد رأى أنه إذا كان للإقليم وسائر نواميس المطابقة والانتخاب الطبيعي والوارثة شأن عظيم في تكييف الأعضاء الحية وأثر لا يحصى إلا في الأجيال المتباعدة إذا تغيرت الأحوال ، فللتربية والتعليم والعادات والاعتقادات وكل ما يؤثر في الأخلاق أثر في العقول أيضاً لا يزول إلا بمثل تلك الصعوبة حتى لقد يزول من الأبناء أثر ما في الآباء من الأجداد ثم يعود ويظهر في الأحفاد لرسوخ ذلك في الطبائع وحدة تكييفها به .

وإذا كان شبلي قد كتب ما يغير مجرى الأفكار غالباً أو جدد الانتقاد أحياناً ، فليس لأنه كان يطمع بأن يرد الناس إليه في هذا الزمن القصير وهو لا يجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات بل لأنه قصد مباحثة الأفكار للفتها إلى غير مألوفها ، وإن كان لا يجهل أن إلقاء الحجر في المستنقعات الراقدة لا يقلق الضفادع المطمئنة إلا ريثما ينقضي حذرهما فتعود إلى نقيقتها ، إلا أنه لا يجهل فعل الخمير المخمر ، فإن أقل ما يعلق بالعقول حينئذ من أثر الأفكار المخالفة ينمو فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسه خصوصاً إذا صادف استعداداً في النفوس كامناً فيها ، فيكون مثل هذا التنبه له بمثابة الشرارة في إثارة كامن القوى المتجمعة .

ولما كان القول بمذهب النشوء يستلزم ضرورة القول بمادية الكون لم يكن تقريره من السهل لدى صاحب المبدأ الحيوي لصعوبة تأييد التولد الذاتي بالوسائل التي أتاحت فيما بعد وقد استمسك خصوم المذهب ومنكروه بهذا ، وبلغ التحمس

في المناظرة بين الفريقين حد حدته بين سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها دارون كتابه في أصل الأنواع سنة ١٨٩٠ وهي السنة التي بدأت جلبتهم فيها تخف. وكان جل اعتراضهم أن التولد الذاتي لم يثبت علمياً ، ولكن شميل يسخر من هذا فيعلق : " كأن هذا الاعتراض لا يجوز على سواهم ، فإن كان أصحاب النشوء لم يبرروا حيا نبت من غير حي ، فهل رأى أصحاب الخلق إنسانا خلق من غير إنسان ؟ فكلاهما في جواز الاعتراض العلمي سواء " ص ١٨ .

وقد علا هتاف أصحاب المبدأ الحيوي لما قام باستور واكتشف سر الاختمار وأنه ناشئ عن جراثيم أي أحياء دنيا لا ترى بالمناظير المتعلقة . على أن ليأذ أصحاب المبدأ الحيوي بجراثيم باستور لم يقدم شيئاً أن الأحياء الدنيا أجسام تامة التكوين مختلطة التركيب قديمة العهد ليست الأولى في سلم الأحياء وأن حل مسألة التولد الذاتي يجب أن يبحث عنه فيما هو أدنى منها مما قد تعجز عنه المناظير التي كانت قائمة .

وأول من ذكر مذهب باستور في الجراثيم باللغة العربية (المقتطف) أقدم مجلة عربية علمية وذلك سنة ١٨٧٩ ، ولكنه ذكره في عرض الكلام على تأييد مذهب الحيويين ونقض مذهب الماديين اتفاقاً مع الآراء الغالبة في ذلك الحين ، كما أنه أول من نقل إلى هذه اللغة أيضاً كلاماً لبعضهم في مذهب دارون في النشوء ولكن لنقضه على أسلوب يوافق أصحاب مذهب الخلق ، ومع ذلك لم يسلم من الانتقاد .

والحق يقال أن الوسط الذي كان المقتطف مقيماً فيه كان يجعل مركزه محفوظاً بالمصاعب ، على أنه في المسائل العلمية الهامة لم يسلك مسلك التشيع الأعمى ولم يوصد في وجه الباحثين ، حتى أشدهم مباينة لآرائه ، باب الانتقاد ونشر الآراء الجديدة بحرية تامة فكان له بذلك فضل في إعداد الأفكار في العالم العربي لقبول زرع العلم وما كان اعتداده أحياناً في مقاومة آراء خصومة إلا فضلاً له أيضاً جعل هذا الإعداد أتم بحمل العقول على التوسع في الروية للانتقال بها من

الرضوخ المغلق إلى التفكير والبحث قبل التسليم .

وقد قرر شبلي أن يخوض غمار البحث القائم غير حافل بالمصاعب التي ستعرضه في هذا السبيل وأن ينفحه بتلك الصراحة الجازرة " التي لم يكن قد ألفها الجمهور بيننا منكبا على خطة الذين يرون أن الحكمة إنما هي في المصادرة العنيفة لما يحدث فيها من الرجة القاصرة لتسهيل انتقال الإنسان في العمران من حال إلى حال ، وما حاله التي هو فيها عنوان السعادة وما كانت في الماضي مما يؤسف عليه " ص ٢٤ .

فبادر شبلي المقتطف بكلام وجيز انتقد عليه انحيازه إلى مبدأ الحيويين واعتباره مذهب باستور خصوصا مؤيدا لهم ناقياً القول بالتولد الذاتي وهو لا يؤيد قولاً ولا ينفي آخر فيما يذهب مفكرنا . وكأنه جهل مركزه أو تجاهله فختم كلامه بتوجيه الخطاب إلى منشئه قائلاً " ومنلكم لا يسامح على ذلك وأنتم بجانب كعبة العلم " وقد ردّ عليه المقتطف بمقال عنوانه " الحياة حيرة العلماء " وختمه بقوله " لو قعدت كعبة العلم التي نحن بجانبها مقعدنا لما استصوبت إلا آيتنا " .

وفي سنة ١٨٨٤ نشر شبلي الطبعة الأولى من كتابه تحت عنوان : (شرح بخنر على مذهب دارون) ، وقد أحدث نشره يومئذ لغطا عظيما مع أنه لم يطبع منه إلا خمسمائة نسخة ولم تتفد إلا بعد خمس عشرة سنة ، لغطا كان قليله من الخاصة المعدودة ، فقاموا ينفونه كله أو بعضه كل على قدر علمه أو حسب هواه ، وكثيره من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لاعن مطالعة لأنهم سمعوا أن هذه الرجة التي حصلت هي المقصودة مني في ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق والحركة مهما كانت خير من السكون ، ومن هنا نحن الشرقيين اليوم أولى بهزة تصل فينا إلى أعماقنا وقد تقادم علينا السبات حتى يتنا في رتبة في صف الأحياء لا هي بالميتة فتدفن جنة هامة ولا هي بالحية فتبعث بشراً سوياً " ص / د .

أما سلامة موسى فقد دخل مضمار (التطور) في وقت لاحق وإن لم يكن

متأخراً ، وهو يروي في الكتاب الذي رسم فيه معالم نشأته وتكوينه بعنوان (تربية سلامة موسى) أنه لما ترك مصر إلى فرنسا سنة ١٩٠٧ ، كان " التطور " من مركباته الذهنية البارزة ، بل المركب الأول حتى أنه عندما هبط باريس ، جمع طائفة من الكتب التي تعالج هذا الموضوع ، لكنه لم يستطع فهمها وقتئذ لأنه أساء الاختيار فلم يقن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم يجدها ، فلما قصد إلى لندن وجد العشرات من هذه الكتب الابتدائية ، وكانت جمعية (العقلين) تنشرها وتبيعها بأثمان التراب ، بسعر ٢٥ مليما لكل كتاب ، فأكب عليها في دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات ، بطبيعة الحال ، قرأ كتاب (أصل الأنواع) لدارون الذي أكد أنه لا يحتوي على ما يشف على الفهم ، وإن كان يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير بطبيعة الحال .

وليس من شك أن حب سلامة موسى لدارون الذي كثيراً ما كان يؤكد عليه ويصرح به ، وتحيزه لنظرية التطور ، قد تركا أثرهما في أسلوبه الكتابي ، فقد قيل أن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقي للمؤلف بل يكشف عنه ، أي يدل على الاتجاه التفكيري وإيثار بعض القيم على بعض . وسلامة موسى يؤثر أسلوب دارون : أسلوب المنطق الصارم ، والحذر ، والاعتدال ، على أي أسلوب آخر يوصف بأنه أدبي وكثيراً ما وصفه الكتاب في مصر بأنه ليس (أدبياً) لأنهم لا يجدون عنده تلك الزخارف والتزاويق المألوفة عند غيره من الكتاب .

ويقارن سلامة بين الأسلوب الأدبي كما يجده لدى اوسكار وايلد وجون روكسين وكارليل ، والأسلوب العملي كما وجده عند دارون ، فيؤكد انحيازه إلى الثاني ، وإن نبه إلى أن هذا لا يعني تأثره وإعجابه بالأسلوب الأول ، لكنه تأثر وإعجاب يستمر لحظات ثم يذهب أدراج الرياح ... إنه لا يترك ما يسميه " بالمركبات الذهنية " تلك التي تحفر بعمق في مجرى التفكير ، وحين يقرأ لمثل هؤلاء الأدباء " أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفحصون ، فأجد اللذة العابرة في أسلوبهم ولكنني أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين ، والمفكر الأساسي عندي هو دارون الذي يتحدث في اعتدال وحذر وأسلوبه هو الأسلوب الرصين " ص ١١٨

ولم يقف أثر نظر التطور على سلامة موسى عند حد الأسلوب ، وإنما تعداه إلى المضمون وخاصة من ناحية الدين ، وهو يختلف عن شبلي شمیل من حيث الاعتدال إلى حد ما وحدة الطريقة التي يسوق بها فكرته هنا ، وعندما نقول (الاعتدال) فإنما نقصد (الشكل) الذي يعبر به عن آرائه وأفكاره بهذا الخصوص قياساً إلى شبلي شمیل ، وإلا فإننا لا ننسى تهجمه وجرأته على كثير من الأفكار التي مست معتقدات أساسية في مجتمعاتنا العربية " أذكر وأنا دون العشرين ، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينياً في نفسي ، وأنها قد حملتني واجباً روحياً ، وقد نما هذا الواجب في نفسي إلى واجبات .

ومع أن سلامة موسى نشأ في المسيحية واحتضنته الكنيسة أيام طفولته وصباه ، إلا أنها كانت في تلك السنين الأولى من عمره " في جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربي الضمير " . وليس من شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت بعد ذلك نهوضاً ملحوظاً ، ومن هنا فقد تغير إحساس سلامة نحوها تغيرات مختلفة ، فقد عزف عنها أيام الشباب " لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسي ، ثم عدت إليها في حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها ، فأصبحت الكنيسة القبطية عندي كنيسة قومية مصرية ، ولكن لم يكن هذا دين ، إذ كان كل هذا إحساساً تريخياً ص ٢٥٠ .

وينظر سلامة موسى إلى جميع الكتب المقدسة على أنها سواء ، لكنه يضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى في الفلسفة والأدب ، وكذلك يقول إن بعض ديانته يرجع أيضاً إلى (جمهورية افلاطون) وإلى (الإنسان والسوبرمان) ليرنارنشو ، وإلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستوفيسكي ، وإلى أختاتون " فقد زودوني هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية " ، وهو بهذا يقدم مفهوماً للدين يختلف تماماً مع ما هو مقرر في الأديان السماوية ... إنه هنا إطار فكري تراكمي مكتسب من جملة من أفكار وآراء ومعتقدات شتى ، يتم عن اختيار ، وينمو بسرور الزمن " ما أحب أن أوضحه هو أن الدين عندي كان تربية بطيئة لم

أصل بعد إلى نهايتها ، ولكنني في سبيلها ، والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربي وتوجه . ص ٢٥٦

وعندما بلغ سلامة موسى سن الستين عام ١٩٤٧ ، كتب متمنيا أن يعيش عشر سنوات تالية لأن هناك برامج وأمان ثقافية يتمنى تحقيقها ونجد من هذه البرامج والأمني أنه لم يكف عن تأليف كتب مقلقة مثل (نظرية التطور) أو (حرية الفكر) " خمائر صغيرة أبعثها في أنحاء الوادي وغيره ، إلى الأقطار العربية ، كي أززع التقاليد السوداء وأحرق العفن الذي تركته على العقول المطموسة " ، ومن مسرات حياة سلامة " أن أجد أن مؤلفاتي تسري في الجسم الاجتماعي على مهل وفي غير عنف ، فيأخذ التطور مكان الجمود ، والنزعة الارتقائية مكان الرجعية الجامدة " ص ٢٩١ .

وهكذا كان من المستحيل أن تتحبس الأفكار العلمية الجديدة في نطاق موضوعاتها في الأحياء كما يدرسها علماء البيولوجيا ، وإنما امتدت إلى شئون الاجتماع والدين والاقتصاد ، فصادمت ثوابت الكيان الحضاري العام مما أدى إلى إخفاق ثورتها الفكرية . لقد مرت هذه الثورة الفكرية في حياة الفكر العربي - فيما لاحظ محمد جابر الأنصاري بحق ، ومضة خاطفة ما لبث أن خبت بالسرعة ذاتها ، دون أن تمر - شأن النهضة الفكرية - بأدوار نضج واستقرار ، وبدأ لأحمد أمين - كأحد شهود تلك الثورة - أن نموها وتطورها لم يخضعاً لسنة النشوء والارتقاء بل لسنة التدهور والانحطاط ، أما السبب في نظره ، فمرده إلى عامل (الرأي العام) الذي كان قوياً مسلحاً فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة .

لكن هذا الذي سماه أحمد أمين فشلاً وانهزاماً لم يكن كذلك ، وعصرنا الحاضر شاهد على ذلك ، وإنما هو إفساح الطريق لاتجاه رأي إن في مثل هذه الأفكار التي سقنا أمثلة لها من فكر شمائل وسلامة موسى وكذلك في الاتجاه المضاد لها والمنكر تماماً لمقولاتها ، رأى في كل منهما غلوا علمياً مكروها ، ومائل كثيرين إلى هذا التيار الوسطى كما يسميه البعض ، أو " التوفيقى " كما يحلو

لبعض آخر أن يطلق عليه .

ويعبر توفيق الحكيم عن هذا الموقف (التوفيقى) في " تحت شمس الفكر
" فيقول : " إنني كلما تأملت شخصية (محمد) - صلى الله عليه وسلم - مجردة ،
ثبتت إيماني بأن الخصومة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وإن للدين
الحق لا يعارض الحق ، بل أن للدين والعلم شئ واحد ."

دور المجلة الثقافية في النهضة العربية الحديثة

دراسة حالة لمجلة (المنار)*

أياً كان موقف المثقف من مجلة المنار التي كان يصدرها محمد رشيد رضا، سواء كان هذا الموقف معبراً عن مناصرة أو مخالفة، فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر تأثيرها واسع المدى على عدد غير قليل من مثقفي الوطن العربي طوال فترة تزيد على ربع القرن.

كانت قد سبقتها إلى الوجود أشهر مجلتين ثقافيتين، الأولى، مجلة المقتطف التي ظهرت عام ١٨٧٦ لمنشئها يعقوف صروف، وفارس نمر، والثانية مجلة الهلال، التي ظهرت عام ١٨٩٢، على يد جرجي زيدان. ويلاحظ القارئ أن المجلات الثلاثة: المقتطف والهلال والمنار أنشأها غير مصريين، قدموا من بلاد الشام، كما كان يطلق على سوريا ولبنان، استثماراً للحبوية الثقافية في مصر في ذلك الحين على الرغم من وقوعها في برائن الاحتلال البريطاني، بينما كان عرب المشرق يننون تحت مظالم الحكم العثماني، وكان من مصلحة سلطات الاحتلال البريطاني أن تحتضن مصر مثقفي الشام في تلك الفترة.

وإذا كانت كل من مجلة المقتطف والهلال، وخاصة الأولى، تحتضن اتجاه (التحديث) وخاصة في ثمرات العلوم الطبيعية والرياضية، فإن مجلة المنار كانت عنايتها الكبرى تتركز في (تحديث الفكر الديني) متابعة لدعوة كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

وكانت المنار مجلة (فردية) أي يحمل مسئوليتها فرد هو الشيخ محمد رشيد رضا، ولم تصدر عن مؤسسة، حيث كانت ظروف الطباعة وتكاليفها على درجة من البساطة بحيث تسهل ذلك، هذا فضلاً عن الطابع الفردي الذي وسم كثيراً

* مجلة الهلال في مايو ١٩٩٦.

من الأعمال والمشروعات في هذه الفترة.

وإذا كنا قد اعتدنا أن نسمع أو نقرأ لكثير من أصحاب الأعمال والمشروعات الثقافية أنهم فعلوا ما فعلوه ابتغاء (وجه الله)، دون أن يعكس هذا القول حقيقة الحال، فإن القارئ لتقديم رشيد رضا للطبعة الثانية للمجلد الأول للمنظر يستطيع أن يشهد بالمسيرة الطويلة للرجل والمجلة، على أن درجة الصدق مرتفعة إلى حد كبير، يقول صاحبنا:

" إنني لم أنشئ المنار ابتغاء ثروة أتأثلها، ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي به الأقران، وأباري به أعلیاء الشأن، بل لأنه فرض من الفروض يرجى النفع من إقامته، وتأم الأمة كلها بتركه، فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكنت أن أصبحت هذا بحسب علمي واجتهادي فسيان رضي الناس أم سخطوا، مدحوا أو ذموا، قبلوا المنار أو رفضوا".

كان صدور العدد الأول، يوم الثلاثاء ٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ الموافق ١٥ مارس ١٨٩٨م موسومة بأنها (جريدة علمية أدبية سياسية). وكان صدرها أسبوعياً، ذات صفحات ثمان كبيرة.

طبع من الأعداد الأولى ألف وخمس مائة نسخة، أرسل المحرر أكثرها إلى من عرف أسماءهم في البلاد المصرية والسورية، وكذا في غيرها من البلاد (وهو الأقل)، فأعيد إليه أكثر ما أرسله إلى المصريين، وما لبثت الحكومة العثمانية أن منعت ما يرسل إلى السوريين وسائر العثمانيين. ومن هنا فقد أنقص رشيد المطبوع إلى ألف نسخة، ولكن مرت السنة وستان، وما كاد المشتركون يزيّدون على ثلث الألف إلا قليلاً.

لكن هذا الاستقبال الفاتر لم يثن رشيد عن الاستمرار في مشروعه، يقول: " ما كان انتقاص عملي منتقاصاً أملّي، ولا زهد الأمة في المنار، باعثاً على جعله طعاماً للنار، ولا لفائف لبضائع التجار، كما هي سنة أصحاب الصحف في هذه الديار، بل كنت أحرص عليه، حاسباً أن الناس سيعودون إليه".

وكان ما يشجع على هذا الاستمرار، ما كان يسمعه من بعض أهل الرأي والعلم بحركة الاجتماع البشري والثقافة، من أن هذا المنار إنما يسد حاجة من حاجات المسلمين في هذا العصر، ولا يستغني عنه بيت من البيوت، فإن لم يفقهوا هذا اليوم، فسيفقهونه في يوم من الأيام. واستشهد رشيد في هذا برجلين من غير المسلمين، أحدهما إنجليزي، كان يقرأ له المنار، رب السيف والقلم المعروف: محمود سامي البارودي، والآخر سوري من قرائه. قال إن المسلمين سيبحثون عن المنار ويعنون بإعادة طبعه بعد خمسين سنة. ولم يدر رشيد أكانا يظنان حين قالوا كلمتهما أن المسلمين لا يستيقظون لطلب هذا الإصلاح إلا بعد خمسين سنة أم كانا يعينان أن المنار لا بد أن يكون قد بطل في هذه المدة بموت صاحبه أو عجزه، فيبحث الناس عنه لأنهم في الغالب لا يعرفون قيمة الشيء إلا بفقده، ولا يعترفون بقدر العامل إلا من بعده.

لكن رشيد يعبر عن غبطته لأن الأجل الذي حدده صاحبانا المشار إليهما قد أصبح أقرب مما حدده رأيهما، إذ أعاد رشيد طبع مجموعة السنة الأولى، بعد عشر سنوات وأوشك أن يعيد طبع الثانية والثالثة أيضاً حيث قلت نسخهما وغلا ثمنهما.

وإذا كان المنار في السنة الأولى ذا ثماني صفحات كبيرة، فإنه عند إعادة طبعه أصبح بشكل المجلة حيث كان قد أصبح كذلك منذ السنة الثانية. ويعترف رشيد بأن المنار في سنته الأولى يكثر من (الخطابيات)، إلا أنه يبرر ذلك بأن هذا كان أمراً مقصوداً "لتنبيه الأذهان وإعدادها لما هو آت". وكذلك عمد إلى الاكتفاء في أكثر المسائل (بالإجمالي) وما كان ذلك إلا "لتهيأ النفوس لطلب التفصيل".

ولم يكتف رشيد بهذا التبرير لنهج المنار الأولى، بل ساق أمثلة من القرآن الكريم في انتهاج أسلوب الإجمالي قبل التفصيل و" قرح الأذهان بالخطابيات الصادرة"، فأكثر السور المكية، ولا سيما المنزلة في أوائل البعثة "قوارع تصوخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفرغ القلوب إلى استشعار الخوف، وتدع العقول إلى

إطالة الفكر". لقد أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين، إذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم وإفكهم، ويأخذوا بتلك الأصول المجملية، التي هي السمحة السهلة، وليست بالشيء الذي ينكره العقل أو يستنقله الطبع، وإنما ذلك لتقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد.

ويدعو رشيد القارئ إلى مراجعة تلك السور العزيزة، ولا سيما قصار السور منها كالحاقمة ما الحاققة، والقارعة ما القارعة، وإذا وقعت الواقعة، وإذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، والذاريات نروا، والمرسلات غرقا، تلك السور التي كانت بنزرها، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها تفزعهم من سماع القرآن، حتى يفرّوا من الداعي صلى الله عليه وسلم من مكان إلى مكان، كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة، ثم إذا ما راجع القارئ السور المكية الطوال، لن يجدها تخرج في الأوامر والنواهي عن حد الإجمال، كقوله عز وجل "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..." وقوله بعد إباحة الزينة وإنكار تحريمها وتحريم الطيبات من الرزق قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون".

إن تأمل هذا يجعل القارئ يفهم هذا النهج الذي سارت عليه المنار في أعدادها الأولى، وخاصة بالنسبة إلى المقالات الافتتاحية التي كان رشيد نفسه يكتبها. إن القارئ لها سيجد أنها "زواجر منبهة، وبيانات في الإصلاح مجملية، ترشد المسلمين إلى النظر في سوء حالهم، وتتنذره من الخطر المهدد في استقبالهم، وتذكرهم بما فقدوا، وإيجاد ما لم يجدوا، بطريق الإجمال، في أكثر الأحوال، وما جاء في سائر السنين، فهو من قبيل التفصيل، أو إقامة البرهان والدليل، على تلك الدعوة الإجمالية، والمقالات الافتتاحية".

وما هو العدد الأول، ومن سطورهِ الأولى، تطالع أعيننا هذا النهج الخطابى الصارخ، فبعد أن حمد الله وتوكل عليه وأتاب إليه، يعلن رشيد رضا أن هذا: "صوت صارخ بلسان عربي مبين، ونداء بالحق يقرع مع جمع الناطق

بالضاد مسامع جميع الشرقيين، ينادي من مكان قريب يسمعه الشرقي والغربي،
ويطير به البخار فيتناوله التركي والفارسي،

يقول: أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذائذ أحلامه، حسبك
حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتاً زواماً، تنبه من
رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض
غير الأرض، ودخل الإنسان في طور آخر خضع به العالم الكبير".

ثم يجمل رشيد الأهداف التي من أجلها أصدر المنار، محمداً مهمتها
التقافية في حركة النهضة التي عادت إلى الاستيقاظ بعد صدمة الاحتلال
البريطاني. والقارئ لهذه الأهداف يلحظ الحيطة والحذر، وخاصة الجانب السياسي،
فالمجلة غرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين، وليس "الحط على الأمراء
والسلاطين"، وهي تسعى إلى الترغيب في تحصيل العلوم والفنون، وليس
"الاعتراض على القضاة والقوانين" . وهو يؤكد أن منهج الاطلاع لديه، متابعة
في ذلك نهج أستاذه محمد عبده، يعتمد على الإصلاح الثقافي والتربوي بالدرجة
الأولى، ولذلك فالمجلة تسعى إلى "إصلاح كتب العلم وطريقة التعليم". وهي في هذا
لا تتوي الوقف موقفاً عدائياً من الحضارة الغربية بجملتها، فهي تستهدف "التشيط
على مجارة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة".

وهي تؤمن بأن (المسألة الاقتصادية) ركن أساسي في عملية النهوض
الحضاري، ولذلك فهي تهدف إلى "طروق أبواب الكسب والاقتصاد".

ولأن عملية البناء تحتاج في البداية إلى عملية فحص نقدي ثقافي لتراكمات
عهود التخلف والضعف، كان لابد من "شرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة،
والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها، والتعاليم الخادعة التي لبست
الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل".

ولعل هذه القضية الأخيرة بالذات كان التأكيد عليها نظراً لما أدت إليه من
مفاسد لا حصر لها "حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً، وترك
الأعمال المفيدة توكلاً، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً وإيذاء المخالف في المذهب

دينا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً، والذلة والمهانة تواضعاً، والخنوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليماً، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً.

وإذا كان رشيد قد أشار إلى المسألة الاقتصادية إجمالاً في البداية، إلا أنه يعود مرة أخرى ليؤكد على أهمية هذا الجانب بصفة خاصة إيماناً منه بأن "الشركات المالية هي مصدر العمران، وينبوع العرفان وأن عليها مدار تقدم أوربا في الفنون والصنائع، لا على الملوك والأمراء"، وكذلك لأنها تملك القدرة على إنشاء المدارس والمكاتب والمعاهد، وتملك إمكانية تشييد المعامل والمصانع، وتسيير المراكب والبواخر، والأمثلة على هذا تحيط بنا في كل زمان وكل مكان.

وإظهاراً لنهج (الاعتدال) أكد رشيد أن المجلة وهي تشخص العلل والأوجاع الاجتماعية، لن تقف عند حد العويل والبكاء، وإنما تسعى إلى وصف الدواء واقتراح الحلول، وفي الاعتبار "تأليف القلوب المتفارقة، ووصل العلائق المتقطعة، وجمع الكلمة المتفرقة ما استطاعت".

وإذا كانت الملل متباينة، والمذاهب متفرقة، فإن المنار تحاول "إقناع أرباب النحل المتباينة، والمذاهب المختلفة، أن الله تعالى شرح الدين للتحاب والتواد، والبر والإحسان، وأن المعارضة والمناهضة والمواثبة، تفضي إلى خراب الأوطان وتفضي على هدى الأديان".

وبطبيعة الحال، فإن ذلك لم يمنع رشيد من التصريح بأن هدف المجلة سيجعل محور جهودها متجهاً إلى التمسك بالدين والدعوة إليه على أساس أنه "أساس السعادة وأن الكفر فساد العمران"، ويتطلب ذلك درء الشبه الواردة على الشريعة الإسلامية وحض مزاعم من قالوا: أنها حجاب كثيف وسد حائل بين الأخنين بها وبين المدنية الصحيحة "جهلهم بما انطوت عليه من الحكم الرائعة والأحكام العادلة".

ويلفت النظر ذلك الغزل الواضح من المنار للسلطة السياسية وخاصة في دولة الخلافة العثمانية، فهو يصف توجه المجلة بأنها "عثمانية المشرب حميدية

اللهجة - نسبة إلى السلطان عبد الحميد - تحامي عن الدولة العليا بحق - وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق".

ويبدو أن هذه اللهجة كانت لمجرد السعي إلى إيجاد حالة اطمئنان أولي تتيح للمجلة الظهور والانتشار، ذلك أن المتابع لمسيرة المجلة يستطيع أن يلمس أن رشيد لم يكن ممالئاً ولا منافقاً.

ولعل القضية الأولى التي عرضت لها المنار في أول أعدادها كانت برهاناً صادق على ما أعلنته من أهداف تسعى إليها.

أما القضية فهي تتعلق بمصطلح كثر الجدل والنقاش حوله في ذلك الزمن وهو (الطبيعة)، فنتيجة لما ذهب إليه بعض المفكرين الغربيين من أن الطبيعة ليس لها ما وراءها من قوة خالقة، وأن المخلوقات إنما هي نتيجة توالد ذاتي، أصبح البعض يسمي هؤلاء (بالتنشيين) - نسبة إلى المعنى الإنجليزي لكلمة "طبيعة Nature"، اكتسبت الكلمة بذلك سمعة سيئة عند المتدينين، وسماهم البعض (بالدهريين)، ومن هنا كان تأليف جمال الدين الأفغاني رسالة في الرد عليهم.

وحتى لا تختلط المفاهيم وتضيع المعالم بين الحق والباطل، أخذ رشيد يشرح مفهوم الطبيعة، فهي في اللغة تعني الخلق والخليفة والفطرة، فخلق الله الأشياء وفطرها وطبعها واحد، فإذا كان البعض قد تصور أن وصف عالم بأنه (طبيعي) يعني أنه ملحد، فإن رشيد يستكر هذا، فالطبيعي هو منسوب إلى الطبيعة ويستعمل في مقابلة الصناعي، فيراد به ما لا صفح للبشر فيه، ويطلق على العالم بالفنون الطبيعية وإن كان متديناً "ولا يطلق على الملحد من حيث أنه ملحد وأن نسب الأشياء إلى الطبيعة وأعتقد أنها موجودة لها ومؤثرة فيها من دون الله تعالى، بل يطلقون على من هذا شأنه لفظ الكافر والدهري والمادي".

وأهمية هذا البيان تتضح لنا مما روي أن الشيخ محمد عبده - والبعض ينسب هذه الرواية إلى الشيخ المراغي - خشي من معارضة مشايخ الأزهر علم (الطبيعة) في مناهجه زعماً بأن هذا العلم ينسب الخلق إلى الطبيعة ذاتها لا إلى الله عز وجل، ومن هنا فقد سُمي هذا العلم : (علم خواص الأشياء التي أودعها الله في

الأجسام).

ثم ينتقل رشيد إلى قضية تزعجنا في الفترة الحالية ألا وهي قضية (التكفير) التي أصبحت سيفاً يرهب به البعض مخالفيهم في المذهب أو العقيدة، أو حتى الرأي، يقول رشيد أننا لا ينبغي أن "نطلقه على المخالفين لنا في الدين من أصحاب الملل الأخرى لأنهم ليسوا كفاراً بهذا المعنى (الإلحاد) بل نقوم بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعاً لأنه صار في هذه الأيام من أبيض الشتائم وأجرح سهام الامتihan، وذلك مما تحظره علينا الشريعة باتفاق علماء الإسلام".

ذلك أن معنى الكفر في أصل اللغة الستر والتغطية، وكانوا يسمون الليل كافراً لأنه يغطي بظلامه الأشياء، وأطلقوا لفظ الكافر على طلع النخل وأكمام النور (الزهور) لما ذكر، وعلى البحر لأن الشمس تغيب فيه بحسب الظاهر وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدروع يقولون له كافر الدروع. وقد سمي القرآن العظيم الزراع كافراً كما هو المشهور في تفسير قوله تعالى "كمثل غيث أعجب الكفار نباته"، وأمثال هذا في اللغة كثير، ويظهر منه أن حقيقة الكفر تعطية المحسوس بالمحسوس، ثم أطلق على من لم يدعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوراً. وحيث قد اختلف الحال وتغير الاستعمال فلا ينبغي إطلاق اسم الكفر على صاحب دين يؤمن بالله. وإذا كان هذا صحيحاً - وهو ما نؤمن به - فكيف الأمر بمن يكفرون الآن المشارك في العقيدة؟

• وادى الدموع

أغلب الظن أن القارئ لعنواننا سيتصور ، لأول وهلة ، أنه عنوان لقصة .
وأصاح القارئ بأنه بالفعل عنوان لقصة ... إنها قصة عذاب الشعب
المصري ... لكنها ليست قصة بالمعنى المتعارف عليه بين المشتغلين بالأدب ،
تتوافر فيها جملة القواعد والأصول المنطق عليها .

لكننا إذ نطلق عليها وصف (قصة) ، فإنما تجاوزنا وتشبيها ...
فالقصة الأدبية ، بعدها الزمني قد يكون جزءا من يوم أو بضعة أيام أو
أسابيع أو سنوات ... بينما نحن هنا أمام بعد زمني يمتد قرونا ...
والبطل في القصة الأدبية قد يكون فرداً أو أسرة أو مجموعة أفراد أو شيئاً
ما ، لكن البطل هنا هو شعب بمئات الألوف ...

ففي مناسبات ومواقف مختلفة ، عبر سنوات طويلة ، كلما قلبت في تاريخ
مصر منذ أقدم عصورها ، أجد تلالا من الصفحات مسطرة بدموع مصريين ، إن
لم يكونوا بالملايين ، ففي أحسن الحالات ، يكونون بمئات الألوف ...
سلسلة طويلة من (العذابات) نتيجة : ظلم .. استغلال .. نهب .. احتلال
.. قحط .. وباء .. الخ ، حتى أن الإنسان ليضرب كفا بكف متسائلا في دهشة :
كيف تأتي لهذا الشعب أن يظل رافعا راية الحياة ، حاملا مشعل العمل ، بعد كل
هذا .. حتى الآن ، والأمل ملء قلبه ، والطموح يستحث خطاه إلى أمام ؟

إنها ليست عملية اجترار للألام القومية ، أو عملية لطم للخدود في مناقرة
تاريخية في صورة (جلد للذات) ، ولكنها عملية استعادة لصفحات مؤلمة في
الذاكرة القومية ، تتبئ كلها بأن الخطر يمكن أن يكون من داخل أيضا .
والاستغلال والظلم لا يأتیان أبدا تحت مظلة صريحة ، وإنما هما دائما يتخفيان

• أخبار الأدب في ١٩٩٦/٦/٣٠

وراء راية مزيفة ، باسم الدين أحيانا ، وباسم المصلحة الوطنية أحيانا أخرى .. إلى غير هذا وذلك من مبررات تقوم على الغش والخداع والتزييف .

وهي صفحات تريد أن تقول أن صلابة هذا الشعب قد لا يكون هناك مثيل لها ، فقد انكسرت عندها كل المطارق ، ليبقى هو ، بالتالي ، فنحن نسعى لبذر بذور الأمل في أنه مهما كانت الصعاب ، ومهما تكاثرت المشكلات ، ففي طاقة هذا الشعب أن يتجاوزها وأن يتغلب عليها ليواصل مسيرته الحضارية .

ولعلنا الآن ، بعد هذه المقدمة ، يمكن أن نقلب سويًا في صفحات من هذه القصة .. قصة عذاب شعب مصر .. في .. وادي الديموع .

من الأمثال الشعبية المشهورة عندنا : (يعملوها الصغار ويقعوا فيها الكبار) تعبيرًا عما قد تؤدي إليه عراكات الصبية الصغار حول مسائل تافهة من عراك بين الكبار الذين هم على قدر كبير من التعقل والنضج .

لكن تاريخنا .. في كثير من صفحاته ، يشير إلى نفس هذا المثل معكوساً بحيث يصبح : (يعملوها الكبار ويقع فيها الصغار) ، والكبر والصغر هنا ليس بالسن وإنما هو بالموقع والسلطة ، أي أننا شهدنا صوراً لا حصر لها من المعمارك غير النظيفة بين القادة والحكام حول مسائل شخصية ونفعية وتصفية حسابات وخصومات ومؤامرات ، لا بد أن تكون نتيجتها افتقاد هذا البلد للحد الأدنى من الاستقرار الذي هو أساس لا بد منه للإنتاج والعمل الجاد والازدهار التقافي .

من أولى هذه الصور ، ما حدث لمحمد بن أبي بكر الصديق الذي تولى حكم مصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، فيما يرويهِ ابن اياس في (بدائع الزهور) ، القاهرة ، طبعة الشعب ، ص ١٥ .

لقد كان محمداً هذا من جملة من اجتمع على قتل الإمام عثمان بن عفان ، فيما زعم وشاع ، وأنه استغفر الله من ذلك .

ومن هنا فإن نفرا من الشيعة ثاروا عليه ، منهم : معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وغيرهم من الشيعة ، فأتوا من الشام ، فلما دخلوا إلى مصر ، خرج إليهم الأمير محمد بن أبي بكر وقاتلهم قتالا شديداً . وكان - مع صغر سنه

- شجاعاً بطلاً ، فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض
العسكر ، فانكسر الأمير محمد وهرب واختفى في بعض الخرابات ، فلما حثوا في
طلبه ، قالت لهم عجوز : " أتريدون الأمير محمد بن أبي بكر ؟ " فقالوا لها :
"نعم". فقالت : " أعطوني الأمان لأخي وأنا أدلكم عليه " فقالوا لها : " نعم " قد
أعطينا الأمان لأخيك " . وكان أخوها يبيع الفجل في مدينة القسوط ، فدلتهم على
مكانه .

فلما دخلوا على ابن أبي بكر وجدوه قد أنهكه العطش ، فاستغاث بهم :
"يا لله اسقوني شربة ماء " ، فكان رد معاوية بن خديج : " لا سقاني الله إن سقيتك .
أنسيت منعك الماء لعثمان بن عفان وهو محصور في الدار " ؟ فقال : " أكرمني
لأجل أبي بكر " ، فقال له ابن خديج : " لا أكرمني الله إن أكرمتك . أنسيت ما
فعلته يوم قتلة عثمان؟ فلا أمان لك عندنا " .

ثم تقدم إليه معاوية بن خديج وضرب عنقه بالسيف ثم جره برجله وطاف
به في المدينة ، ثم أدخل جثته في جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار فحماً .
فكانت قتلته في رابع عشر من صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وكانت مدة
ولايته على مصر خمسة شهور ، وكان له من العمر لما قتل ثمان وعشرون .
لم يكن العهد بعد إذن قد بعد بالناس عن الإسلام ، فما حدث في السنة
الثامنة والثلاثين من الهجرة ، ولما يمض بعد بالوالي سوى خمسة شهور .
ونمضي لنقرأ حكاية أخرى .. وهي حكاية حاكم شقي به الشعب ، ودفع
أبناء هذا الشعب الثمن ، كما دفعوا من قبل ، وكما سيدفعون من بعد ..

لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس ، وولي عبد الله السفاح ، توجه عبد الله
ابن علي العباسي إلى الشام في طلب من بقي من بني أمية ، ثم أرسل بالقبض على
الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر . فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك بدأ
يجمع ما في خزائنه الخاصة ، أتدرون كم كان فيها ؟ ... أخذ منها عشرة آلاف
دينار ذهب ثم أحضر أثني عشر بغلاً وحملها ذلك المال وشيئاً من القماش والفرش
وغير ذلك ، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ، ثم شد على وسطه خريطة فيها

جواهر فاخرة ثمينة وخرج من مصر هارباً ، فتوجه إلى نحو بلاد النوبة.. "

ص ١٨

وعندما وصل الأمير الهارب هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء ، فنزل في بعض تلك القصور ، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشاه وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : " أمض إلى ملك النوبة وخذ لي منه أماناً على نفسي من القتل " ، فخرج الغلام وتوجه إلى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعه قاصد من عند الملك ، فلما دخل عليه قال له إن الملك يقرئك السلام ويقول لك : " أجئت إليه محارباً أم مستجيراً ؟ فقال له الأمير عبيد الله : " رد عليه مني السلام وقل له : قد جاء إليك ليستجير بك من عدو يريد قتله . فمضى ذلك القاصد بالجواب ، فغاب ساعة ورجع وقال له : إن الملك قادم إليك في هذه الساعة ، فقال عبيد الله لغلمانه : " افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة " . وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه .

بينما الأمير ينتظر ، جاء إليه غلامه ينبئه بمجيء ملك النوبة ، فقام عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر إلى ملك النوبة فإذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وعليه بردان قد انزرت بأحدهما وارتمت بالأخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع ، فلما رآه الأمير عبيد الله ، استصغر أمره واحتقره . فلما قرب من المكان الذي فيه عبيد الله ، أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان في أيديهم الحراب .

فلما دخل ملك النوبة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذي فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة عليه ، بادر إلى يد الأمير وقبلها ، فأشار إليه عبيد بأن يجلس على تلك المرتبة التي وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله ، فقال عبيد الله للترجمان : " لم لا يقعد الملك على تلك المرتبة التي وضعناها له ؟ " فقال له الترجمان نقلاً عن الملك : " قل للأمير : كل ملك لا يكون لله متواضعاً لله فهو جبار عنيد متكبر " .

وكانت تلك أول صفة ، من خلال درس بسيط صغير .. لكنه كان مجرد مقدمة لسلسلة من الصفحات والدروس تنديدا بهذا النفر من الحكام الذين يقيمون حكمهم على النهب والاستغلال ، وهم يحكمون تحت راية : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله !! ولنتابع معاً هذا الحوار العجيب :

تسأل الملك :

- كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ فقال الأمير :

- إن الذي سلب منا ملكنا (العباسيين) أقرب إلى نبينا منا . فقال الملك :

- فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمر ، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، وتركبون في السروج الذهب والفضة وهي محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا . وبلغنا أنك لما وليت على مصر ، كنت تخرج إلى الصيد ، وتكلف أهل القرى ما لا يطيقون ، وتفسدون الزرع على الناس ، وتروم الهدايا والتقاد من أهل القرى .. وكل هذا من أجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية " .

وصار الملك يعدد على الأمير عبيد الله جملة أئام وذنوب ، والأمير معقود اللسان لا يعرف كيف يرد ، فالتهم صريحة وشهيرة ودامغة ، وتأتيه من حاكم أخو لا يستند إلى دين الإسلام الذي أمر بالحكم بين الناس بالعدل وحرم الاستغلال وكنز المال .

وهكذا استمر ملك النوبة قائلاً :

- ... فلما استحلتم ما حرمة الله عليكم ، سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم ، وأنا أخاف على نفسي إن أنزلتكم عندي أن تحل بي تلك النقمة التي حلت بكم ، والبلاء عام والرحمة مخصوصة . ثم قال :

ارحل عن أرضي بعد ثلاثة أيام وإلا أخذت ما معك وقتلتك شر قتلة !

فلما سمع الأمير عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة في يومه نقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسي وبعث به إلى بغداد ، فسجنه المنصور حتى مات في السجن ، وهو آخر من تولى على مصر في دولة الخلفاء الأموية من الأمراء .

وكانت ولايته على مصر في ست وثمانين من الهجرة ، واستمر في الحكم زهاء
خمس سنوات .

ومن الجدير بالذكر أن كثيرين ممن ولوا أمر البلاد كانوا يأتونها وهم على
قدر متواضع من الثروة ، ثم يغادرونها ، طوعاً أو كرها وخزائنها تفيض بالأموال
الوفيرة مما يقطع بأن هذه الثروة استقطعت من أقوات الناس لا لتصرف إلى خدمة
البلاد ومرافقها ، وإنما لتخزن وتفيض بصور خيالية من الترف على (الناس اللي
فوق) ويظل (الناس اللي تحت) يتجرعون مرارة العيش !!

وإذ تزداد دولة الإسلام رسوخاً وتقوى شوكتهم سواء على المستوى العام
للدولة ككل ، أم على مستوى (الولايات) و (الأقاليم) تتهمر الأموال على
خزائنها ، فمن الحكام من يستثمر ذلك في تعزيز القدرة المجتمعية للأمة ، ومنهم
يفتح قنوات هذه الخزائن على المتع الخاصة والمجد الشخصي ...

عندما تولى أحمد بن طولون حكم مصر في أواخر خلافة المتوكل ،
ال خليفة العباسي ، كان ذلك في سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة . ولما
دخل مصر " كان في أضيـق حال ، يحتقره كل من يراه " ص ٢٦ ، فماذا أصبح
عليه حاله عندما توفي ؟ قالوا : ص ٢٩ .

" لما توفي الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولداً ،
منهم سبعة عشر من الذكور ، وباقى ذلك إناث . وخلف من الذهب العين عشرة
آلاف ألف دينار ، وخلف من الممالك المشتروات ، سبعة آلاف مملوك ،
ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد ، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس
، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ،
ومن المراكب الحربية والشوانى ألف مركب ، وخلف من اللؤلؤ والجواهر
واليواقيت مائة صندوق ، وخلف من التحف والفرش ما لا يحصى عدده ... وهذا
خارج عن الضياع والأملك والبساتين وغير ذلك " .

صحيح أن كتب التاريخ تذكر كذلك أن ابن طولون " أخذ في عمارة ترى
مصر وعمارة جسورها وقناطرها ، وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال

الديار المصرية في أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها إلى الخراب ، وانحط خراجها في أيام من تقدمه من العمال .. ، إلا أن هذا لا يمنعنا من التساؤل : ترى لو كانت مثل هذه الثروة الخاصة التي تركها الرجل قد أنفق الجزء الأكبر منها على البلاد ، فكيف كان يمكن أن يكون حالها خاصة وأننا نذكر بما كتب عن حال الرجل قبل أن يتولى الحكم ؟

ولقد عبر بعض الشعراء عن مشاعرنا ، عندما توفي الرجل بهذه الأبيات التي قيلت في رثائه :

خذ القناعة من دينك وارض بها واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرأ وما جمعت هل راح منها بغير القطن والكفن؟

هذا ما كان من أمر أحمد بن طولون ، فماذا كان من أبنه الشهير : الأمير

خماروية ؟

كتب المؤرخون يقولون : ص ٢٩

" كان الأمير خمارويه مولعا بالعمارات وغرس الأشجار . قيل أنه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ، ونقل إليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى خراسان ومن مكة ومن الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين ، حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والأشياء الغربية التي لم تزرع بأرض مصر قط ، ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقراً ، مثل : (حسبنا الله ونعم الوكيل) وما أشبه ذلك من الألفاظ ، ووكل بتلك السطور رجالا بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الأوراق ويخرج عن قالب الاعتدال في الأحرف حتى يستقيم الكلام في معناه . ثم ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر وطلاه بالذهب ، فكانت الشمس إذا طلعت على تلك الأشجار والكافور لا يقدر أحد أن ينظر إليها من شدة إنفاذ ذلك النحاس المموه بالذهب ، وكان يسحق المسك وينثره على تلك الرياحين السطور ...

" وصنع في ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها من الزئبق ، وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير ، وكان له حركات تمتلئ بالريح ثم يسد فاه بحبل وي طرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه " !!
لكن : هل يعد هذا النعيم المقيم صورة من صور عذاب الشعب ؟ أفليس هناك احتمال بأن يكون هذا النعيم مظهراً من حال عام كان لا بد وأن يفيض كذلك على عموم الناس .

من الناحية المنطقية ، فهذا التساؤل وجيه ..

لكن من الناحية الواقعية التاريخية ، فالوقائع كثيرة عن صور بؤس وشقاء عانى منها عوام الناس في أرجاء البلاد .

ثم إننا نظل نذكر دائماً بأن هذه النظم الحاكمة كانت رايته إسلامية ، ونحن نحاكمها بمعايير هذه الراهية ، ونعني أهمية عدم الوقوع في خطأ فاحش يقع فيه كثيرون عندما يقيسون الحق بالرجال ، عكس ما هو مفروض فيستتجون نتائج غير صحيحة . ففي كل النصوص الإسلامية ، تحذير ونهي واضح وصريح من إحداث صور من هذا السفه في الإنفاق العام ، وأنه يعد صورة من صور ظلم النفس الذي هو أشد أنواع الظلم كراهة ، فضلاً عن أنه يؤدي - غالباً - إلى بغى عام .. فمن سوف يكون الضحايا ؟

إنهم عموم الناس !

" الخرافة " في التاريخ المصري *

في حوار علمي بيني وبين مجموعة من طلاب الماجستير في العلوم التربوية ، كان الحديث يدور حول التوجهات العامة الحالية في التفكير عند شبابنا وخاصة في الجامعات ، فإذا بواحد من الباحثين طلاب الماجستير يقول أنه يشعر بكثير من الأسى لما أسماه بـ (الرّدة العقلية) التي لاحظها على شباب جامعاتنا، فلما استفسرته عما يقصده بذلك أجاب بأنه يقصد شيوع الغيبيات والتفكير الغيبي بينهم ، في عصر ، المفروض فيه ، أنه ذو نهج علمي جعله يحدث تفجراً معرفياً وثورة علمية تكنولوجية أتت بنتائج تجاوزت في بعض الأحيان أحلام وخيالات المفكرين والفلاسفة .

إن هذا القول يعكس خطأ في التعبير يقع فيه البعض بحسن نية ، إذ يقصدون في أغلب الأحوال ما يسمى بـ (التفكير الخرافي) و (الخرافات) بحديثهم عن (التفكير الغيبي) و (الغيبيات) ، وهو الأمر الذي يستلزم إيضاحاً للفروق ورسماً للحدود حتى لا تختلط الأوراق ، ويقع هؤلاء في المحذور .

إن الإيمان (بالغيب) شرط أساسي من شروط الإيمان في العقيدة الإسلامية ، وتبلغ أهمية الحد الذي صورته الآيات الأولى من سورة البقرة ، حيث قال عز وجل : " ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " ، الآيات : ١-٣ ، والإيمان بالغيب هنا كما يقول صاحب تفسير المنار " هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس " ، وشرح ذلك يأتي في الآية الرابعة : " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " ، فالغيب هنا يتعلق بالإيمان بالله وبما أنزله على رسله والإيمان بوجود عالم آخر .

* مجلة الهلال مارس ١٩٩٠

الحديث عن الإيمان بالغيب إذن هو حديث عن الإيمان في النطاق الديني الإلهي ، لكن الحديث عن الخرافة والتفكير الخرافي ، فهو ينصب على نهج معين في الحياة البشرية يتعلق بالربط غير المنطقي وغير العلمي بين ظاهرتين أو أكثر كالقول - مثلاً - بأن زيارة ضريح من أضرحة الأولياء من قبل سيدة عاقر يمكن أن يزيل عنها العقم فتحمل وتلد ، فظاهرة الحمل والولادة لها متطلباتها وشروطها وأسبابها التي ليس من بينها على وجه الإطلاق ، زيارة ضريح فلان أو حمل تميمة أو حجاب .

ولا شك أن حياة الأنبياء والرسول تروي العديد من الأمثلة التي تظهر إمكان اقتران بين ظاهرتين ليس بينهما ارتباط سببي ، فوجود إبراهيم عليه السلام في نار ، ومع ذلك فإنه لا يحترق ، واقعة تتنافى مع التفسير العلمي الذي يوجب احتراق الجسم البشري إذا وضع في النار ، وهكذا الشأن بالنسبة لما كان يقوم به المسيح عليه السلام من معجزات ، ومسألة الإسراء والمعراج بالنسبة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هذا كله لا يمكن أن يدخل في باب (التفكير الخرافي) ، لأننا هنا نخرج من النطاق البشري إلى النطاق الإلهي ، فالمجال البشري تحكمه سنن وقواعد ، يستحيل أن تكون هي نفسها التي تحكم الفعل الإلهي ، ومن هنا فإذا اعتقد واحد من الناس أنه يمكن أن يضع نفسه في نار ثم لا يحترق ، فإننا نصف هذا بأنه تفكير خرافي ، لكنه عندما يجيء رواية عن نبي أو رسول ، يكون (غيباً) لا بد من الإيمان به ، هذا طبعاً بالنسبة للمؤمنين بوجود الله عز وجل .

والتفكير الخرافي سمة من سمات (البدائية) حيث يكون التطور العلمي والمعرفي عند أدنى مستوياته ، إذ يكون الإنسان جاهلاً بما بين الظواهر من علاقات ، وتعوزه الأدوات التي تمكنه من ثم بالتحكم في هذه الظواهر وتسخيرها لصالحه . والإنسان في حالة العجز هذه ، يمتد بخياله إلى تصور (قوة) غير مرئية تعاديه عن طريق هذه الظواهر إذا كانت مضرّة ، فيسعى إلى محاولة استرضائها بتقديم القرابين والهدايا . وترتب على هذا ظهور (طائفة) من

(المنتفعين) الذين لعبوا دور الوسطاء بين الناس وبين القوى فيحصلون على (سلطة) ويحصلون على (مال) يجعل منهم طبقة متميزة .

وللعالم الفرنسي (ليفي بريل) كتاب ضخم هام ترجمة الدكتور محمد القصاص بعنوان : (العقلية البدائية) - بدون تاريخ - يشتمل على العديد من المظاهر والحالات التي صورت طريقة التفكير عند مجموعات بشرية متخلفة غاية التخلف ، وكيف أن هذه الطريقة قد افتقدت العديد من شروط التفكير العقلي المنطقي ، ورأى (بريل) أن الفروق التي تميز العقلية البدائية وعقلية الجماعات المتحضرة عديدة جداً ، لكن فرقا واحدا من بينها هو الذي استرعى انتباه عدد كبير من الباحثين الذين توفروا على دراسة الجماعات البدائية في خير الظروف ملائمة لهذا البحث ، أي قبل أن يؤثر فيها الاحتكاك الطويل بالأوروبيين ، فقد لاحظ هؤلاء الباحثون أن البدائيين ينفرون أشد النفور من الاستدلال العقلي ، ومما يسميه المناطقة بالعمليات المنطقية للتفكير ، كما لاحظوا أيضاً أن هذا النفور لا يرجع إلى قصور أصيل أو عجز طبيعي في إدراكهم ، بل بالأحرى إلى مجموعة العادات العقلية التي درجوا عليها ، أي طريقتهم في التفكير .

وإذا رأى العقل البدائي نفسه أمام شيء يهمله أو يقلقه أو يخيفه ، فإنه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذي يسلكه عقلنا ، بل يسير على القور في طريق مختلف عن طريقنا ، وذلك لأن حسنا الدائم بوجود الضمان العقلي قد بلغ درجة من الاستقرار لا تجعلنا نتوهم إمكان اختلاله . فإذا فرضنا أن ظاهرة لا نعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفي علينا في بادئ الأمر خفاء تاما ، فإن ذلك يزلزل اقتناعنا بأن جهلنا أمر مؤقت وأن هذه الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلا وإن آجلاً . وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت في الوسط الذي نحيا فيه موضوعا للتأمل من البداية ، وإنها نظام وعلة كالعقل الذي يفكر فيها ويجول في مضمارها . ويشير نشاطنا اليومي في أتفه تفاصيله إلى ثقتنا التامة في عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفاوت (العقلية البدائية ، ص ٢١) .

أما مسلك العقلية البدائية فمختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف ، لأن الطبيعة التي نعيش في أحضانها تمثل أمامها في مظهر مختلف تمام الاختلاف ، فجميع الأشياء والكائنات التي تتضمنها متشابكة مختلطة بأمور خفية . ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها ، وهو الذي يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائي ويستوفقه ، فإذا استرعت اهتمامه إحدى الظواهر ولم يقتصر على إدراكها بطريقة سلبية خالية من رد الفعل ، اتجه ذهنه فوراً وبما يشبه أن يكون حركة عقلية عكسية إلى وجود قوة خفية غير مرئية ، وجعل تلك الظاهرة مظهراً من مظاهرها .

والدارس للتاريخ المصري وخاصة في أواخر العهد المملوكي وأيضاً العهد العثماني ، يستطيع أن يلمس ، كيف أدت قسوة الظروف الاقتصادية ، والتخلف الصارخ في كثير من جوانب الحياة المجتمعية والقهر والظلم والاستبداد الذي أحاط بجموع المصريين في صباحهم وفي مسائهم من قبل حكام الفترة ومن قبل الفئات المستغلة المتعاونة مع القوى الحاكمة المستفيدة منها .. وكل هذا أدى ، إلى أن يشعر كثير من المصريين بحالة من العجز الفعلي أمام المحن المحيطة وفراغ اليد من المقومات الأساسية التي تمكنهم من مواجهتها ، فوقع منهم من وقع فريسة للتفكير الخرافي حيث يتوهم أن ما عجز عن تحقيقه في عالم الواقع يمكن أن يتحقق (بمعجزة) عن طريق هذا أو ذلك من (المنتفعين) بانتشار هذا الوباء العقلي المفزع .

وليس شيوخ ظواهر القهر والاستبداد والفقر هي وحدها المكونة للتربة التي ينمو فيها التفكير الخرافي ، فقد لا يكون هناك قهر واستبداد وفقر ، لكن يشيع الجهل وتخبو أنوار المعرفة وتنبذ براعم الفكر ، فهذا أيضاً يجد هذا الميكروب العقلي فرصة لا تعوض للتكاثر والانتشار ، وأماننا في كتابات المؤرخين لتاريخ مصر كم كبير من المظاهر والأمثلة الدالة ، ومن أبرز هذه الكتابات الكتاب الهام لابن إياس المسمى (بدائع الزهور في وقائع الدهور) ، طبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، المختصرة إلى حد ما : فقد نقل ابن إياس عن جامع السيرة الطولونية قوله :

" كان بمدينة عين شمس .. صنم من الكذان الأبيض على قدر خلقه الإنسان المعتدل ، وكان محكم الصناعة يكاد أن ينطق ، فقصد الأمير أحمد أن ينظر إليه ، فنهى عن ذلك بعض الكهان وقال له : أيها الأمير ، لا تنظر إلى هذا الصنم فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عزل عنها في سنته ، فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه إلى مدينة عين شمس ، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم ، فأمر بإحضار القطاعين فكسروه قطعاً ولم يبق له أثر . فلما رجع الأمير أحمد إلى داره ، لم يبق بعد ذلك سوى عشرة أشهر ، ثم مرض وتسلسل في المرض ، فأضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة إلى الصحاري وفعلوا مثل ما يفعلون في الاستسقاء ، فخرج الناس حفاة وعلى رؤوسهم المصلحف ، وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رؤوسهم الاناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح ، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء" .

لكن بن طولون استمر في المرض حتى مات سنة ٢٦٩هـ ، فكان هنا المؤدي للوفاة لم يكن لعلة ميكروبية ، وإنما لقوة خفية في هذا (الصنم) الذي نرجح أن يكون أحد التماثيل الفرعونية وخاصة في منطقة عين شمس والمطرية . ويبدو أن المسألة لا تتف عند حد (المستوى المعرفي) القائم ، فنحن قد قرأنا عن غربيين على درجة عالية من التعليم ، ومع ذلك فقد اعتقدوا بصحة ما قيل عما سمي بـ (لعنة الفراعنة) التي يبدو أن ابن طولون قد أصيب بها .

ومن العجيب أنه في فترة الانتصار والعزة التي تبتت في عهد صلاح الدين الأيوبي ، أن يروي مؤرخون من حوادث تنطق بالخرافة الصارخة مما يدل على ضعف التدقيق والتحقق من قبل المؤرخ الذي يروي مثل هذا ، وإن كنا لا نستطيع أن نخصه هو باللوم ، إذ يبدو أن (مستوى التفكير) كان يقبل مثل هذا ولا يرى فيه غرابة .

فمن ذلك ما نقله ابن اياس عن (المسيحي) أنه بعد رحيل الإفرنج عن دمياط توجه صلاح الدين إلى الشام فأقام بها مدة . قيل ، لما دخل صلاح الدين إلى دمشق ، نزل بالميدان الكبير فجاءت إليه أرباب الملاعب من المصارعين

والمتأنقين وغير ذلك ، وكان فيما جاء إليه رجل أعجمي فتكلم معه بل أن يريه
أعجوبة في صنعة الشعوذة ، فأذن له ذلك ، فنصب خيمة في الميدان بين يدي
السلطان صلاح الدين وأخرج من كفه (كبة خيط) فربط طرف ذلك في يده ، ثم
حذف تلك الكبة الخيط في الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الأبصار ، ثم
سقطت بين الناس إحدى رجليه وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت إلى
الخيمة ، ولم تزل أعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقطت الرأس وصار
يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سوي
كما كان يمشي على أقدامه ، فقبل الأرض بين يدي الملك الناصر .. فبهت الناس
من ذلك . ثم إن الرجل دخل الخيمة ثانية أمام الناس فقال رفيقه للحاضرين :
ادخلوا الخيمة فتشوا فيها ، فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا أحدا ، ثم فكوا
الخيمة ونصبوها في مكان فخرج منها ذلك الرجل وهو يمشي على أقدامه كما
دخل.!!

صحيح أن شيئاً مثل هذا - والقياس مع الفارق - نشأه في أيامنا هذه في
بعض البرامج التي تعرض بالتلفزيون ، لكننا مهما بلغنا من درجات الدهشة ،
نفسره دائما بأنه (خفة يد) ، لكن الأمر كان يختلف في تلك الحقب حيث كان
الناس يفسرون ما يحدث بامتلاك هذا الشخص وذلك قدرة خارقة تتيح له أن يخرق
سنن الطبيعة ونواميسها ، ولا يرون ذلك يتنافى مع العقيدة الدينية التي تجعل القدرة
الإلهية وحدها هي التي لها الفعل على غير هذه السنن والنواميس .

وإذا كان (الدعاء) معروفاً في الإسلام ، بل ومأمور به للمسلم ، لكن
كثيراً من الناس قد أساء استخدامه ، إذ فهموا أنه يمكن أن يؤدي إلى تحقيق المراد
من غير اتخاذ الأسباب المرتبطة ارتباطاً علمياً بنتائجها ، كمن يتصور من الطلاب
، إمكان النجاح في الامتحان بمجرد الدعاء إلى الله بدون بذل الجهد في التحصيل
والتعلم ، فهذه صورة أخرى من (الخرافة) لأنها تنسب لمجرد الكلام ، قدرة على
تغيير الواقع ، وخاصة عندما يكون كلاماً لا يخرج عن حدود التلفظ به أو كتابته .

ومن هنا فقد رأينا في مناسبات عدة ، أمراضاً وأوبئة خطيرة تهجم على
الناس في مصر ، وتحصد فيهم حصداً ، فلا يجدون ما يمكن أن يواجهوا به هذا

إلا مجرد الدعاء، ومن ذلك ما جاء في حوادث عام ١٣٤٨م=٧٤٩هـ أيام الملك الناصر أبو المحاسن ، وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ذلك أن " الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد ، فكان يخرج من القاهرة في كل يوم ما ينوف عن عشرين ألف جنازة . وقد ضبط في شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس ، فكان نحو تسعمائة ألف إنسان " .

وإذا كان القارئ قد لا يصدق مثل هذه الأرقام إلا أنه سيتخلى عن شكه إذا أضفنا إلى معلوماته أن هذا الوباء سمي — (الموت الأسود) الذي اجتاح المعمورة في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد ، قد بدأ في أواسط آسيا ، ثم انتقل إلى شبه جزيرة القرم ، ومنها نقلته إحدى السفن إلى جنوا وسائر أنحاء أوروبا . وانتقل من أرمينيا إلى إنجلترا عام ١٣٤٨ ، فقضى على نصف سكانها ، وقضى في الصين على ثلاثة عشر مليوناً (هامش ص ١٦٣) .

وهجوم ضار مثل هذا الهجوم المرضي ، لم يكن لأحد قدرة بطبيعة الحال على مواجهته ، فماذا كان العمل ؟

" قيل : لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية ، أمر بعض العلماء بأن الناس يخرجون قاطبة إلى الدعاء برفعه ، فخرج الناس قاطبة إلى الصحراء وفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء ، فلم يفد ذلك شيئاً ، بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ، ودخل إلى مكة ، ولم يعهد هذا قط في سوى هذه السنة .. " نقل ذلك ابن حجر في كتاب (بطل الماعون في أخبار الطاعون) .

وتدفع وفاة تيمور لنك الخيال العام إلى تصور أمور إنما تعكس في جملتها مدى الكراهية التي كان المصريون يكتنونها له ، ففي سنة ٨٠٤هـ = ١٤٠١/١٤٠٢م ، (وإن ذكر البعض أنه مات عام ٨٠٧هـ) تجى الأنبياء بمرض تيمور لنك بمرض خطير لا يشفي منه تمثل في " حمرة " طلعت في جسده ، فمات، فيعلق القاضي تقي الدين المقرئ محاسب القاهرة في ذلك الوقت " وعجل الله بروحه إلى النار " كما قد قيل :

زبانية النيران تكره وجهه ومنه استعانت مذرأته جهنم

وتتعدد القصص والروايات حتى لقد نقل ابن اياس أنه قيل أنه لما دفن كان يسمع عواء في قبره مثل عواء الكلاب . وقد قال بعض السواح أنه شاهد الدخان يطلع من قبره . وقيل أنه لما دفن لم تقبله الأرض ، فصنعوا له صندوقاً من الخشب ووضعوه فيه وعلقوه بين السماء والأرض !!

ونحن نذكر منذ عامين تقريباً كيف كنا نتبع مقياس النيل بكل خوف حيث كان في انخفاض مستمر ، رغم ما بلغناه في العصر الحاضر من مظاهر التطور والضببط العلمي وتعدد مصادر الثروة ، فما بالنا بمشاعر المصريين في قرون سابقة حيث الاعتماد الرئيسي على الزراعة وحدها وبالتالي على النيل ؟ ففي سنة ٨٦٦هـ = ١٤٦١/١٤٦٢م انحسر النيل انحساراً شديداً " حصل للناس الضرر الشامل لقلّة الزيادة .. " ، فماذا كان رد الفعل الرسمي ؟

" رسم السلطان للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ، ويبيتوا به ويتلوا هناك القرآن والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل . فتوجه القاضي يحيى المناوى والسيد الشريف بن حريز المالكي وجماعة من العلماء فأقاموا في المقياس أياماً ورجعوا ولم يزد النيل شيئاً ، فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأصراني يستفتيه في ذلك ، فقال الشيخ أمين الدين: "أجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ، من صغارهم لكبارهم ثم يضعون في أفواههم شيئاً من الماء ويمجونه في إباء ثم يصبونه في فسقية المقياس " .. ففعلوا ذلك ، فكانت فيه البركة .

هكذا يظن (علماء الأمة) في بقايا بنى العباس الهاريين إلى القاهرة تلك القدرة الخارقة التي تجعل من ماء ينزل من أفواههم في مقياس النيل سبباً في زيادة مياه النيل ! وهي غفلة ما بعدها غفلة ، وشطحات تفكير تردّي إلى جب الخرافة إلى درجة تبعث على الأسى والألم حقاً .

فإذا قفزنا قرناً ثلاثة بعد ذلك لنجئ إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، فسوف لا تجد تحسناً في مستوى معيشة الناس ولا في مدى تمتعهم بالحقوق الأساسية ، مما يستتبع استمرار النهج الخرافي في التفكير ، لكننا من جهة أخرى نلاحظ هنا أمرين هامين ، أولهما أن المؤرخ لهذه الفترة وهو عبد الرحمن الجبرتي

يتميز بقدر كبير من الوعي والتفكير الناقد الذي نستطيع أن نلمسه في روايته
لقصص الخرافات ، فهو يرويه غالباً بلهجة السخرية . والملاحظة الثانية، أن
جماهير الناس ، عندما تجد من يغير أمامها الطريق ، ويحقن عقولها بالاتجاه
المستدير ، تلتف حول الاتجاه ، على عكس القوى الحاكمة المستبدة التي يهملها
بالدرجة الأولى أن يستمر الناس في جهلهم وزيف وعيهم حتى يمكن لهم استمرار
استغلالهم .

فمن حوادث رمضان عام ١١٢٣هـ - أكتوبر - نوفمبر ١٧١١م جلس
رجل رومي يعظ الناس بجامع المؤيد ، فكثرت عليه الجمع ، وازدحم المسجد ، ثم
انتقل من الوعظ ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع
والقناديل على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم ، " وفعل ذلك كفر يجب على الناس
تركه ، وعلى ولاية الأمور السعي في إبطال ذلك " . وذكر أيضاً قول الشعراي في
طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ ! " إنه لا يجوز ذلك ، ولا
تطلع الأنبياء - فضلاً عن الأولياء - على اللوح المحفوظ ، وأنه لا يجوز بناء
القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ، ويجب هدم ذلك .. "

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه إلى التحرك العملي والسلوك
التطبيقي كما فعل أنصار محمد بن عبد الله عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية ،
يذكر الجبرتي : " فلما سمع حزبه ذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ، ووقفوا
بالنبايات والأسلحة ، فهرب الذين يقفون بالباب ، فقطعوا الجوخ والأكر المعلقة
وهم يقولون : أين الأولياء ؟ " وإذا كان علماء الأزهر لهم الدور الأساسي في تعليم
الناس وتثويرهم ، إلا أن الظلام المطبق على المجتمع ، فيما يبدو ، قد شغلهم ،
فإذا بالعلم الذي عندهم يوظف في غير هذا الطريق ، وإذا بهم يدعمون الوعي
الزائف ، فلقد ذهب بعض الناس إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول الواعظ
الرومي وكتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ أحمد الخليلي (توفي عام ١٧١٥م)
والشيخ أحمد النفراوي (توفي عام ١٧١٣) ، بأن " كرامات الأولياء لا تنقطع
بالموت ، وأن إنكاره اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ، ويجب على

الحاكم زجره عن ذلك" ، إنهم يستعدون السلطة على الرجل ولا يكتفون بإصدار هذه الفتوى .

وأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها إلى الواعظ الرومي وهو في مجلس وعظه ، فلما قرأها غضب وقال : أيها الناس ، إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم ، وإني أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم في مجلس قاضي العسكر ، فهل منكم من يساعدي على ذلك وينصر الحق ؟

الرجل إذا لا يلقى الكلام على عواهنه ، وإنما بحث ودرس وقرأ واقتنع ، ولذلك فهو لا يفرض رأياً وإنما يريد اتباع النهج العقلي ، الحوار والمناقشة مع أصحاب الرأي الآخر . وهو لا يريد (أرستقراطية الفكر) بحيث تنحصر المسألة بين عدد من العلماء ، إنه يسعى إلى المشاركة الشعبية ، إذ ما وظيفة العلم إن لم يوظف لصالح الجماهير ؟ وما جدوى أن يكون بالمجتمع بضع عشرات أو حتى مئات ، وهناك ملايين الناس تتمرغ في وحل الوعي الزائف والجهل البغيض ؟

وانفعل الناس بجديّة الواعظ وحماسه ، فسرت عدوى الحماس والجديّة إليهم ، فإذا بهم يسارعون إلى التجمع حوله شادين من أزره ، ويلتف حوله المئات والمئات في حركة شعبية عجيبة الشأن ليست ككثير من الحركات من أجل لقمة عيش أو كسب رزق أو رفع ظلم ، وإنما سعياً إلى المعرفة الصحية وجهداً لإزالة الغشاوة من على العيون .

" ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضي قريب العهد ، فانزعج القاضي ، وسألهم عن مرادهم ؟ فقدموا له الفتوى وطلب منه إحضار المفتين والبحث معهما ، فقال القاضي : اصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرهم ونسمع دعواكم فقالوا : ما تقول في هذه الفتوى ؟ قال : إنها باطلة ، فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة يبطلانها ، فقال : إن الوقت قد ضاق ، والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم ، وخرج الترجمان ، فقال لهم ذلك فضربوه ، واختفى القاضي بحريمه ، فما وسع إلا النائب أنه كتب لهم حجة حسب مرادهم ."

ولم يكن ذلك عن قناعة من أصحاب السلطة في الفتوى والقضاء ، وإنما هو جبن السلطة الشهير أمام الحركة الشعبية ، ومحاولة معروفة لامتناس

الغضب بصفة مؤقتة حتى يتم التفكير في الالتفاف حولها بعد أن يظن الناس أن السلطة قد استجابت لهم . وهكذا عندما ذهبوا في يوم آخر إلى جامع المؤيد لسماع الواعظ لم يجده .. لقد ذهب وراء الشمس كالعادة .

في البداية ، كان عدم حضور الواعظ ، لأمر سلطوي بمنعه عن الوعظ، لكن الجماهير لم تسكت، فقد ذهبوا إلى القاضي الذي أصيب بالرعب من أعدادهم الغفيرة وأجبروه أن يذهب معهم إلى (الباشا) بالقلعة ، وكان مطلب الجماهير أن يأتي الشيخان صاحبا الفتوى للتباحث معهما ، " فإن أثبتوا دعوام نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم " ، وحصلوا على أمر بذلك من الباشا ، فأتوا بالواعظ إلى الجامع وأصعدوه إلى الكرسي فصار يعظم ويحرضهم على الاجتماع في غد بالمؤيد لشهود المناظرة الكبرى المنتظرة ، لكن الباشا أثناء ذلك كان يدبر مكيدته الكبرى ، إذ راح يبعث إلى أمراء المماليك محرضا إياهم ومحذرا من هذه الانتفاضة الشعبية الفكرية ، وقبل أن يجيء اليوم المنتظر ، كان قد تم القبض على القيادات ويتم إخماد ما أسموه بـ (الفتنة) ليستمر الجهل مخيما على العقول ويستمر هذا النفر من الحكام في غيهم واستغلالهم وظلمهم .

وأشيع في الرابع والعشرين من ذي الحجة عام ١١٤٧هـ — ١٧/٥/١٧٣٥م في مصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس وعشرين الحجة ، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ويقول الإنسان لرقيقه : (بقى من عمرنا يومان) . وخرج كثير من الناس والرقعاء إلى "الغيطان والمنترهات ويقول لبعضهم البعض : دعونا نعمل حظاً ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة " ، ومن الناس من داخله الهم والحزن ، ومنهم من أخذ يعلن التوبة ويبتهل ويصلي ، " واعتقدوا ذلك ووقع صدقه في نفوسهم ، ومن قال لهم خلاف ذلك أو قال : هذا كذب لا يلتفتون لقوله ، ويقولون هذا صحيح " .

فلما جاء اليوم الموعود ولم تقم القيامة ، وأصبح يوم السبت ، لم يظهر الناس تكذيبهم للإشاعة وإنما حرصوا على إظهار المزيد من غفلة التفكير ، فإذا بهم يفسرون عدم مجي القيامة بأن " فلان العالم قال إن سيدي أحمد البدوي

والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا
بهم فإننا يا أخي لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظ ونحو ذلك من الهينانات *
وليست هذه هي كل الأمثلة والأحداث التي تتطرق بنهج التفكير الخرافي ،
ولكنها بعض من كل ..

وعلى الرغم من مرور قرون وراء قرن ، لكن نهج التفكير الخرافي ظل
مستمرا سنوات طويلة بعد ذلك ، طالما استمر القهر والاستغلال وتزييف الوعي ..

المسئولية الثقافية للتعليم*

من بين العديد من التعريفات التي حاول بها الباحثون والمفكرون أن يحددوا معنى للثقافة، فإن المشتغلين بالعلوم التربوية يتبنون ذلك التعريف الذي يجعل للثقافة معنى يرادف طريقة الحياة، تلك الطريقة التي تكشف عن نفسها في مجالات عمل العقل والوجدان واليد، في الفكر والفن والعلم والنظم الاجتماعية والفنون والآداب والصناعات.

وفي ضوء هذا المعنى تصبح الثقافة هي التي تجعل للجماعة من الناس طابعها الإنساني والاجتماعي، فيتجاوز الفرد فيها مستوى كينونته البيولوجي ليكتسب مقومات شخصيته القومية التي تميز جماعته عن غيرها من جماعات البشر.

وإذا كان الأفراد من أبناء الأمة حريصين الحرص كله على الاستمرار البيولوجي عن طريق التناسل، إلا أن هذا الاستمرار لا يعني بالضرورة استمرار الأمة كجماعة بشرية بعينها لها خصائصها ومقوماتها، إلا باستمرار ثقافتها، ومن هنا سعت كل جماعة إلى أن تنتشر الأجيال الجديدة من أبنائها مقومات ثقافتها، فتستمر شخصيتها وتمتد على امتداد الزمن بقدر الجهد الذي يبذله الكبار من أجل أن تنتقل الثقافة الموروثة إلى جيل الصغار، وتتم عملية النقل هذه عن طريق التعليم.

ومع ذلك، فإن الجماعة البشرية لا تستمر فقط باستمرار ثقافتها الموروثة، ذلك أن المشكلات تتبدل، والقضايا تتغير والحلول تتطور، ويستجد من الأمور والأحوال، ويستحدث من الحاجات ما يقضي بعدم الاكتفاء بنقل الثقافة وإنما لابد كذلك من تطويرها.

وهكذا يجيء التعليم ليكسب الفرد من الأمة شخصيته الإنسانية، ويساعد

* عرضت على شعبة الثقافة بالمجلس القومي للثقافة والإعلام والفنون، فبراير ١٩٩٦.

الأمة على الاستمرار الاجتماعي، ويعينها على التجدد والتقدم، بما يقوم به من نقل وتطوير للثقافة.

إن المصريين - مثلاً - كذوات أدمية بيولوجية، ممن ظهوروا منذ القرن السابع الميلادي، هم استمرار مادي لأسلافهم الذين عاشوا منذ عشرات قرون قبل الميلاد، لكنهم تباينوا جذرياً في الحالة الجديدة عما كانوا عليه من قبل بفضل ذلك التحول الثقافي الجذري، عندما نعموا بالنهج الإسلامي، عقيدة وشريعة.

وقد استمرت مقومات الشخصية الثقافية الجديدة حتى مطلع القرن التاسع عشر، بفضل ما كانت تقوم به مؤسسات التربية والتنشئة من أسرة ومساجد وكتاتيب ومدارس ومناخ ...

وعندما أراد (محمد علي) أن يغير من طريقة الحياة السائدة في مصر، في محاولة منه لأن يقف موقف الندية مع القوى المهيمنة على حركة إيقاع العصر، كان سبيله إلى ذلك، فتح أبواب مصر لنمط من التعليم يسير على النهج الأوربي الحديث، دون سعي منه لأن يطور ويجدد في نمط التعليم القائم لأن الغاية التي طغت على حكمة التجديد التحمت بمجد الحاكم كفره، مما حتم أن يتم التغيير خلال سنوات محدودة وبسرعة، بينما مجد الأمة يحتاج في بنائه إلى تدرج وطول نفس أجيال طويلة.

وأدى وجود نمطين متباينين من التعليم إلى أن يفرز كل منهما إلى الأمة ألوفاً من المتعلمين، لا يخطئ المتأمل لهم، ملاحظة نهجين متباينين من التفكير، ويجعل الكثرة الغالبة من أبناء أحدهما تنظر بريية وضعف ثقة إلى أبناء الآخر، وقل من وجدناه قادراً على البصر بإمكان الجمع بين النهجين في تكامل وتعاضد، عن طريق الوعي بنقاط الالتقاء ومواطن التكامل.

وقد كان الدافع الأساسي لعلي مبارك في إنشاء دار العلوم عام ١٨٧٢ هو إيجاد صيغة تعليمية تقدم للناشئة مورث الأمة وما وفد عليها من جديد، تعيد للثقافة المصرية إطارها العام المتجانس، وتنشئ جسوراً من التفاهم بين العقول. ولكن هذا الأمل حالت بينه وبين الفاعلية والانتشار والاستمرار ظروف وعقبات، يضيق

المقام عن شرحها خاصة وقد ابتليت مصر بعد ذلك بهجمة استعمارية شرسة، رأت أن من مصلحتها أن تعزز الجمود في نمط التعليم الديني، وأن تشجع التوسع في النمط الثاني الغربي، وإن اعتقلته في نطاق ذلك الهدف المحدود الضيق الذي يربط التعليم بالوظيفة الحكومية.

وإذا كانت الوظيفة الحكومية، في ظل الاحتلال تتطلب عادة الطاعة والسلبية ومحدودية النظر والطموح والجمود والخوف، فقد كان طبيعياً أن يسري شيء من هذا إلى أساليب التعليم وطرائقه ونظمه وفلسفته وأهدافه ليعيد إنتاج النماذج البشرية وفقاً لسياسة الاحتلال وأهدافه.

وقد كان يمكن للقانون الخاص بتطوير الأزهر عام ١٩٦١ أن يوفر للتعليم الديني صيغة تمكنه بالفعل من أن يجمع بين الأصالة والمعاصرة، إلا أن ظروفاً عدة أعاقت تحقيق هذا الهدف، فإذا بالتقافتين تتجاوزان ولا تمتزجان، وإذا بالتقافة الدينية لا تحظى بما كانت تحظى به من قبل من جهد واهتمام واستمرار، وإذا بالتقافة الحديثة تجئ نسخاً مكررة باهتة من مؤسسات التعليم المدني الأخرى.

ولما كان التعليم على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة للتقافة، سارت العلاقة بينهما على نهج يجعل من صحة التعليم سبيلاً أساسياً للصحة الثقافية، ولعل هذا يتبدى لنا من خلال بعض النظرات إلى واقعنا التعليمي وتداعياتها الثقافية:

فالتنوع الثقافي أمر مرغوب ونهج محمود، ولكنه محكوم بقاعدة، وإذا اختلف ميزان العمل بها فلربما أساء وأنبت مظاهر تشردم وفرقة، وتلك القاعدة تقول بأنه كلما اقتربنا من الأصول والجنور، فالأفضل هو التجانس والوحدة، وكلما بعدنا في الفروع صح التعدد والتنوع. من أجل هذا حرصت مختلف الأمم والشعوب على أن توفر لأبنائها الصغار قاعدة تعليمية مشتركة تطول وتقصّر حسب حاجات كل منها، فيها يتلقى جميع أبناء الأمة القدر المشترك من العقيدة واللغة والمعارف الأساسية، ويكون هذا التعليم بمثابة الجذع المشترك، وبعده فلتتعدد أنواع التعليم ولتتنوع صيغته ومراحله.

لكننا، حتى الآن، ما زلنا نعيش ثنائية تعليمية بين تعليم ديني وآخر مدني

في سنوات العمر الأولى. وإذا كان طالب التعليم الديني يحاول تعلم معظم ما يتعلمه طالب التعليم المدني، بالإضافة إلى القدر الأساسي من الثقافة الدينية، إلا أن ذلك يشكل عبئاً ثقیلاً في سن المرحلة الأولى، مما يجعله غير قادر على إتقان أيهما دون أن يكون ذلك على حساب الآخر، فضلاً عما يؤدي إليه هذا العبء الزائد عن الطاقة، من غرس مشاعر غير ودية تجاه هذا النمط من التعليم بين الطلاب ونويهم بطبيعة الحال، ولا يصبح الدافع إليه إلا أنه يضمن للطالب الطريق إلى آخر مراحل التعليم.

وفي الوقت الذي يتقل فيه كامل طالب هذا التعليم بكل من الثقافتين الدينية والمدنية الحديثة نجد طالب التعليم المدني يتخفف تدريجياً من الثقافة الدينية واللغوية العربية.

كذلك فقد بدأت نوعية أخرى من تعليم المرحلة الأولى في الانتشار بسواعة ملحوظة، تقدم الثقافة الأساسية للناشئة بلغة أخرى غير اللغة القومية. وإذا كان البعض يمكن أن يقول بأن المحتوى هو نفسه الذي يقدم في المناهج العامة، إلا أن تقديمه بلغة أجنبية يفتح قنوات الاتصال بين أجيالنا الجديدة وثقافات الآخرين، ويسدها بينهم وبين موروث الأمة الثقافي. ولعل الواقع الثقافي للأجيال الجديدة خير برهان على ذلك.

بل إن وزارة التعليم نفسها قد دخلت حلبة السباق في هذا المضمار عن طريق:

- أ- التزايد المستمر في اقتطاع مساحة من التعليم العام ليصبح هو كذلك بلغة أجنبية، عن طريق ما يسمى بمدارس اللغات التجريبية.
- ب- إدخال اللغة الأجنبية في تعليم المرحلة الأولى، والتي هي مرحلة البدء بتعلم اللغة القومية.

وبنفس النهج، وعلى نفس المنوال، بدأنا نرى بعض الكليات التي تعلم باللغة العربية تفرد قناة خاصة لتقديم بعض المقررات بلغة أجنبية، مستتدة في ذلك إلى حاجة السوق الاقتصادي، الذي شهد توسعاً ملحوظاً في الارتباط بالسوق

العالمي.

إن محمداً علي، في أوائل القرن التاسع عشر، إذ كان مدركاً أنه لا سبيل
لنهضة الأمة إلا بالأخذ بمنجزات الأمم المتقدمة في العلوم والصناعات، إلا أنه،
وهو الأمي غير العربي، أدرك في الوقت نفسه ضرورة أن يتم ذلك عن طريق
القناة اللغوية العربية، فأعان على قيام حركة ترجمة ضخمة إلى اللغة العربية،
وكذلك إرسال البعثات إلى البلدان الأجنبية المتقدمة، مع ملاحظة أن ذلك كله
انحصر في دائرة العلوم الطبيعية والرياضية والتطبيقية، ولم يقرب العلوم
الإنسانية.

وإذا كان رواد الثقافة المصرية قد عاشوا تعليمنا عندما كان يعلم باللغة
الأجنبية بفعل سياسة الاحتلال البريطاني، إلا أننا ينبغي ألا ننسى كيف أن سبلاً
متعددة قد تهيأت لهؤلاء العظام، سواء بجهود ذاتية، أو بفعل المناخ العام، بحيث
كانوا على صلة دائمة بالمصادر الأساسية للثقافة العربية الإسلامية، فاستطاعوا
بذلك أن يجمعوا في تفكيرهم وحديثهم ولغة كتاباتهم بين المورث والواقد، بينما
نلاحظ على كثيرين من علماء ومتقفي اليوم، إذ يتقنون لغة أجنبية، لكنهم يعيشون
انفصاماً شبه كامل عن الموروث الثقافي، مما يجعلنا أمام مظاهر خلل وآيات
ضعف، وتظهر المقارنة واضحة في مترجمات الأمس التي تبدو وكأنها مؤلفة، بما
هي عليه من سلاسة، ووضوح، وتماسك عبارات وسلامة تركيبات، ومترجمات
اليوم التي يلفها الغموض، وتنتشر فيها الركاكة.

وليست اللغة مجرد وعاء للفكر، فلقد أصبح هناك عدد غير قليل من
العلماء والمفكرين ممن يرون أن اللغة فكر، ومن ثم يصبح استقصاء الوضع الذي
صار عليه معلم اللغة القومية جانباً أساسياً في قضية المسؤولية الثقافية للتعليم. فلقد
أصبحت كليات التربية هي المغذية الأساسية لسوق معلمي اللغة العربية. وبحكم
ظروف لا مجال لها هنا أصبح هذا المعلم يتخرج مفتقداً ما يمكنه من أن يكون
مرشداً وموجهاً فعلاً للأجيال الجديدة في امتلاك ناصية اللغة القومية. إن كانت هذه
السطور يقول ذلك لا عن طريق ما سمع، وإنما عن طريق ممارسة وخبرة

ومشاهدة لما يؤسف له أشد الأسف، من أخطاء فاحشة في كتابات هذا الصنف من المعلمين أحاديثهم، فعلى أي حال إن يكون تلاميذهم؟ وكيف تكون الصلة إن بين هؤلاء وهؤلاء وبين مصادر الثقافة العربية الإسلامية؟

إن هذا الفيضان الذي يحاصر أبناء الأمة من الأسماء والعبارات الأجنبية مكتوبة بحروف عربية مثل: (سنتر/ مودرن/ ماركت/ شوبنج/ سويت/ سكول/ نايت/ ... الخ) من شأنه أن يغيب مفردات اللغة القومية ويوارىها السراب فتقطع الصلة بين الأبناء وبين مصادر الثقافة العربية، ولا نظن أن هناك ما هو أخطر على ذاتية أمة من افتقادها التدريجي لأدوات ثقافتها.

ومن هنا تبرز ضرورة إعادة النظر فيما أثرناه من جوانب تعليمية، حتى يكون التعليم طاقة قوية لثقافتنا وليس العكس.

أجيالنا بين التقدم والتراجع

يكاد أن يكون في حكم المعتاد ، عندما يجلس جيل جديد إلى بعض المنتخبين إلى جيل سابق ، أن يسمع الأولون من الآخرين أن أيام الماضي كانت أفضل وأحسن مما صارت إليه الأمور في الزمن الحاضر ...

وهكذا ، كنت كلما ثار الحديث أمامنا ، ونحن لم نزل بعد في أول الطريق في السلك الجامعي (معيدين) ، ليتناول مقارنة بين أساتذتنا ، غالباً ما أسمع حكايات وقصص عن (الضمير) الذي كان سائداً ، وعن (الإخلاص) الذي كان حاكماً ، وعن (الأستاذية) التي لا تعوض ، وعن .. الخ . ثم يلتفت إلينا أساتذتنا لتبدو علامات الاستياء وآيات التحسر : فعلى أيدينا نحن ، الجيل الجديد ، ستهبط قيم العلم والتعليم إلى أسفل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأصارع القارئ بأنني واحد من الناس كنت أسمع هذا وأصدقاه دائماً ، وكثيراً ما كنت أنظر إلى أساتذتي بنظرة تتشعب بقدر من الاحترام والتقدير تكاد أن تضعهم في مكان (مقدس) ، فلا أتصور أن هؤلاء بشر عاديون يتحركون وينفعلون ويتصرفون كما يتصرف سائر خلق الله ، بل إن فيهم عنصراً آخر يرفعهم فوق مستوى البشر وإن تزيوا بزيتهم .. وكنت كثيراً ما كنت أسائل نفسي : هل من المعقول أن نصل إلى ما وصل إليه زكي نجيب محمود ويوسف مراد ومصطفى سويف (في قسم الفلسفة بأداب القاهرة) ، أو نصل إلى ما وصل إليه أبو الفتوح رضوان وحامد عمار ومحمد الغنم (في تربية عين شمس) ؟

كانت الإجابة بالنفي ... غالباً ..

وتمر السنون والأعوام ، وإذا بنا - تلامذة الأمس - نصبح من أساتذة اليوم ، ويظهر بعدنا جيل واثنان وثلاثة ، وإذا بي أجد نفسي أكرر في حديثي إلى

الأجيال الجديدة ، ومع تلاميذي نفس (النعمة) التي كنت أسمعها من أساتذتي .
على سبيل المثال ، أنكر أن جهدي في رسالة الماجستير لم أكن راضيا تمام
الرضا عنه في وقتها ، لشعوري بأنني لم أت بجديد ، ولم أقف موقفا نقديا من
الفلسفة البرجماتية التي كانت موضوعها ، ثم إذا بي اليوم ، أنظر إلى كثير من
الباحثين بقدر غير يسير من الحسرة وبقدر أكبر من الأسى ، لأنهم لا يستطيعون
أن يفعلوا ما فعلت ، حيث لم أترك كتابا لأصحاب هذه الفلسفة أنفسهم بالإنجليزية ،
إلا وقرأتها ، فضلا عما ترجم وكتب عنهم بالعربية بطبيعة الحال .

والحمد لله أن هذا لم يجعلنا نتوهم في أنفسنا عبقرية لا تتكرر وذكاء غير
ملحوق ، وإنما مؤشر هذا هو دلالاته على مدى (التقدم) أو (التراجع) ، وهكذا
يكون معنى ما قلنا ، عن جيلنا ليس دليل عبقرية بقدر ما هو دليل إهمال وتقاعس
من أتوا بعدنا .

إن محصلة هذا كله ، تصيب الإنسان بقدر كبير من الإحباط واليأس ، إذ
لا معنى لهذا إلا أن المنحنى البياني للتطور البشري يسير إلى هبوط دائما ، بل إننا
نلمس هذا على ألسنة الناس ، عندما يقولون أن (القيامة) على وشك (القيام)
تعبيراً عن سوء ما وصلنا إليه وعن استمرار التدهور البشري ، وبناء على عقيدة
مؤداها أن الزمان عندما يصل إلى قاع الفساد والتحلل ، وعندما تنفسخ العلاقات
بين الناس ، وينكر الأخ أخاه ، فلا بد أن تكون هذه هي (نهاية العالم) .

لكننا ، من ناحية أخرى ، نسمع ونكتب ونقرأ ونشاهد آيات مذهلة عن
التقدم العلمي والتطور التكنولوجي والرفاهية الاجتماعية تحيط بنا في كل مكان
..فها هي الصواريخ العابرة للقارات ، وهذه المراكب الفضائية ، وهذه هي أجهزة
ما سمعنا عنها في أحلام الأمس تصل أرجاء المعمورة تحليلها إلى عالم واحد
، وهذه هي ملايين الكتب والمجلات تفيض معرفة وعلما وبحثا ودراسة إلى الدرجة
التي أعجزت العقل البشري نفسه عن استيعابها فاخترع عقولا إلكترونية كي
يستوعبها ، وها هي الملايين من البشر فيما كان يسعى بالكتلة الشرقية تزحف
زحفا ، غير حافلة بمدافع الحكام المستبدين وزنا زينهم لتزيحهم من أمامها ولتمسك

هي بإدارة الحكم لتتسع دائرة الديمقراطية وتتأكد حقوق الإنسان .. إلى غير هذا وذلك من مظاهر يستحيل على أحد أن يحصرها تعبيراً عما وصل إليه الإنسان من تقدم ربما تخطي بها حدود ما كان يأمله ويحلم به في غابر العصور .

هل هناك تناقض بين ما ذكرناه عن مظاهر (تراجع) وما ذكرناه عن مظاهر (تقدم) ؟

البعض يؤكد أن (الكبار) مولعون دائماً بالإشادة بالماضي وحديث الذكريات ، حتى لقد عبر شاعر عن ذلك بقوله :

رب يوم بكيت منه فلما مضى بكيت عليه

وأن التدهور الحالي يؤكد أن المقولتين صحيحتان ، فهناك تدهور في القيم الأخلاقية ، لكن هناك تقدماً في المظاهر المادية .

والرأيان يحتاجان إلى مناقشة :

فنحن لا ننكر سحر الماضي بالنسبة لكبار السن ، بل للطبيعة الإنسانية على وجه العموم .. لكننا إذ نتحدث في المجال العلمي والثقافي ، فإن هناك معايير وشواهد ونماذج وأمثلة يمكن التذليل بها على صحة التقهقر الحادث في كثير من القيم العلمية والثقافية ، فليست المسألة إذن هي مجرد حنين إلى الماضي ، وإن كنا لا ننكر بالطبع أثره في التضخيم .

ذلك فمن العسير - في رأينا ، العزل ، لنقول أن هناك تدهوراً في القيم الأخلاقية ، وتقدماً في الجوانب المادية ، فكاتب هذه السطور ممن يؤمنون - في نطاق ما هو بشري - بأن المعنويات والأخلاقيات ، إفراز لواقع اقتصادي واجتماعي وسياسي معين ، ومن ثم ، فالقيم الهابطة ، لا تفرزها إلا وضعية متخلفة ، والقيم الرفيعة ، لا تجيء إلا نتاج واقع متطور .

لكن .. لماذا يحرص الإنسان دائماً على إنكار التناقض ؟

إن الحياة التي تحيط بنا تضحج بالعديد من علاقات التناقض والتضاد ، التي هي قوى تحرك الدنيا في سعي نمط دائماً وأبداً : ليل / نهار - خير / شر - حلو / مر - نكر / أنثى - ضحك / بكاء - أمام / خلف - أسفل / أعلى .. وهكذا ،

فلماذا لا نتقبل أن يكون هناك تراجع في بعض جوانب الحياة البشرية ، وتقدم في جوانب أخرى دون أن ينحصر ذلك في قسمة بين ما هو معنوي وما هو مادي؟
على أية حال ، فإننا نؤمن إيماناً راسخاً بأن (التطلع إلى الأفضل) ،
حتمية حياة وضرورة بشرية .. لماذا ؟ إننا لو تصورنا عكس ذلك ، لاستحالت
الحياة البشرية بالفعل . وليتصور القارئ معنى الحياة إذا أحاط بنا جميعاً (يقين)
بأن الأمس أحسن من اليوم ، وأن اليوم هو الأحسن بالنسبة إلى الغد ، إذ لا بد أن
(تموت) دوافعنا للعمل والحركة والنشاط ، وتستبد بنا مشاعر اليأس الكامل ، فلا
يكون هناك عمل ولا يكون هناك نشاط .

التطلع إلى الأفضل إذن هو بالفعل حتمية حياة وضرورة بشرية ...

ومن هنا كان السعي إلى (التجديد) ، ومن هنا كان السعي إلى
(التطوير) ، وكان السعي إلى أن تنفض عن أمور حياتنا - نوما - أقيار الذي
يتراكم بمرور الأيام ، ونطور من هذه الأمور ، ونغير فيها ، حتى يجيء يومنا
أفضل من أمسنا ، ويجيء غدنا أفضل من الأمس ومن اليوم ونكون جديرين بالفعل
بالقيام بحمل المسؤولية التي عرضها الله عز وجل على سموات والأرض والجبال
" فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان . إنه كان ظلوماً جهولاً " . صدق
الله العظيم .

تجربة د. زكي نجيب محمود التربوية*

كان ذلك في نوفمبر عام ١٩٨٥، عندما أصدرنا مجلة (دراسات تربوية) حيث شرفت برئاسة تحريرها منذ ذلك التاريخ. فلقد ألحت علينا فكرة هامة انطلقت من قناعة لدينا بأن العمل التربوي لا ينبغي له أن ينحصر في (فنيات) تتعلق بكيفية التدريس وتحضير الدروس وإجراء الامتحانات، وما سار على هذا النهج، فهذا العمل التربوي يتعلق ببناء الإنسان (صناعته) - إذا صح هذا التعبير - وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن يتسم بالرؤية الكلية والنظر المتكامل لشخصية الإنسان بأبعادها المختلفة. وهذا يعني أن ذلك العمل لا بد أن يكون (ثقافياً)، إذا استندنا إلى المفهوم العام للثقافة الذي يجعل منها نتاج التفاعل الاجتماعي والإبداع الفردي. من هذا المنظور، كان توجهنا إلى ضرورة أن تفتح المجلة عدداً من صفحاتها لمسائل ذات طابع فكري عام لمن يحتلون مكانة متميزة على خريطة الفكر العربي.

ووفقاً لهذا أيضاً، قلنا لأنفسنا، إن كبار مفكرينا هم من غير شك نتاج (تعليم) و(تربية) من الضروري أن لها بصماتها - سلباً أو إيجاباً - على تكوينهم الفكري، فلماذا لا نحاول أن نفق على (التجربة التربوية) لبعضهم ليكون هذا حلقة من حلقات (التاريخ الفكري) و(التاريخ التعليمي) تضيء جوانب كثيرة قد لا تسعفنا بها الوثائق والمراجع المكتوبة؟

كانت الشخصية الأولى التي برزت أمامنا هي شخصية د. زكي نجيب محمود. وحادت الرجل تليفونياً أطلب زيارته من أجل ذلك، فوافق .. ذهبت، ومعني زميلي وتلميذي د. محمد وجيه الصاوي الأستاذ بتربية الأزهر. وكانت المقابلة في يوم الأحد ١٤ سبتمبر من عام ١٩٨٦. بدأت الساعة

* نشرت بمجلة (أخبار الأدب) عقب وفاة د. زكي نجيب محمود.

العاشرة صباحاً، وانتهت قبل الواحدة ظهراً بقليل.

أقول الحق .. لقد أشفقت على مفكرنا العظيم عندما رأيته هذه المرة، بعد آخر زيارة له عام ١٩٦٨ بمجلة (الفكر المعاصر) حيث كان مكتبته في عمارة بشارع (فؤاد) من ناحية ميدان الأوبرا .. لقد أجهدت الرجل سنوات العمر العديدة، وإن كان عقله، والحمد لله ظل متوهجاً، لكن بصره كان قد أصبح شاحباً إلى حد كبير. كان في المنزل وحيداً، حيث لم تكن معه في هذه الساعات، رفيقة عمره، د. منيرة حلمي.

كان الرجل يتحرك بصعوبة، نضعف بصره: يفتح الباب، ويأتي (بالتحية) لنا.. الخ، حتى لقد عجبت في ذلك الوقت: كيف لا توفر لهذا العملاق (سكرتارية) تعينه في عمله وقد بلغ هذه المرحلة المتأخرة من العمر.

وانحصرت أسئلتني في خبراته في التعليم: تلميذاً ومعلماً، فماذا كانت عليه صورته في هذا الحوار؟ سألته عن فترة تعليمه في مرحلة التعليم الابتدائي حيث تنقل في هذه الفترة المبكرة من مدرسة أولية بقرية (ميت الخولي) بمحافظة دمياط، ثم بالقاهرة، ثم بالسودان بكلية غوردون، فقال:

• أولاً: قبل أن ينتقل الوالد إلى حكومة السودان عندئذ ويأخذ أسرته معه، ونحن معه، كنا ما نزال دون العاشرة، وكان التعليم الذي مارسناه في القاهرة، ومن قبل القاهرة، في قريتنا في محافظة دمياط الآن، المدرسة الأولية.

نما سافر الوالد وسافرنا معه إلى الخرطوم سنة ١٩١٤. كان عمري تسع سنوات، وكنت قد فرغت من المدرسة الأولية بالقاهرة التي هي مدرسة السلطان حسين، في ميدان السيدة زينب، والتي ما تزال قائمة إلى الآن، لأنني أذكر منذ بضع سنوات كنت أمر هناك، وتعمدت المرور عليها فوجدت المبنى قائماً.. إنه مبنى أثري، على هيئة سبيل، وهو على ناحية حارة الكاشف في ميدان السيدة زينب.

المقارنة بين المدرسة الأولية بالقاهرة وكلية غوردون التي التحقنا بها غير ممكنة إن المدرسة الأولية كانت تتعلق بالأوليات، أما في كلية غوردون فكانت

مركبة من مدرسة أولية وأخرى ثانوية في نفس الوقت. وكانت هي المدرسة الوحيدة التي يؤمها الطلاب السودانيون من حيثما جاءوا من أقطار السودان. كانت المدرسة مؤسسة على نطاق إنجليزي صرف، يعني لم ندرس بالعربية إلا دروس اللغة العربية. ثم كانت هنالك فروق كبيرة جداً بينها وبين ما أعرفه عن المدارس الابتدائية والثانوية في مصر. كان هناك اهتمام شديد بما نسميه (دروس الأشغال) ودروس المعلومات العامة. دروس الأشغال هذه كانت تدرس لنا في مدرسة الصناعات، حيث كانت أيضاً مدرسة صناعات ضمن المركب التعليمي المسمى بكلية غوردون.

كان هناك درسان: ساعتان في كل أسبوع تقضيهما في مدرسة الصناعات نتعلم الحرف المختلفة: النجارة في مقرر، الحدادة في مقرر، الكهرباء في مقرر .. وهكذا، والامتحان يكون في فصل النجارة في مقرر النجارة : أعمل منضدة، مقاييسها كذا وكذا .. إلى هذا الحد. هذا جانب عملي صرف، وأعتقد أنه كان مفيداً ومرحاً. مثل هذا غير موجود الآن.

مظهر آخر في المقارنة، هو سلبى. تجنب تعليم أي مادة تغرس الشعور القومي في النفوس، فالتاريخ كان لا يكاد يعطى منه شيئاً، وكذلك دروس التربية الوطنية التي تبث عادة لغرس وتنمية هذا الشعور، لم يكن هناك منها شيء. الألعاب الرياضية، كانت تنافس، إن لم تكن أفضل من دروس المواد الأخرى، فكان تلاميذ المدرسة يقسمون إلى درجات في لعبة القدم، مثلاً، لا يفر واحد، لأن المسألة لم تقدم على الاختيار.

وكذا ندرس اللغة العربية، واللغة الإنجليزية، والجغرافيا.. وهكذا. وكنا نلعب الكرة أقساماً، ولها حضور وغياب.

قسمت كلية غوردون إلى أربعة بيوت أو ما نسميه هنا (الأسر): ثلاثة بيوت منها للطلاب من أقسام السودان المختلفة، شرق السودان، وجنوبه. وكنا نحن في البيت الرابع، التلاميذ (الخارجية). هؤلاء أصحاب الأقسام الثلاثة، كانوا (داخلية) وحتى ونحن (خارجية) كانت تقرر علينا ألعاب نلعبها في العصر، وبها

حضور وغياب، ولها رئيس علينا ولها أيام مخصوصة.. هناك في ساحة كبيرة في المدينة.

مثل هذا لا أعتقد أنه في المدرسة المصرية، ولا أدري أيضاً إذا كان من الخير أم لا أن يبالغ في هذا الجانب.

ولأمر ما، كان التلاميذ هناك، أيامنا، يقرعون قراءات خاصة في الأدب العربي القديم: الشعر العربي، المعلقات وغيرها. كنا مضطرين، حتى ولو لم يكن فينا الرغبة الطبيعية، في أن نحفظ الشعر ونقرأ الكتب، ونأتي لنناقش الآخرين فيما قرأنا.. كنا مضطرين أن نساير هؤلاء، فعادة القراءة، وبخاصة في الأدب، وبخاصة الخاصة في الشعر، قراءة وحفظاً، كانت مسيطرة.

- هل كان هذا تعبيراً عن اهتمامات خاصة، أم جزءاً من نظام الدراسة؟
= لا.. لم يكن جزءاً من نظام الدراسة، هذه كلها وضعت فينا بذور، وربما ظل هذا معنا إلى الآن.. ثم لا ننسى النظام الدقيق جداً في المواعيد وفي الثواب والعقاب، وهذا من مكونات الشخصية بالضرورة، لكن لا أدري بالنسبة للمجموع الكلي لحاصل هذا النوع من التعليم، هل كان في صالحه أو في غير صالحه. ربما تحتاج المسألة إلى تحليل دقيق علمي، فربما كان اندفاعي في القراءة وإلى التحصيل فيما بعد، نتيجة من النتائج، وربما اهتمامي بالأدب، ولو أنني لم أدرسه فلا بد أن يكون لها تأثير. فمثلاً اهتمامي بدقة المواعيد إلى الآن.. لا أذكر يوماً واحداً تقريباً، بلا مبالغة، أفلت مني موعد ولو بدقيقة واحدة. لقد درست ما يزيد على خمسين سنة، لا أذكر أنني تأخرت مرة واحدة دقيقة واحدة في إحدى المحاضرات، بل بالعكس، كنت أذهب قبل المحاضرة دائماً، ثم أنتظر الطلاب. من يدري ويجوز جداً أن يكون هذا نتيجة لتربيتي الأسرية من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة للمدرسة.

- هل كان اختيارك لمدرسة المعلمين العليا لأسباب معينة، أم أن المسألة كانت (صدفة)؟

= والله، لسبب كبير، وآخر صغير، ولو كانت الصدفة قد انحرفت قليلاً، لانحرف

الاختيار. أما السبب الكبير، أن تصورنا في عائلتنا كان تصور موظفين .. بلدنا بالذات (ميت الخولي)، كان هناك توجه عام نحو التعليم فيها بدرجة ظاهرة، الذي يتعلم، يتوظف، ولا يعود إلى البلد إلا زائراً. ففكرة الوظيفة ملأت رؤوسنا.. فما هي المدرسة أو الكلية أو المعهد الذي يضمن لنا وظيفة؟ إنها المعلمين، ولذلك، في سنة حصولنا على البكالوريا، دخلنا ١٥٠ طالباً، وأكثر من مائة من أوائل البكالوريا دخلوا المعلمين، لأن التصور الذي كان عندي كان لدى غيري، وهو ضمان الوظيفة.

في السنة التي دخلنا فيه المعلمين، كانت هي السنة التي نشأت فيها الجامعة بشكل جديد، انجذب إليه أفراد قليلون، لأنها كانت مجهولة، وخصوصاً كلية الآداب، وعلى سبيل التفكه، كنا نسأل: ماذا تخرج هذه الكلية؟ أدباء ونحن نريد وظيفة. هذا هو السبب الكبير.

أما السبب الصغير، فإنه يبين لك كيف تتحرف حياة الإنسان بصغائر. كلن لي ابن خالي مدرس علوم بالإسكندرية، وهذا كان يعرف، حقيقة: كيف يعيش. عندما يأتي صيفاً إلى القاهرة، حيث كان يأتي في تصحيح الامتحانات، ينزل في لوكاندة (محترمة)، ويلبس ملابساً فخماً، ويجلس على المقاهي الغالية في وسط البلد، فلما كان يزورنا، يأخذ واحداً منا معه في أحد هذه الأماكن ينبهر بحياته، وهذا مدرس خريج المعلمين العليا. إذن هو الطريق.. أفكر هذا كان له تأثير أكيد على اختياري للمعلمين العليا.

- ما تشخيص الدكتور زكي نجيب للصراع الذي كنا نسمع عنه بين الجامعة والمعلمين العليا؟

= المعلمين كان يدخلها، تقريباً كل أوائل البكالوريا (الثانوية العامة). فقد رأت كلية الآداب أن المتقدمين إليها قليلون، بل إن كثيرين منهم لم يكونوا على المستوى المطلوب، بدليل أن كثيرين من الدفعات الأولى أرسلوا في بعثات إلى أوروبا ولم يستطيعوا الحصول على الدكتوراه وعادوا. أين هذا ممن كانوا بالمعلمين؟ فكلية الآداب فتحت الأبواب لمن يشاء أن يحول لها من مدرسة

المعلمين (وكذلك العلوم) بإغراء شديد جداً.. وقليلون جداً ذهبوا، أنكر منهم د.عباس عمار، وزكي محمد حسن.. كانا زميلين لي وذهبا. الفكرة كانت غامضة بالنسبة لي، ولذلك لم أفضل النقل مثلهما.

من الإغراء الذي قدموه، أن الذي يحول من المعلمين إلى الآداب يستطيع أن يبقى في المعلمين في الوقت نفسه، فتحوا فصولاً ليلية ٠٠ فهؤلاء تنبها وقالوا: لنأخذ الاثنين، لكن، لسيطرة فكرة الوظيفة علينا، سرنا في طريق المعلمين.

- كم سنة مارست التدريس؟

= والله، نحو عشر سنوات.

- هل لديك انطباعات معينة يمكن أن نسمعها عن خبرتك التعليمية في المدارس؟

= نعم، لحسن الحظ، أو لسوءه، كنت من بين الذين اختيروا للتدريس في مدارس الأوقاف الملكية. فما هي هذه المدارس؟ كانت هناك خمس مدارس، ثلاثة ابتدائي، واثنين ثانوي، هنا بالقاهرة، ينفق عليها الملك، ولها إدارة خاصة في القصر الملكي، ولذلك اعتزازاً بانتمائها إلى الملك كانوا يختارون مدرسيها بالتكليف ممن يعتقدون أنهم ممتازون، فضلاً عن أننا، عندما تخرجنا، كانت هناك الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة سنة ١٩٣٠، لذلك لم تكن هناك ولا وظيفة. فلم يكن أمامنا مجال للاختيار.

بعد ذلك، ضمت هذه المدارس إلى وزارة المعارف سنة ١٩٣٥، فانتقلنا طبعاً معها إلى هذه الوزارة، فخبرت بذلك نمطين مختلفين جداً: أحدهما عن الآخر، وإلى الآن لا أستطيع أن أجد الجواب الصحيح، عما كان هو الأفضل. أما مدارس الأوقاف، فكانت تختار الطلاب، من الممتازين أيضاً، وكانوا يكفونهم بأعمال شاقة كثيرة، وبحيث لا يجد الطالب لديه فراغاً من الوقت. كانوا يجاسبون المدرس على نتائج الطلاب حساباً عسيراً.

فلما تأتي السنة السابقة على الشهادة، كانوا لا ينقلون إلا الطالب المضمون نجاحه، ولذلك كان القصر الملكي بنفسه حريصاً على أن النتائج بهذه المدارس

تكون ١٠٠% وإلا اهتزت كرامة الملك! تصور الطاحونة التي كان ينبغي أن تعمل على أي حال، كانت، لكي تصل إلى هذه النتيجة، والتي إذا لم تحدث، فكان هذا هو نهاية العالم، فكان الأوائل منها دائماً، وكان يقال أن هؤلاء تفوقوا بالشغل الشاق. لكنهم عندما انتقلوا إلى الجامعة، كثير منهم فشلوا. هل كان هذا حقيقة أم حقد من المدارس الأخرى؟ لا أدري.

أما مدارس المعارف، فكانت تسير بهوادة. طبعاً، مع الاختلاف الشديد بينها، في ذلك الوقت، لكن على أية حال، لم يكن ذلك حقدًا. (الكرباج) وراء الطالب، أو وراء المدرس.

الآن أقول أن مدارس المعارف أفضل، ولو كانت النتيجة أقل، لأنني أميل إلى أن تترك مساحة كافية لجهد الطالب الذاتي وحرية، لفطرته وميوله، ولا يصب في قالب من حديد.

ولما طلبت من أستاذنا أن يحدثنا عن بعثته العلمية، قال:

= سافرت سنة ١٩٤٣ في بعثة إلى لندن، وهناك قررت، مختاراً، حيث كان باستطاعتي أن أحصل على إعفاء من الـ (الدرجة الجامعة الأولى)، لكنني أعلم أن الدكتوراه، لا تفيد كثيراً.. إنها بحث، لا تضيف كثيراً. إن الذين يذهبون إلى إنجلترا لا يمكنهم نظام (الرسائل) من الاستفادة كثيراً.. الفائدة تكون في دراسة المقررات. لقد ذهبت كبيراً في السن. في سبتمبر، قلت لرئيس القسم أنني سألتحق بالـ B.A في الصيف. قال: لن تستطيع. قلت له: إنني كبير في السن. قال: ولو، إنني نفسي لا أستطيع. إنها مسألة عدد من الكتب مقررة لن تسمح لك هذه الفترة باستيفائها، وبالفعل، كان مقرراً علينا في الفلسفة ١٤ كتاباً. مرحباً. وكانت الامتحانات شاقة، تفصيلية، كأن يجيء سؤال، مثلاً، كما يلي: ما هي أهم النقاط التي وردت في الفصل التاسع من كتاب الأحلام لأرسطو؟ فأما أن تكون حاقظاً لهذا الكتاب، وإلا فلن تستطيع اجتياز الامتحان. كان يسألني في تفصيلات الكتب. أسئلتنا هنا، مقالات. ومن هنا يمكن اللف والدوران، أما هناك فهي تحصيل التحصيل، لكن ربنا وفقني وحصلت على

درجة الـ First degree honour ولم يكن يحصل عليها إلا عدد قليل جداً، فاعتبرت حاصلاً على الماجستير، وكان لي الحق في التسجيل للدكتوراه فوراً، فسجلت، واخترت أولاً موضوعاً عن أفلوطين بمدرسة الإسكندرية، فأخبرني الأستاذ بأنه غير كفاء للإشراف على هذا الموضوع، والأفضل الدراسة في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بنفس جامعة لندن، لكنني لم أرغب في الدراسة بهذه المدرسة لتعدد وتنوع طلابها، فقلت: أغير الموضوع، فكان أن اخترت موضوع (الجبر الذاتي) Self determination ثم عدت إلى الجامعة المصرية.

- عندما عدت إلى الجامعة وبدأت تتبنى اتجاه الوضعية المنطقية، هل صادفتك عقبات ومشكلات على المستوى العملي؟

= .. وإلى الآن. بس أنا كنت في بداية حياتي مليء بالحماس لدرجة لا أستطيع أن أصفها لك. فلو كانت كل مصر ستقف لي بالحراب، كنت أصر على تبليغ الفكرة. ومن حسن الحظ، أنهم أعطوني مادة (المنطق) التي لم أكن متخصصاً في ذلك الوقت، بدرجة الدكتوراه فيها، إذ لو تأملنا موضوعها، فهو أدخل في باب الأخلاق، لكنهم أرادوا أن يتخلصوا من هذه المادة، فقلت: أهلاً وسهلاً.

وأي مادة كنت أدرسها، كنت أتمس فيها الطريقة التي أو من بضرورة عرضها، طبعاً مع الالتزام بالنقاط التي كانت المادة تحتوي عليها في المادة.. - هل تستطيع أن نقول أنك قد استطعت أن تحفر في الفكر الجامعي في مصر اتجاهها يشكل مدرسة لهذا اللون من الفكر؟

= أعتقد ذلك، لكن بتحفظات. فهناك من أخذوا هذا الخط وتشبعوا به، لكن من غير الإيمان بضرورة تشكيله بالطريقة التي تنتقل به من داخل أسوار الجامعة إلى خارجها. طبعاً إذا انتقلت الفكرة بهذا الفكر إلى خارج أسوار الجامعة يلزمي نوع آخر من العرض، وأنا مرة كتبت مقالاً أغضب كثيرين عن (الفلسفة خارج الأسوار). هنا، منهج هذا الاتجاه من أهم ركائزه: إن الفلسفة منهج بغير موضوع. ما معنى ذلك؟ معناه إنك فاتح معمل تحليل. معمل

التحاليل لديه أجهزة تحليل، تحلل ماذا؟ تنتظر المادة التي تجيء لك: دم ..بول.. أجسام. الأجهزة قبل أن تجيئها المادة، مستعدة للتحليل. فالفلسفة، في تصوري وفي تصور سقراط - لأن التصورين متشابهان جداً - هي نظرة .. النظرة عندما اشتريتها من (النظاراتي)، لا تقل لي : هذه النظرة لا بد أن تقرأ بها الكتاب الفلاني، إنها طريقة رؤية، فماذا ترى بها؟ هذه مسلة تترك لك.

هذا المنهج، كل همه أن يجعل الجملة صالحة أن تكون علماً، وهذا لا يتأتى لها إلا إذا راعت مواصفات القول الموضوعي: ما شروطه؟ فإذا رأينا جملة، دخلت بها وجدانيات، وعواطف، ونضبها، فلكي يصبح لمدرسة الفلسفة جدوى، فلا بد من تدريب عملي للطالب، فضلاً عن المقررات التي يتلقاها، تدريب على ماذا؟ كيف يحلل الفكرة؟ إنه لم يخرج عن مجاله، لأن الفلسفة كلها بها عنصر التحليل واضح جداً، كل ما هنالك، أشد انتباه الطالب إلى المنهج الذي يستخدمه الفيلسوف ليحلل الأفكار. هنا يخرج مسلحاً، فإذا كان لديه شيء من الموهبة التي يشارك بها في الحياة العامة الفكرية، سيجد وفرة من الأفكار الغامضة، الناس يدورون في دوامة من الأفكار الغامضة، وهم لا يشعرون. ويتعاركون حول أفكار هي غامضة، لو طلب منهم علمياً أن يحددوا ماذا يريدون بها، لن يستطيعوا الجواب، فهنا فرصة هائلة لدارس الفلسفة ليدخل بقلمه ويفكره لتوضيح المعاني.

ولو تأملت في الكم مما أكتبه، فسوف تجد أنه (توضيح معان).

- كيف كانت العلاقات بينك وبين الزملاء من الأساتذة في الجامعة؟

= حقيقة، كان لها وجهان، الوجه الأهم، هو أنني، بسبب انجذابي نحو بيتي دائملاً، فأنا الآن لا أخرج من البيت، وكنت طوال حياتي مضطراً إلى العمل، ولكنني أحب البقاء في البيت، فكنت أذهب إلى الجامعة بمقدار ما هنالك من عمل بالضبط.. أذهب في الدقيقة الأولى، وأخرج في الدقيقة الأخيرة إلى البيت، فكانت الفرصة كبيرة أمامي كي أكون محايداً، فلا تتفتح أمامي المشكلات التي تكون موضوع عراك بين الزملاء، ولكن لا يخلو الأمر برغم هذا من أنني

وجدت مقاومة شديدة جداً، ظاهرة أحياناً وخافية أحياناً أخرى، وتشويه سمعة كان يخفى أحياناً ويظهر أحياناً أخرى، على أساس أنني سائر على الشاطئ غير المشروع للفلسفة كما يتصورون.

- إذا سمح لنا أستاذنا الجليل، هنالك علامة استفهام تلح علي، فعندما التحقتم بالجامعة في أواخر الأربعينات، كان المجتمع الجامعي مواكباً للمجتمع المصري، يصطخب بكم كبير من صور الصراع السياسي والاجتماعي، فأين كان د. زكي نجيب من هذا؟

= الحقيقة، لك حق أن تسأل هذا السؤال. إن السياسة لم تمسني إلا كمواطن يتأثر بالعالم الذي حوله ثم لا يتخذ خطوة إيجابية بعد ذلك. هنالك فرق بين موقفين: أن تحصل الفكرة، أو تتأثر بالانطباع المعين أو غيره.. هذه خطوة، ثم هناك خطوة أخرى وهي أن تتفعل بهذا فتتخذ هذا الإجراء أو غيره، وهذه الخطوة قد تأتي أو لا تأتي. يختلف الناس في هذا، فأنا، مثلاً، في نواحي الفكر العام من النوع الأول، أي أحب الأفكار. عقلي شوكة رنانة لاقطة للأفكار ومغربلة لها وناقدة لها، وأنسج منها القماشة التي أريد أن أنسجها، وأحب أن أتجه بها نحو الناس، ولذلك تجد كتاباتي كلها متجهة إلى هدف، هو الحياة الجديدة.

لكن في المجال السياسي أتلقى وأتسرب، وأوقف عند هذا الحد.

- هل نفهم من هذا أنك لم تتعرض في فترة ثورة يوليو سنة ١٩٥٣، وخاصة وأنك كنت صاحب فكر معين يختلف مع الفكر السائد.. لم تتعرض إلى أي مضايقات سياسية؟

= كلا .. حقيقة لم تحدث لي مضايقات.

- حتى عندما ترأست تحرير مجلة (الفكر المعاصر) والتي اتجهت اتجاهاً يختلف عما ساد في مجلة الطليعة، ومجلة الكاتب، عموماً كان الاتجاه اليساري هو السائد؟

= قبل صدور العدد الأول، أعلنت في الصحف أنها مجلة لا تعرف اليمين و اليسار، هي للفكر الجيد. قامت ضجة. لا . نحن بلد يساري. لكن لم تأت

معارضة لي من الجهة المسئولة، إلا ربما، مرة لم تكن ذات أثر، من وزير الثقافة: لماذا لا تخدم المجلة أغراضنا؟ فقلت : والله أنا لا أخدم إلا الفكر، إذا كنت تريدون غير هذا، فتستطيعون أن تبحثوا عن رئيس تحرير غيري.

أما كيف سرت بالمجلة وسط هذه التيارات التي تقول عنها، فوا الله (بقدره قادر). أنا وجدت الأداة التي تخدم هدفي.. وهذا هدف نبيل. وأن هذا البلد لا بد أن يستنير، فما هي المصايح التي تثير؟ إن عصور التنوير كلها محورها واحد: وهو مزيد من المعرفة، ومزيد من زمام العقل.

وبعد .. لم يكن هذا هو (كل) ما دار بيننا وبين مفكرنا العملاق، ولكني اكتفيت بهذا الجزء على أساس أن تكون هناك فرصة أخرى لنشر الجزء الآخر.

كيف تكرم (التربية) رجال الفكر والصحافة والفن؟*

أيا كانت صورة التكريم وأشكاله ، فإن لها جميعاً توجه عام يستند إلى أن المكرم هو عادة من المبرزين في مجال بعينه أو في مجال عام ، يضيف إلى هذا المجال ما من شأنه أن يترك بصمة واضحة تجعل اسمه وسيرته صفحة أو صفحات من كتاب التاريخ .

ونحن اليوم ، من غير شك ، في موقف من مواقف التكريم نحتمل بمن هم بالفعل أهل لهذا التكريم لكني أستأذن مكرمينا الإجماع ، وأستأذن أهل هذا البيت الذين يضيفوننا أن أعبر عن مشاعري في التقدير بصورة قد تختلف عما يجري في هذا المكان في المسار ، لكن يشفع لها أنها تتفق معه في المبعث ، كما تنتهي معه في المقصد .

إن مكرمينا الأعزاء أهل ، ما في ذلك شك . لأن تسير إلى أعتابهم مواكب ، قد تفلح في إغراقهم بآيات مديح وتقريظ ، لكنها مهما قدمت في ذلك ، قد لا تستطيع أن تبلغ تلك المقامات الأعلى التي سمت إليها هامتهم . ولربما يكمل هذه الصورة للتكريم أن نسوق كلمات أخرى ، قد لا تمدح ولكنها تطلب .. قد لا تقرظ ولكنها تدعو . وأحسب أنها ما اتجهت إلى الطلب ، وما اتجهت إلى الدعوة إلا ليقين لدى قائلها بأنه أمام ينابيع تفيض بالعطاء الذي يغمر أبناء ، لا هذا الوطن المصري وحده وإنما ذلك الوطن العربي جميعه .

ولتأملوا معي هذه الدعوة بقدر ما أستطيع من إيجاز حتى لا أثقل عليكم بكثير كلام قد تنوء فيه المعاني وتتبعثر الأفكار ..

إن المظلة التي يتم تحت رابتها هذا التكريم ، اسمها : كلية التربية ..

* كلمة ألقيت في المهرجان الذي أقامته كلية التربية بجامعة المنصورة (مياط) لتكريم الكاتب الصحفي صلاح منتصر والدكتورة لطيفة الزيات والكاتب المسرحي على سالم .

والمحدث إليكم ، واحد من كتيبة العاملين في قطاع العلوم التربوية
والنفسية ..

وهو من هذا المنطلق يطمح ويطمع :

يطمح إلى أن يرى أكثر الصناعات تقلاً في التاريخ البشري ، ألا وهي
صناعة الإنسان ، تحتل مكانها الذي يزيد من فاعليتها في أن تكون طاقة تغيير
وتقدم ..

ويطمح في أن يضيف نجوم حفلنا العظام مزيداً من العطاء الذي تعودناه
منهم ، عطاء يصلح ما اعوج في هذه الصناعة ، ويكمل ما نقص منها .

ولرب سامع لنا يهمس لنفسه :ومال الفكر ، ومال الصحافة ، ومال الفن
بصناعة التعليم ؟ أليست لها كلياتها ومؤسساتها وعلماؤها وفنيوها ؟

إن هذا الهمس المتوقع ، هو صورة شائعة تفسر عجز التعليم عن أن
يحقق ما نطمح إليه وما نطمح فيه . ولكي نعي مكن الخطأ هنا ، فلنحسب سويًا
معاً كم من العمر يقضيه الإنسان في الحياة متعلماً هنا أو هناك لنعرف مقدار هذا
الخطأ ..

إن سنوات العمل تنتهي كما تنتهي كما نعلم في سن الستين حسب قانون
الخدمة الحكومية ، يقضي منها الإنسان الذي يتعلم إلى أعلى المراحل التعليمية
ثمانية سنوات بالتعليم الأساسي وثلاثاً بالثانوي ثم أربعاً بالتعليم العالي لتساوي
جميعاً خمس عشر سنة . ولو أضفنا إليها خمس سنوات لاحتمالات الرسوب
والتخلف أو لحساب الدراسات التي قد تستغرق زمناً أطول مثل الطب والهندسة ،
يصبح إجمالي الفترة عشرين سنة فقط هي التي يقضيها في معاهد التعليم ، وتتبقى
أربعون سنة يقضيها خارجها ، خاضعاً لقل مؤثرات وسائط المجتمع المختلفة .

والأمر لا يقف عند هذا الحد ، ذلك أننا إذا عرفنا أن صاقي الشهور
الدراسية في العام الدراسي في مصر لا تزيد عن ستة شهور ، أي نصف العام ،
فمعني ذلك أن المتعلم يقضي في معاهد التعليم عشر سنوات في أحسن الأحوال ،
ويقضي الخمسين سنة الباقية خارجها .

كذلك إذا عرفنا أن المتعلم يقضي في أحسن الأحوال ما لا يزيد عن ثماني ساعات في اليوم ، فمعنى ذلك أنه لا يستغرق من العشر سنوات إلا ثلثها ، أي ثلاث سنوات وثلث على وجه التقريب .

وخاصة الأمر أن المتعلم تعليماً عالياً يعيش خارج معاهد التعليم مدة لا تقل عن ست وخمسين وثلث من سنوات عمره الستين ، فمن هنا يكون فرداً بين العازفين في فرقة موسيقية لا يفيد أن يكون وحده عازفاً ماهراً لتخرج الأنغام عذبة شجية ، وإنما لابد من التناسق والتناغم والتضافر بين كل العازفين بقيادة مايسترو ماهر حتى تعرف تلك الأنغام المطلوبة طريقها إلى أذان تسمع فتنتشي وعقول تفهم فتعي وقلوب تفرح فتطمئن .

ومن هنا يجي تطلعنا إلى زعاماتنا الفكرية والصحفية والفنية لثلاث أصبح قضية التعليم هي قضية أساتذة التربية وعلماء النفس وحدهم ، فكما قال قائل أن الحرب أخطر من أن تترك للعسكريين وحدهم ، فإننا نقول أيضاً أن التعليم أخطر من أن يترك للتربويين وحدهم .

لقد اقتضت سنوات بحثي للدكتوراه أن أقلب وأقرأ آلاف من صفحات صحف ومجلات مصر في عهد الاحتلال البريطاني ، وكان من أبرز ما لاحظت أن زعماء الحركة الوطنية وشوامخ مفكري الأمة كانوا هم القائمين بأمر الصحافة المصرية .. كان منهم : محمد عبده ومصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس العقاد والدكتور هيكل . وكانت قيادات الأمة تدرك بوعي وطني مستنير أن الجهل هو التربة التي تنبت التخلف ، وأن التخلف هو مرتع قوي الاستعمار والاستغلال ، فأداروا معركتهم ضد الاحتلال الإنجليزي داخل معاهد التعليم وفي العقول والأفكار ، بجانب المقاومة المسلحة فانفجرت ثورة ١٩١٩ وبدأت أولى صفحات الاستقلال .

كان استقلالاً شكلياً يحتاج إلى بناء الإنسان وإتقان صناعته ، لكن كثيراً من زعماء هذه الفترة بدأوا أول الأخطاء الكبرى في تاريخنا المعاصر بأن غفلوا عن أن شكل الاستقلال لا تكون له قيمة إلا بمضمون يتبدى في صناعة إنسان

عامل حر ، وبدلا عن ذلك تحولوا إلى التعارك حول كرسي حكم لم يكن أمره بيد حتى من يجلسون عليه .

ثم كانت الفرصة التاريخية الكبرى بعد ثورة ١٩٥٢ . ولقد شهدنا بالفعل خطوات جادة وملموسة على طريق الوعي بقضية صناعة الإنسان الجديد ، لكن اشتداد وطأة المعارك الخارجية ، وما استتبعته من تضيق لحركة المواطن ، أفقدا هذه الصناعة ركنين لا قيام لها إلا بهما أولا وهما المال والحرية .

ومنذ السبعينات ونحن نواجه تقهقرا مؤسفا في التعليم يزيد أسفا ذلك الخوف المشين من الاعتراف بهذا التقهقر ، مع أن الوعي بالمرض أول خطوات العلاج . إنه لا يعيب الأمة أن تعيش أزمة في صناعة إنسانها ، ولكن يعيبها ألا تشعر بذلك ، ويشينها ألا تواجهه .

إن مقارنة جهد اليوم بجهد أمس إزاء هذه القضية فكريا وصحفيا وفنيا قد لا تسرنا لأن جهد فكر اليوم يتعالى على إثراء فكر التعليم . وصحف اليوم تقف بالقضية في كثير من الأحوال عند حدود المناسبات ذات الأخبار الساخنة المثيرة دون تحليل ودراسة ، أو تحقيقات صحفية ، أو تصريحات ، وفن اليوم في بعض صور التي تتزايد ، يبذر من القيم ما يعاكس فعل التربية .

إن التقدم الاجتماعي لا يتم بمجرد الرغبة والتمني ، وإنما بجهد التنمية الواعي وجهد التنمية بحاجة إلى موارد . وإذا كانت الأرض الزراعية والماء هما أهم الموارد الطبيعية في مصر ، فإن عددا من الخبراء يؤكدون أنها موارد محدودة الزيادة والنمو ولكننا نؤكد لكم أن المورد البشري ، هو بلا حدود في الزيادة والنمو . والاستثمار ، وصناعة التعليم كقيلة بذلك .

هذا هو ما نطمح إليه .. وهذا ما نطمع فيه منكم ، وإنكم على ذلك لقادرون ، وإنا وراكم لسائرون ، وإنا وإياكم دعوانا فيها سبحانه اللهم ، وتحيتنا فيها سلام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تجفيف ينابيع الثقافة بالجامعة*

في أثناء عملي أستاذاً زائراً لفصل بجامعة الكويت، وأثناء سيرمي متجهاً إلى مكنتي، حيث لم تكن الساعة قد دقت لتعلن الثامنة صباحاً، لاحظت طالبين أو ثلاثة، يلصقون إعلاناً في أماكن متعددة، كان منها بطبيعة الحال، بالطريق الذي أسلكه، فلما طالعت الماصق، وجدته إعلاناً لجماعة علمية طلابية بكلية الشريعة تنتقد (الاختلاط) بين الطلبة والطالبات في بعض كليات الجامعة.

وعمدت أن أظل واقفاً بضع دقائق متوقفاً أن أرى بعض رجال الأمن يهرعون للقبض على هؤلاء الطلاب، فما وجدت أحداً. وانتظرت أن أرى بعض موظفي ومسئولي الكلية يبادرون إلى تمزيق الملصقات، فما رأيت أحداً. وتوقعت أن أرى تجمهراً وتحركاً من بعض الطلاب المؤيدين والمعارضين، فخاب توقعي.. وهكذا مرت المسألة دون (تعكير) صفو الأمن !!

أقول: الحق: لقد حسدت طلاب جامعة الكويت على هذا ..

الكويت التي، لا أقول استهدفت بحوادث إرهاب هنا وهناك، وإنما، التي غزيت كلها، واضطر معظم شعبها إلى التفرق في بلدان مختلفة شهوراً عدة، واشتعلت النيران في ثروتها الأساسية (آبار النفط)، وخسرت عشرات المليارات من الدولارات.. ها هي، بعد كل هذا، لا تقيم الدنيا وتقعدها لأن طلاباً لهم رأي -بغض النظر عن صحته أو خطئه - أعلنوه في ملصقات وزعت على أنحاء الجامعة دون اعتقال وضرب، ودون حظر وكبت!

فما هو الحال بالنسبة لطلاب جامعاتنا؟

سأسلم -جدلاً لا اقتناعاً بأن مثل هذه الأمور يستحيل أن نسمح بمثلها في

جامعاتنا، لكن ، ماذا عن النشاط الثقافي؟

* الوفد في ٢٨/١٠/١٩٩٥

لا زلت أذكر، وأنا طالب بكلية الآداب بجامعة القاهرة في أوائل الخمسينات، كيف كنت أقضي ساعات واقفاً منتقلاً بين ردهات الكلية كي أقرأ صحف الحائط التي كانت تتنافس فيما بينها تنافساً ، أكاد أقول، تفوقت فيه على بعض الصحف والمجلات المطبوعة، حتى أنها مثلت (مدرسة) خرجت عدداً غير قليل من مشهوري الصحفيين فيما بعد.

والآن، أمر في بعض الكليات، فقلما أجد مجلة حائط واحدة، وإن وجدت، فسوف نجد أن موضوعاتها تدور حول (فائدة غسل النحل)، (أهمية القدوة)، (مظاهر الجمال في شمس الأصيل).. وهكذا!!!

كانت مجلات الحائط للتنقيف وممارسة العمل الجماهيري وطرح القضايا العامة. وأسأل بعض الطلاب: لماذا لا تصدرون صحيفة حائط فيكون عن (سباق الحواجز) الرهيب الذي يند الفكر ويخفق الرأي في كثرة الإجراءات الروتينية والأمنية والرقابية والتعويقية.

ليس هناك مصري عاقل يريد أن يضحى بأمن مصر، لكني أيضاً أقول، أن ليس هناك مصري عاقل يرضيه أن يجف هذا النبع الأساسي للتنقيف القومي، فينهدم ركن من أركان (الأمن الثقافي).

كذلك شاهدت في نفس كلية التربية بجامعة الكويت إعلانات متعددة عن مهرجان سياسي، أقيم في حديقة الكلية، دُعِيَ إليه بعض المتحدثين من خارج الجامعة، وسألت (المشرف) على الجمعية التي نظمت هذا المهرجان: هل لا بد من أخذ موافقات من الجامعة والكلية والأمن ومنك من أجل إقامة هذا؟ وأفاجأ بأن الإجابة هي بالنفي!!

ومرة أخرى : أحسد طلاب جامعة الكويت.

وساعتها تذكرت أنني كثيراً ما أشعر باختناق من جراء القيود التي تكبل بها وزارة الشؤون الاجتماعية أنشطة الجمعيات - وفقاً لقانون عام ١٩٦٤ - فأفكر في نفص يدي من الجمعية التي رأسها كي أمارس نشاطي بالكلية التي أنتمي إليها، فإذا بي أجد أن قانون الجمعيات الذي نلغنه وننظر إليه على أنه مكبل للحرية،

يصبح (ترفاً) إزاء الوضع الحالي بالجامعات المصرية، فليس من حقي كأستاذ بالجامعة (منذ أكثر من ثلاثين عاماً)، أن أدعو من أريد من المفكرين ليتحدثوا في ندوات فكرية وثقافية إلا بإن.. لا بل (أنون) وسين وجيم، وأكون مستعداً لأن أسمع اعتراضاً (وهو المرجح) على مجيء فلان أو علان، حتى ولو كانوا من كبار المفكرين المشهورين، ما دام هؤلاء لهم موقف مخالف للحكومة!

متى وكيف إذن يتعلم طلابنا مناقشة القضايا العامة؟

متى وكيف يتعلم طلابنا أن يكون للرأي معارضون ومخالفون؟

متى وكيف إذن يتعلم طلابنا أن الجدال بالتّي هي أحسن نشاط مشروع

ومحمود؟

أليس هذا النهج يشير إلى نتيجة خطيرة لابد وأن نفرغنا جميعاً، ألا وهي

أنه ما دام السبيل مغلقاً، أو معرقلًا، في كل هذا، فلا سبيل إلا العنف!؟

إنني إذ أدعو إلى إعادة النظر في إحياء هذه الينابيع، فإنما من أجل تجفيف

ينابيع العنف.

إننا كثيراً ما نردد: إذا دخلت الملائكة خرجت الشياطين ...

وفي يقيني أن رفع الحظر عن قنوات التنقيف بالجامعة، من شأنه أن يعزز

الأمن الفكري والثقافي لدى طلابنا الذي هو الدرع الواقى من محاولات تخريب

الوعى، ومن ثم نسير على الطريق الصحيح نحو الأمن السياسي!.

وهم اسمه : علمي وأدبي*

في كتابه الشهير: الأداة الجديدة Novum Organum، يشير الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون إلى نوع من الأوهام يتسرب إلينا من أجيال سابقة. ومن خلال رسوخ في القدم، يكتسب مع الأيام قداسة تكبل حركة الإنسان الساعي إلى التغيير والتطوير، مما يحتاج الأمر معه مراجعة لتتساعل مع جاليليو : هل هذا صحيح؟

من تلك الأوهام. هذه القسمة الشهيرة في عالم التعليم بين العلمي والأدبي. ولقد كانت تلك القسمة لها وجاهتها في سالف الزمان عندما كانت هناك فئة من المعارف يحصل عليها الباحث نتيجة اصطناعه منهجاً علمياً تجريبياً أو استنباطياً رياضياً يقوم على التعامل مع الأرقام والرموز بحيث يكون الفيصل عند الاختلاف حول نتيجة، هو الاحتكام إلى (التجربة) أو إلى العمليات الرياضية. وتختلف تلك الفئة من المعارف عن فئة أخرى تقوم بالدرجة الأولى على (التذوق الوجداني) والتأمل العقلي المجرد، حتى إذا نشب خلاف حول النتيجة. صعب الفصل فيه. فالذوق الوجداني عند (أ) من الناس يختلف غالباً عنه عند (ب) ولا يكون أحدهما صواباً والآخر خطأ. وكذلك بالنسبة للنتائج الفكرية للتأملات العقلية المجردة.

نتيجة لهذا، عرف التعليم تلك القسمة إلى علمي وأدبي، الأول يقوم على دراسة الفيزياء والكيمياء والرياضيات، والآخر يقوم على دراسة التاريخ والجغرافيا والفلسفة واللغات. وإذا كنا نجد اللغات قائمة أيضاً في القسم العلمي، فلم يكن ذلك لأنها (علوم) وإنما لأنها (أدوات) ضرورية لدراسة مختلف أفرع المعرفة، وتظل اللغات معتبرة من الأداب، بدليل اختصاص دراستها المتخصص في كلية (الأداب).

* ملحق الأهرام في ١٩٩٥/١/٨

وبناء على ذلك أيضاً، قام التعليم الجامعي، منذ نشأته الأولى على كليتين أساسيتين لهذا التعليم كله: كلية العلوم، لدراسة النظريات (العلمية) وكلية الآداب لدراسة النظريات الفلسفية والاجتماعية والدينية.

وإذا كان عالمنا المعاصر يشهد تحولات جذرية حتمت مراجعة بعض المفاهيم الأساسية في عالمي السياسة والاقتصاد، فنحن كذلك في حاجة إلى مراجعة جذرية لهذه القسمة (الضيّزي)، التي هي أشد خطراً وأبعد أثراً من تحولات السياسة والاقتصاد.

لقد أصبح مستقراً في الأذهان الآن أن العلم : محتوى + منهج. المحتوى هو مجموعة المعارف المصنفة في هذا الفرع وذلك : فيزياء، كيمياء .. إلخ. وأما المنهج فهو طريقة البحث والتفكير.

وصفة (العلمية) تكتسبها المعرفة، لا بمحتواها وإنما بمنهجها. وآية ذلك، أن هناك دراسات في الحيوان والنبات والطبيعة لأرسطو وغيره من فلاسفة العصور افتقدت المنهج العلمي.

ولقد استطاع المنهج العلمي أن يغزو الكم الأكبر من المعارف، مثلما رأينا في مختلف علوم الاقتصاد والتجارة أو الإدارة والاجتماع والنفس والتربية واللغات، مما أصبح الأمر معه محتماً النظر إليها باعتبارها (علوماً) بمعنى الكلمة.

ولو تأملنا مجموعة (الدراسات) التي تقوم عليها كليات الآداب باعتبارها التجمع الرئيسي لما يسمى (بالأدبي) لرأينا أننا أمام (علوم) حقيقية!

فالجغرافيا: هل هي نتيجة تنوق وجداني أو تأملات عقلية؟

وهل يستطيع أحد أن يقول هذا أيضاً على التاريخ؟

وماذا نقول عن اللغات؟ هل يستطيع أحد أن يشكك في علميتها؟

بل إن فروعاً تدرس في أقسام اللغات كانت ساحة للتنوق الوجداني والتأمل العقلي، أصبحت اليوم تعتمد على المنهج العلمي، ونخص بالذكر، الإبداع الأدبي المتمثل في الشعر والنثر والقصة: فقد استطاع النقد الأدبي أن يضع من القواعد والموازن ما يميز به - إلى حد كبير - بين إفرازات الإبداع ليحكم على

مدى جودتها.

وماذا نقول عن علوم الاجتماع؟

وإذا جئنا كذلك إلى دراسات كلية الحقوق التي ظلت تمثل، مع الآداب، الساق الثانية لما هو (أدبي).. من يجرؤ على أن ينفسي عن دراسات القانون التجاري والقانون الدستوري، والجنائي، والدولي صفة العلمية؟
وقل مثل هذا أيضاً عن دراسات كليتي التجارة أو الاقتصاد والعلوم السياسية.. إلخ، على أي أساس إذن هذه القسمة إلى أدبي وعلمي في عصرنا الراهن؟

إننا قد نفكر في ظاهرة فلكية بطريقة خرافية، فلا يكون هذا علماً وقد نستخدم الدراسة الأمبريقية لدراسة ظاهرة سلوكية، فيكون هذا علماً.
ومن هنا فلا نعتبر مصطلحاً مثل (الثقافة العلمية) الذي يطلق ليغني به جملة المعرفة الخاصة بالفيزياء والكيمياء والرياضيات والمجالات التقنية مصطلحاً صحيحاً. وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح (الثقافة الأدبية)، فهو مجال من مجالات الثقافة العلمية.

وعلى هذا فنحن نقترح أن تكون التسمية : (الثقافة الإنسانية) و(الثقافة الكونية/ الطبيعية) على أساس محوري هذا العالم: الإنسان والكون (الطبيعة) مع الإقرار بأن صفة العلمية يمكن أن تكون في هذا المجال أو ذلك وفقاً للمنهج.
إن القسمة إلى (أدبي) و(علمي) في التعليم العام تظهر تخلفاً علمياً منهجياً يتبدى في ثنائيات عديدة، وتجزئة صارخة تجاوزها التاريخ المعاصر وهناك بلدان متقدمة تجاوزت هذه القسمة عن طريق توفير مساحة للاختيار بحيث لا تتوارى الاختصاصات وإنما تتقاطع وتتكامل.

وهم آخر: ثنائية العملي والنظري*

إذا كنا قد اعتبرنا ثنائية (العملي) و(الأدبي) وهما يجب تبديده، فلا بد وأن يقترن بذلك هذا الوهم الآخر وهو ثنائية (العملي) و(النظري). ومن الخطأ أن نطابق بين الاثنين، فالنقد الأدبي، على سبيل المثال (علمي) المنهج، (نظري) الطابع، والممارسات (العملية) الخاصة بالسحر لا علمية المنهج.

ولعل ما استوقف نظري في الثنائية الحالية، أنني كنت أتصفح الكتاب الإحصائي السنوي (بوييه ١٩٩٥) الذي يصدر عن الجهاز المركزي للتعبيئة والإحصاء، فوجدت تصنيفاً لكليات الجامعات المصرية إلى كليات نظرية وكليات عملية، فهالني الأمر حقاً، خاصة وأن هذا التصنيف يصدر عن هذه الهيئة القومية الكبرى، والتي يعتبر ما يصدر عنها (أساساً) تقوم عليه خططنا ومشروعاتنا وتعاملنا مع الواقع واستشرافنا للمستقبل. انظر معي إلى أسماء الكليات التي صنفت بأنها نظرية:

كلية السياحة والفنادق - كلية الاقتصاد المنزلي - كلية الإعلام - الكفاية الإنتاجية - كلية الآثار - كلية الخدمة الاجتماعية - كلية التربية الموسيقية - كلية التربية الفنية - كليات التربية - كليات التجارة - كليات الحقوق - كلية البنات. فضلاً عن الآداب والكليات الدينية.

على أي أساس تم اعتبار هذه الكليات (نظرية) وغيرها فقط هي (العملية)؟ يبدو أن الاعتبار هو اعتماد الدراسة على (معمل)، فكليات الطب والعلوم والهندسة والزراعة والصيدلة والبتروكيميا والتمريض والتكنولوجيا تعتمد الدراسة فيها على (المعمل). لكن التصنيف يحشر في (العملية) كلية الفنون الجميلة وكلية التربية الرياضية، فهل هاتان الكليتان تعتمدان على (معمل)؟

* ملحق الأهرام في ٢٢/٩/١٩٩٥

ثم إن كليات التربية، وكذلك البنات، بها أقسام فيزياء وتاريخ طبيعي وكيمياء ورياضيات، فكيف نصنفها كلها وبرمتها في (النظرية)؟ هل أساس التصنيف هو (التطبيق) و(الممارسة)؟ فأى الكليات التي اعتبرت (نظرية) لا ترتبط فيها الدراسة بالتطبيق والممارسة؟ حتى الكليات الدينية، هي قائمة على (الشريعة)، والشريعة تختص بدراسة (المعاملات) و(العبادات)، وهذه وتلك تطبيقات وممارسات، والله عز وجل هو القائل في قرآنه المجيد: (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).

وكيف يعتبر الاقتصاد المنزلي نظرياً وهو يتعلق بشئون المنزل من طبخ وغسيل وكى وتفصيل وحياسة وميزانيات وإدارة منزل وتربية أطفال وتغذية؟ كيف يعتبر الإعلام نظرياً وهو يضم : الإذاعة والتلفزيون والصحافة، أم هذه أمور نظرية؟

هل دراسة الآثار مجرد قراءات تاريخية أم وقائع مادية ملموسة؟ وماذا نقول عن الموسيقى؟ والتربية الفنية؟ و(الخدمة) الاجتماعية؟ والفنقة؟ هل عالم (البنوك) و(الشركات) و(المال) الذي تتعامل معه كلية التجارة ليس (عملياً)؟

إن هذا التقسيم يكاد يعتمد على طريقة التعليم، وهذا أساس خاطئ، إذ يمكن للمعلم أن يعلم (علوماً) بطريقة نظرية كما هو واقع في كثير من المدارس وبعض الكليات نتيجة قصور في التجهيزات، ويمكن للمعلم أن يعلم (اللغة) عن طريق (الممارسة) العملية، وهو أفضل، مطلوب.

إنها قسمة موروثية منذ عصور سحيقة، حيث كان عالم (العمل) يعتمد على القوة الجسمية فقط بغير حاجة إلى إمعان تفكير وإعمال عقل، بينما عالم (النظر) يعتمد على التأملات العقلية والسبحات الخيالية. وارتبط هذا التقسيم بالأوضاع الطبقيّة، فاختص العبيد بالعمل لأنه شاق ومرتبب بمخاطر كثيرة، أما النظر فقد احتكره الأحرار الذين لم يكن يقلقهم الحصول على لقمة العيش حيث كان العبيد هم الذين ينتجون لهم حاجاتهم.

أما في عصرنا الحديث فقد انمحت الحدود بين عالمي النظر والعمل على وجه التقريب في الدراسة العلمية. انظر حتى إلى أبسط الأعمال: عملية (الكنس) التي كانت تتم (بمشقة): لا علم ولا تفكير ولا عقل فيها.. تتم الآن بجهاز كهربائي متطور، في تفكير وعقل وعلم .. وهكذا قل في مئات الأعمال.

وفضلاً عن ذلك فقد أصبحت (التجربة) و(التطبيق) و(الخبرة) معايير أساسية في معظم، وإن لم يكن في كل، ما يكون موضوعاً للتفكير والتعليم والبحث، خاصة وأن التجربة لم تعد تنحصر في معناها (المعملي) الضيق، فالتجربة العملية مجرد أداة، أما عالم (العمل)، فهو ساحة الاختبار والتوليد والحكم بالنسبة لما ن فكر فيه بحيث أصبح النظر والعمل مجولين في حبل واحد، بل قل ما هو أكثر من ذلك، أصبحا ذاتيين في نسيج واحد.

إن دراسات تسمى (عملية) كالطب والهندسة والزراعة، إنما هي مجالات تطبيقية (نظريات) وأفكار، ودراسات (نظرية) كما تسمى، مثل التجارة والحقوق والأداب، إنما هي عمليات تأسيس نظري لحياة إنسانية، حركة التغيير فيها سيلان دائم، يحتاج إلى إعمال العقل والتفكير والنقد والتصويب والتوجيه وفقاً لمنهج علمي مضبوط.

إن القضية ليست خاصة بمجرد كتاب إحصائي، فإن هذا الإحصاء يتخذ أساساً كما قلنا لتخطيط التعليم، فإذا قال الإحصاء أن جملة طلاب وطالبات الكليات النظرية عام ١٩٩٤/٩٣ (٧١٩٩٣) والعملية (٢١٠٨٢)، فلابد وأن يفكر كثيرون في ضرورة تغيير هذا الوضع وتحجيم الكليات النظرية وفتح الأبواب للعملية، حيث الأولى أكثر من ثلاثة أضعاف الثانية. أما إذا أعدنا النظر والتدقيق في أساس التقسيم، فسيختلف الأمر بالتأكيد ونصبح أمام مطلب آخر وهو ضرورة أن ترتبط الدراسات النظرية بالجوانب التطبيقية فيتم تدريب طلاب الحقوق في المحاكم والإدارات القانونية، وطلاب التجارة في البنوك والشركات.. وهكذا في غيرهما، حتى يكون تعليمنا كله تطبيقاً لنظريات وتطبيقاتاً لممارسات وأعمال، في نهج واحد بغير قسمة لا علمية ظالمة.

شهداء قضية *

مطاردون دائماً : السياط وراء ظهورهم ، وفوهات المدافع تجاه جنوبهم ،
وأبواب السجن والمشانق أمام أنظارهم ...

إنهم المتفقون الثوريون ، لماذا ؟ لأن هؤلاء هم ضمير المجتمع ..
محكمته الفكرية التي تقلب الأمر على مختلف وجوهه لتحكم هل هو خطأ فتسعى
لمحوه ومحاربه حتى ولو كان مصدره موقع عال في هرم السلطة ، أم صواب
فتؤيده وتدعمه حتى ولو كان مصدره موقع متواضع في الهرم الاجتماعي ؟
همومهم تتخطى حدود الزمان لتصبح ثلاثية الأبعاد ، تستصفي من
الماضي ما يعين الحاضر في حركته ، وتهيل التراب على ما يعيقها من هذا
الماضي ، وتستقرئ الحاضر فتتظر في صخبه وضجيجه وتواجه مشكلاته وأوجه
معاناته ... إنه الواقع الذي تحياه .. وتستشرف المستقبل بتطلعاته وآماله ، فهو
يمثل المصير الذي ستصير إليه ، لا تريد أن تكون لعبة في يد المجهول ، وإنما
موجهة ومسيطرة له في الطريق الذي تطمح إليه .

من هنا ، كانت أعين السلطان عليهم منذ فجر التاريخ ، بالأسلوبين
الشهيرين : الترغيب والترهيب .. سيف المعز وذهبه .. الموزة والعصا :
كان سقراط يحب الحكمة وينشدها ، فقد كان يتلمسها في كل من يصادفه ،
واعتاد أن ينزل إلى سوق أثينا أو المجتمعات العامة ، ثم يتحدث مع من أنس منه
ميلاً إلى الكلام في مسائل الحياة والناس وما يتعلق بهذا وذلك ، ولا يعبأ بحالة من
يحادثه ، غني أم فقير ، شاب أم شيخ ، صديق أم غير صديق ، وحديثه مباح لكل
من يريد ، لا يأخذ عليه أجراً كما كان يفعل السوفسطائيون ، ولم يكن يحتكر الكلام
، بل يتبادل الحديث ، ويوجه المناقشة إلى الجهة المنتجة .

* جريدة الوطن الكويتية في ١١/١/١٩٨٨

لبث سقراط يزاول في كل يوم حواراه الفلسفي ، ولا يلتزم له مكانا معيناً ، فهو يحاور في السوق ، وفي حوانيت الصنّاع ، وفي أروقه الحمام ، وفي الملاعب الرياضية ، ولا يلتزم لحواره موضوعاً معيناً ، فهو يناقش في كل ما يعرض من مسائل ، حتى بلغ من عمره السبعين ، وكان قد ألب عليه فئات وقوى متعددة من ذوي السلطة والسيطرة في المجتمع الأثيني ، ذلك أنه كان حريصاً على أن يعرى نظام الحكم الأثيني الذي ارتدى مسوح الديموقراطية ، بينما أسفرت الصورة التطبيقية لها عن شُرور اجتماعية مدمرة .. وكذلك أغضب الطبقة العالية لأنه كان يمتقّ الأرستقراطية لما تجر وراءها من الاستبداد والاستغلال .

وكان الشباب من أبناء الأغنياء لا يجدون عملاً يشغل أوقاتهم ، حيث كان (العبيد) هم الفئة المكلفة بالعمل والإنتاج ، فكان هؤلاء الشباب يستمتعون بالإنصات إلى سقراط وهو يفضح جهل كثيرين ، وكانوا ينسجون على منواله ، فزادوا بعملهم هذا من أعدائه * لأن الناس لم يريدوا الاعتراف بأن ادعاءهم العلم قد افتضح * .

وعلى الفور ، يقبض على الرجل ويودع السجن ، ويُشهر في وجهه أسلحة الاتهام المعروفة : التكفير دينياً واجتماعياً ، إنه يسئ إلى الدين ، ويفسد الشباب !!

لكن سقراط ، ككل متقف ثوري حقاً ، كان جندياً ، فثبت في مكانه الذي أمر أن يثبت فيه ، الآن – كما قال في الدفاع : * يأمرني الله أن أؤدي رسالة الفيلسوف ، التي هي البحث في نفسي وفي سائر الناس ، وإنه لَمَّا يشينه أن يتخلى عن مكانه في ميدان القتال . إن الخوف من الموت ليس من الحكمة ، إذ لا يدري أحد أن الموت لا يفضل الحياة ، فلو وهب الحياة على شرط ألا يعود إلى ما عوف عنه حتى اليوم من جهد فكري ، لأجاب : * ما دمت حياً قوياً لمن أقنع عن ممارسة الفلسفة وتعليمها ، مستملاً إليها كل من عساني مصادفته .. إذا علموا أن ذلك أمر الله * .

وتستمر كلمات سقراط : " ففي ظني أنكم ربما تضيقون صدرأ (كالرجل الذي يوقظونه من نومه بغتة) ، وربما تظنون أنه من اليسير أن تقضوا على بضربة واحدة .. وعندئذ يتاح لكم أن تستأنفوا النوم بقية حياتكم ، إلا إذا أرسل لكم الله في عنايته بكم نذيراً آخر " .

لكن القوم كانوا قد بيتوا لسقراط أمراً ...

لقد حكموا عليه بأن يتجرع كأساً من السم . وتذهب روحه إلى بارئها ووراءها صرخات الضمير البشري تتعى الجور وتندد بالاستغلال .

ولم تكن تلك المأساة إلا حلقة أولى في سلسلة استمرت باستمرار التاريخ البشري وحتى كتابة هذه السطور ، وفي ظننا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !!

كانت هذه القصة مثالاً صارخاً لمأساة المتقف والمفكر ذي الضمير اليقظ ، من أحداث عالم الغرب ، فماذا عن عالمنا الشرقي .. مسرح الاستغلال والاستبداد؟ عندما بدأت الأموال تنهمر على الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وتتسع رقعة الدولة الإسلامية ، يشعر السلطان بأن ماله وجنده وحراسه وقانونه ليست عمداً كافية ترسخ سلطانه ، فيهرع إلى أبرز ممثلي الثقافة .. إلى الشعراء ، يندسونه القصائد ويتغنون بعظمته وعبقريته ، فيجزل لهم العطاء ، فإذا ما أحجم البعض ، فهناك سيفه وسجنه ، وهناك الفتاوى والأحكام بأنه (متمرّد) وأنه (فاسد العقيدة) ، فالمتقف المسموح به في النظم الاستبدادية الاستغلالية هو من يتقن المديح والتبرير وتزوير الواقع وزخرفته بالخيال ، أما هذا الذي يكشف عن العيوب وينقد ويواجه ويصارع ، فلا بد من إبعاده عن الناس حتى يظلوا في سباتهم يعمهون .

ونحن إذ نشير إلى قضية القول (بخلق القرآن) لا نقصد الحديث عنها في حد ذاتها ولا إبداء الرأي فيما قيل بخصوصها وترجيح كفة هذا على ذلك ، وإنما مرادنا إبراز (نموذج) ، ليس فريداً بطبيعة الحال في التاريخ العربي الإسلامي، فهو متكرر كما قلنا وأبداً .

كان الخليفة العباسي (المأمون أولا ثم المعتصم) قد رأى في هذه القضية رأيا لم يقتنع به الفقيه الكبير الإمام أحمد بن حنبل ، فجاهر برأيه دون أن يحفل بأنه لن يجد هوى في نفس الحاكم فالحق أحق أن يتبع ، فماذا حدث ؟
سجنوه ووضعوا الأغلال في يديه وقدميه ثم أحضروه للخليفة ، فجئ بحاملي السياط وجردوه من ثوبه ، وأوقفوه بين يدي حاملي السياط . قلت (أي ابن حنبل) :

يا أمير المؤمنين ! الله ! ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، إلا بإحدى ثلاث .. فبم تستحل دمي ولم أت شيئا من هذا ؟ يا أمير المؤمنين ! أذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك " .

لكن الأمير أصم أنذنيه ، وأمر به . ويصف لنا ابن حنبل المشهد فيقول :
" جئ بكرسي ، وأقاموني عليه ، وقال لي واحد من حملة السياط أن خذ بيدك بأبي الخشبيتين ، فلم أفهم قوله ... فجعل أحدهم يضربني سوطين ، ويجئ الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك ..وقام المعتصم إلي ، يدعوني إلى قولهم بخلق القرآن ، فلم أجه ، فأعادوا الضرب ، ثم جاء إلى الثالثة ، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب ، فذهب عقلي ولم أحس بالضرب ، وأرعبه ذلك من أمري ، وأمر بي فأطلقت ، ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت وقد أطلعت الأقياد من رجلي " .

إن الذي يستوقفنا من هذه القصة أمران :
أولهما : أن أحمد بن حنبل يقدم لنا صورة لما ينبغي أن يكون عليه صاحب الرأي من صلابة لا تلين مع الضغط والإرهاب ، كأنما وضع الحق في إحدى كفتي الميزان ووضعت الدنيا بأسرها في الكفة الأخرى فرجحت كفة الحق .
ثانيهما ، أن الرأي لا ينبغي أن يحارب بالسيف ، وإنما الفكرة لا تبارزها إلا فكرة أخرى ، ولقد ذهب المأمون ومعه المعتصم من أصحاب الملطة والسيف ، وبقيت آراء ابن حنبل وأفكاره تعذي الملايين في كل مكان !!

ولهذا لم يكن غريباً أن بعض الكتاب العرب والمسلمين من أصحاب الوعي الصحيح لا الزائف يحذرون من (مخالطة الأمراء والسلطين) ، ويقول الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : " فالدخول على السلطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول ، ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم ولا يتماسك عن مداونتهم وترك الإنكار عليهم . " (نقد العلم والعلماء ، أو تلييس إبليس ، ص ١٣٠) . واعتبر ابن الجوزي إن مخالطة الفقهاء للسلطين والأمراء والسكوت عما يقترفونه من شائن الأفعال ، انصياعاً لفضل الشيطان . والأدهى والأمر بالفعل طائفة أخرى لا تقف عند هذا الحد " وربما رخصوا لهم فيه لينالوا من دنياهم عرضاً فيقع بذلك ، الفساد .. " .

وقد كان سفيان الثوري يقول : ما أخاف من إهانتهم لي (أي أصحاب السلطة) ، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم . وقد كان علماء السلف الصالح يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوى وشؤون الحكم ، فنشأ أقوام قويت رغبتهم في الدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم ، ويدلنا على أنهم استهدفوا إرضاء الأمراء بنوعية معينة من العلوم ، أن الأمراء قديماً كانوا يميلون إلى سماع الحجج في الأصول ، فأظهر الناس علم الكلام ، ثم مال بعض الأمراء إلى المناظرة في الفقه ، فمال الناس إلى الجدل ، ثم مال بعض الأمراء إلى المواعظ ، فمال خلق كثير من المتعلمين إليها .

قال ابن عقيل : رأيت فقيها خراسانيا عليه حرير وخواتم ذهب ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال خلع السلطان وكمد الأعداء . فقلت له ، بل هو شماتة الأعداء بك إن كنت مسلماً لأن إبليس عدوك وإذا بلغ منك مبلغاً ألبست ما يسخط الشرع ، فقد أشمته بنفسك . وهل خلع السلطان سائغه لنهي الرحمن يا مسكين ؟ خلع عليك السلطان فانخلعت من الإيمان ، وقد كان ينبغي أن يخلع بك السلطان لباس الفسق ويلبسك لباس التقوى . رماكم الله بخزيه حيث هونتم أمره هكذا . ليتك قلت هذه رعونات الطبع . الآن تمت محنتك لأن عدوانك دليل على فساد باطنك .

أما في العصر الحديث ، فنستد ضراوة المواجهة ، فلقد تعددت قنوات الثقافة ووسائطها ... أجهزة رهيبة تعمل ليل نهار ، تبث الفكر وتشر الرأي ، وتتشابك المصالح وتتكاثر المشكلات بحكم الإيقاع السريع للعصر . ويهرع ضمير الأمة بالتحليل والبحث والتفكير والدراسة ، فإذا ما انتهوا إلى أحكام وآراء ، أسرع حملة المباخر إلى (وزن) هذه الآراء والأحكام لا وفقا لحاجات الأمة ومصالحها ، ولا وفقا لأصول العلم ومنهجه ، ولا إلى قواعد المنطق وأوليائه ، وإنما وفقا لمصلحة ولي الأمر ، فإذا ما ثبت أنها مغايرة لاتجاه الريح ، هبت في وجوههم الأعاصير : ليس من الضروري أن تكون كما كانت بالأمس : سلاسل وسجون وأصفاد وأسوار من حديد ، وإنما وسائل تتناسب مع التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث ، وفي هذا الشأن ربما لا تتحمل أعصاب القارئ ولو وصفنا لبعض هذه التكنولوجيات التعذيبيية المدمرة في عصرنا الراهن ، فليكتف منا بالإشارة والتلميح ، فما نريد أن نمارس نحن أيضاً أية صورة من صور التعذيب للقارئ العزيز !!

ويجد المتقنون الميدان أمامهم يتفرع إلى طرق ثلاث ، عبر عنها المثل الشعبي السائر : " دي سكة السلامة ، ودي سكة الندامة ، ودي سكة اللي يروح ما يرجعش " !

فإذا اتفقت آراء المتقف مع الرأي الحاكم ، فتحت له القنوات وعرف رأيه الطريق إلى كل الأعين والأذان ، ودخل قاعات الدراسة والمقررات ، وأضيفت عليه الألقاب ، وعلت الكراسي التي يتبوؤها ، وعاش في نعيم مقيم ، يجوب البلدان مدعوا وضيافاً ، وتتراكم لديه الأرصدة والأموال .

فإذا أحس بأن ما سوف يقوله لن يحظى بالرضى والقبول ، مثلما هو الأمر بالنسبة للحالة السابقة التي هي - في العرف السائد - " سكة السلامة " ، سلك هذا ما يمكن تسميته بـ " سكة الندامة " ، فهو هنا يتخلى عن مسؤوليته كضمير الأمة ، ويبتعد عما يسمى بالأرض الشائكة في الكتابة ، ودارت كتاباته حول (ساعة الأصيل) و (فوائد عسل النحل) و (جمال الطبيعة) ، ليتفادى الغضب والاحتكاك ، فيجيء حديثه مملأ ، وقوله متميعاً ، وفكره مسطحاً ...

لكنه إذا أثر الانحياز إلى القول الحق والفكر الناقد أيا كان موضوعه ،
حيل بينه وبين الجماهير حتى لا يرى أمامه - إذا عاش- إلا الحراس والجنود
والسياط والبارود والأقبية المظلمة ... إنها "سكة اللي يروح ما يرجعش"
تري ، ماذا يرى الناس إذن من الآراء والأقوال والكتابات ؟ إنهم لا يرون
إلا ما يراد لهم أنم يروا، لا ما يروونه بالفعل ... لا يرون تلك المرأة التي تعكس
مشكلات حياتهم ووهج الواقع بنبضه وحركته ... يرون مخلوقاً ممسوخاً ، وصوتاً
ضائعاً ، وأقلاماً مكسورة ...

ولأن الصورة الأولى والصورة الثانية هما الشائعتان في العالم النامي ،
شاع ذلك الحكم القاسي ، بأن المثقفين شهداء بلا قضية ، وأنهم هم الذين يزينون
للحكام ، وهم الذين تدور حياتهم حول نواتهم الخاصة ...

قال الوزير للأستاذ : لقد قرأت لك الكثير ، وأعجبني صدقك وراقني
فكرك ، كما إن الموضوع الذي طلبت منك أن تكتبه ، جيد إلى حد كبير وسيكون
له شأن في سياسة هذه الوزارة ، لذا فأنا أعرض أن تكون مستشاراً لي .

قال الأستاذ : انه لشرف لي حقاً أن يعجبك صدقي ، ويروقك فكودي ، وأن
تمتدح ما كتبتك لك رغم علمك بأنني أقف موقفاً معارضا للنظام الحاكم الذي تمثله
... وانه لشرف أكثر أن يكون هذا دافعاً لك لاختياري مستشاراً لك ، لكنني
أشكرك على كريم قولك وعلى كريم عرضك الذي أعتذر عن عدم قبوله ! قال
الوزير للأستاذ : عجيب أمرك حقاً ! إن زملاء كثيرين لك يجيئون يتوسلون أن
يكونوا في هذه اللجنة أو تلك مما هو أقل من ذلك شأناً .

قال الأستاذ للوزير : لكل وجهة هو موليتها ، وسبحان الله العلي العظيم .
قالت الابنة للأستاذ : عندما سمعت عن الواقعة من أمي ، لم أفاجأ بموقفك
هذا يا أبتاه ، لكن ما أدهشني حقاً ، إنك عرفت بيننا بأنك لا تتخذ قراراتك بسرعة
، ودائماً تطلب مهلة للتفكير فلماذا لم يحدث مثل هذا الموقف الخطير ؟

قال الأستاذ لابنته : يا بنيتي : الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور متشابهات ، وعندما أكون أمام اختيار بالنسبة للمبادئ الأساسية التي بالنسبة لي أن أكون أو لا أكون ، فإن القرار جاهز دائما على طرف لساني .

قال الصديق للأستاذ : سمعت بهذا العرض الذي عرضه الوزير عليك ، وكدت ألا أصدق ما سمعته عن اعتذارك عن عدم قبول ذلك ، هل جنتت ؟

قال الأستاذ للصديق : بل لقد عقلت . لقد اتخذت الاستغلال بالكتابة والفكر طريقا لي وضحيته بالكثير من فرص المواقع التنفيذية والسلطوية .. إن هذا الذي عرض عليّ ، سوف يعقل قلبي في سجن السلطان الذهبي ، وبالتدرج سهواً أنضم إلى زمرة مقصوفى القلم ومقطوعي اللسان ..

قال الصديق للأستاذ : إنها كانت فرصة لأرائك كي تجد طريقها إلى التنفيذ من خلال مثل هذا الموقع، قال الأستاذ : هذا وهم كبير نحاول أن نبرر به وقوفنا بباب السلطان . إنه ربما يكون صحيحاً إذا لم تكن نعيش في هذا العالم المنكود المسمى بالعالم النامي . لن يتركوني أقول ما أريد ، فسوف تلتف الأفاعي وتهرع الثعالب لتسميم الطريق أمامي وربما ينتهي الأمر بي إلى الخروج مطرودا ملوث الثياب بغير نذب أتيته إلا مكائد اللصوص ودسائس قطاع الطرق .

وعلى أسوأ الفروض ، إذا لم يحدث هذا ، فالاحتمال الأكبر أيها الصديق العزيز أن يحدث لأرائي وأفكاري قدر غير يسير من (التلين) ، بل هناك ما أدهى وأمر من ذلك ، إن أستدمج تدريجيا في الجهاز السلطوي نفسه وأصير جزءا منه فادافع عن سياساته وممارساته حتى ولو كانت خاطئة . وقد يحدث كل هذه بالمعاشرة والمجاورة فتتسرب فلسفة السلطان وقيمه معايرته إلى عقلي. إن الأوفى والأسلم ، أن أظل هكذا بعيداً ، أمارس الاشتباك مع هموم المجتمع بالرأي والفكرة ، فإذا كان الوزير جاداً في إعجابته بما أقول وأكتب ، يستطيع أن يتبنى بعض هذا إذا شاء .

وتعود كلمات سقراط لتدوي في الأذن وهو يحدث القضاة الذين أفرعهم أن يوقظ عقول الشباب بالفكر الصحيح والتربية القويمة :

(والآن فيا أيها الرجال الذين حكموا علىّ بالإثم ، اسمحوا لي أن أتنبأ لكم أنني مقبل على موت ، الناس ساعة الموت يوهبون قدرة على التنبؤ . إنني أتنبأ لكم- وأنتم قتلتي - بأنني لن أكاد أرحل عنكم حتى ينزل بكم عقاب أفسى مما أنزلتموه بي ، فأنتم مخطئون إذا ظننتم أنكم بقتلكم الناس ستمنعون أي ناقد من الكشف عن شرور حياتكم ، فليس ذلك طريق الفرار ، فلا هو ممكن ولا هو مشرف لكم . أما أسهل الطرق وأشرفها ، فليس هو أن تكموا الناس ، بل هو أن تصلحوا من أنفسكم) .

"No Problem" و "مفیش فایده" !!

على الرغم من مشاعر عداء شديدة الحرارة ، لا أستطيع أن أخفيها ، فضلاً عن أن أنكرها تجاه " سياسة " الولايات المتحدة عموماً ، وسياساتها تجاه العرب والمسلمين على وجه العموم ، فإنني لا أستطيع في الوقت نفسه أن أنكر مشاعر إعجاب وتقدير لتوجه معين من توجهات الحياة الأمريكية .

كان ذلك منذ عدة سنوات ، تقرر وقتها أن أذهب إلى الولايات المتحدة في مهمة علمية تستغرق عدة شهور ، وكانت تلك هي المرة التي تتاح لي فيها فرصة زيارة هذا البلد العجيب حقاً .. لا ، بل لقد كانت هي المرة الأولى التي أسافر فيها إلى بلد من بلدان الحضارة الغربية الحديثة .

أقول الحق ، فعندما انتهيت من إجراءاتي في مطار جون كينيدي بنيويورك ، وقفت مذهولاً حائراً ، لا أعرف بالضبط إلى أين المسير ، حيث كان على أن آخذ طائرة أخرى تتوجه بي إلى (بوسطن) ، التي كانت هدف المهمة العلمية. وزاد من (لبختي) أن أسرتي كانت معي ، وولدي ، صغييران ، لا يستطيعان شيئاً !!

أشار لي أحد رجال المطار ، بعد أن سألته ، بأن عليّ أن أذهب إلى مطارا آخر اسمه (لاجوارديا) ، لأستقل طائرة إلى بوسطن .

لم يكن التحرك سهلاً بالنسبة لمن ألف - منذ سنوات عدة - مطارا واحداً للدولة ، ولو وضع بجوار هذا الذي يرى في نيويورك ، لا بد أن يصاب بالارتباك إلى أقصى ما يمكن أن يتصوره أحد .

وعندما وصلنا إلى مطار لاجوارديا ، وسألت عن طائرة الشركة التي جئت

عن طريقها ، والتي تتجه إلى بوسطن ، قيل لي أنها (طارت) !!

* ملحق الأهرام في ١٩٩١/١٢/٢ ، والوطن الكويتية في ١٩٨٨/١٢/٢٢

سيطرت على مشاعري لحظتها مشاعر القروي المصري منذ سنوات ،
عندما يذهب إلى محطة السكة الحديدية ، فيجد أن القطار الذي له حجز له قد قام !
فمعنى هذا ، ضياع التذكرة ، والانتظار عدة ساعات إلى حين أن يأتي قطار آخر !
لكن مسؤولاً بالشركة أجنبي على الفور : No Problem . وبقرينة
سانجة سألته عما يقصد ، وهما مني بأنه يقصد أن المبلغ "تمن التذكرة" لا ينبغي
أن أحزن من أجله "قرب ضارة نافعة" كما نقول ، و " كل تأخيرة فيها خيرة " ،
كما نردد ، لكن الرجل أسرع بالقول بأنه يمكن تحويل التذكرة إلى شركة أخرى
ستقل طائرتها بعد نصف ساعة فقط .

كان هذا (منطقاً) جديداً في التفكير ألمسه لأول مرة ، حيث قد ألفت أن
خطوط الإنتاج عندنا والخدمات منفصل بعضها عن الآخر ، وكأن كلامها
(جمهورية) مستقلة لا تستطيع أن تحول - مثلاً - من تعليم إلى آخر ، أو من
شركة إلى أخرى ... كأنها (أنواع) كذلك التي قال بها أرسطو ، فيلسوف
الإغريق الشهير ، بحيث لا يستطيع فرد من (نوع) أن ينتقل إلى (نوع) آخر ،
وإن كانت الهندسة الوراثية في عصرنا الحاضر قد جعلت ما اعتبره أرسطو
مستحيلاً منطقاً وعملاً ، يمكن بالفعل أن تشهد أعيننا حادثاً مشخفاً .

وبدأت سلسلة التجارب والخبرات تتوالى يوماً بعد يوم وفق هذا المنطق
الذي لم أكن قد ألفته ، فإذا فوجئت بأن الزميل الذي أوصيته ، لم يحجز لي سكناً
بالجامعة ، إذا بالمسؤول يجيبني على الفور No Problem ، فهناك بدائل حاضرة
وجاهزة وبنفس المميزات ، دون أن يكون الحل هو في أن هناك " أماكن " - على
جنب - محجوزة للحبابيب والمعارف !! . وأدخل مكتبة وتعجيني بعض الكتب ،
ثم أكتشف أنني نسيت نقودي ، فيسرع المسؤول ليجيبني : No Problem ، إذ
أستطيع الحصول على الكتب بإجراء يسير ذكره في ذلك الحين .. الخ

وهكذا ، إذا بكثير من المشكلات والعقبات نجد لها العديد من سبل الحل ،
والعديد من طرق العلاج ، بحيث (يتعود) الإنسان على أنه ما من موقف صعب
إلا ويمكن التغلب عليه ، فتزداد الثقة بالنفس ، وتحقق الإرادة الذاتية بصفة خاصة
والإرادة القومية بصفة عامة بالمقويات والمنشطات التي تقهر المستحيل .

لست من هواة المقارنة ، لعلمي بتباين الظروف واختلاف المتغيرات ، ولكنني لا أستطيع أن أنسى عددا من الأقوال السائرة التي تكون هي الرد المميز في مجتمعنا في مواجهة أية مشكلة : " كان غيرك أشطر " .. " لا يصلح العطار ما أفسده الدهر " .. " أبقى قابلني " ... " لما تشوف حلمة ودنك " ... " قيراط حظ ولا فدان شطارة " . بل وكثير من المصريين يردون تلك العبارة المشؤمة التي تنسب إلى سعد زغلول قبل وفاته كانت لها مناسبتها ، وهي " مفيش فائدة " ، وكان هذه العبارة أصبحت اللحن المميز والعلم المرفوع على السلوك في مواجهة الصعاب والعقبات .

تري ، لماذا يقولون هناك (لا مشكلة) و (لا تنزعج) ، وما شابه هذه وتلك من العبارات التي تدل على (الإقدام) و (الإيجابية) و (التفاؤل) ، ونقول نحن ، غالباً ، تلك العبارات التي تنم عن (القعود) و (اليأس) و (الإحباط) ؟ ليست المسألة هي مجرد أقوال عابرة ، وإنما هي تلخص خبرة الشعوب ونمط تربيتها ، وهي بهذا المعنى تدل على ما لقيته جماهيرنا طوال عهود طويلة ماضية من قهر واستغلال أقعد الهمم وأصاب الإرادة الذاتية للفرد والإرادة القومية للأمة في فترات طويلة بالضعف وأحياناً بالشلل الوقتي ، فشاع بأس مميت وانتشر خنوع مقيت ، عشى يوم الاستسلام في أوكار النفوس والقلوب .

إن نفض غبار القهر الذي استمر قرونا لن يتأتى بدروس أخلاقية بوجوب الشجاعة والإيجابية ، ولن يتحقق بعدد من الخطب والشعارات التي تدعو إلى العزة الشخصية والقومية ، لكنه يتأتى بمزيد من المشاركة ومزيد من الديمقراطية حتى تتخلق من جديد إرادة ذاتية للمواطن تحقق الطموح الشخصي ، وإرادة قومية للأمة تقهر المستحيل وترسم بيدها هي خريطة المستقبل وتحدد بنفسها هي طرق تنفيذه ، وتسعى بنفسها هي لتشخيصه .

اغتيال الآخر!

"وطني لو شغلت بالخالد عنه
لنازعتني إليه في الخلد نفسي"
هذا صحيح...
"ولو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً"
وذلك فعلاً...

"و"حب الوطن من الإيمان" ... وتلك حقيقة ...
... إلى آخر قائمة من صفحات طويلة كلها تؤكد على منهج (الوطنية)،
وكلها مفعمة بحب جارف (للوطن) ومشاعر متدفقة تجاه أهله...
ومع صحة كل هذه الصفحات، فإنها لا تتعارض أبداً مع أهمية الكشف
عن "نقيصة وطنية" هي أشبه "بالعورة" لا أملك مع الأسف لها تفسيراً، وإنما أكتفي
بإثارة الحديث عنها أمام القراء، عسى أن يساعدوني في فهمها والكشف عن
أبعادها، لا من حيث المظاهر والآثار، فهذا مم أعرفه وألمسه، وإنما من حيث
العلل ووسائل العلاج والمواجهة.

فعندما طرقت أبواب التعليم صغاراً، كان من الدروس التي تلقيناها أن
(الحسد) هو "تمني زوال نعمة الغير"، وهو بالطبع "ميكروب اجتماعي" خطير
يحول انتشاره أبناء الوطن الواحد إلى قوى يدمر بعضها بعضاً. أما (التنافس)
السوي، فهو أن تبذل كل جهدك لكي تتفوق على الغير دون أن تسعى إلى تدميره،
فهدفك إذن هو: تجاوزه وسبقه. وهو بهذا المعنى (قوى محرّكة) تدفع الجسم
الاجتماعي إلى مزيد من النشاط الذي لا بد أن يؤدي في محصلته الكلية إلى مزيد
من التقدم والنهوض للجماعة البشرية.

وفي ظل هذه المعاني، كنا نفهم ونعي سلوكنا كتلاميذ، كل منا يسعى بكل
ما يملك من إمكانات، كي يحصل على درجات أعلى من الآخرين.

* جريدة الأهالي ، لا أنكر متى نشرت ، وإن رجحت أول التسعينيات .

فلما بدأنا ننخرط في سلك العمل، بدأنا نشهد مظاهر أخرى تشير في معظمها إلى سعي حثيث من البعض، لا للتفوق على البعض الآخر، وإنما لتعويقه (الشوشرة) عليه، وقد يصل هذا السعي إلى محاولات هدم وتحطيم واغتيال معنوي.

وكان التفسير الذي يمكن أن نفهم به مثل هذه المظاهر التي لمسنا أنها متكررة في مواقع عدة، يرجح إنها (ظاهرة)، هو أنها وليدة مناخ الاستبداد (والقهر)، فالاستبداد يولد أخلاقيات النفاق والتملق والتدني، ويقهر النفوس ويربيها على الخنوع والاستكانة. ولأن الأمور كلها في أغلب الأحوال تعلق بيد فرد أو فئة صغيرة في أعلى الهرم الاجتماعي، يتسابق كثيرون طمعاً في القرب منها، وكسب رضاها أو الخوف منها وتجنب بطشها، وهذا وذاك يدفع كل فرد إلى العمل على إزاحة الآخر كي يفوز هو بالرضى والقرب. وتشجع أخلاقيات المستبد نفسه على ذلك، فهو يقرب إليه لا الأصلح والأكفأ عملاً وخلقاً، وإنما تملك الشخصية (الطبيعة) التي لا تعرف كلمة (لا)، القدرة على التبرير والترزين لكل ما يفعل.

والنتيجة التي تؤدي إليها قسوة الفقر، عبر عنها المثل الشعبي القائل (الجوع كافر)، فأمام فراغ المعدة، وصراخ الأمعاء، وجفاف الحلق، يمكن أن تتقلب المعايير وتتشوه الحقائق ويختلط حابل بنابل.

لكن هذا التفسير لم يصمد لدينا طويلاً أمام مظاهر أخرى، فعندما سافر بعضنا إلى الخارج للحصول على درجة الدكتوراه، إذا بأسماعنا تتلقى عدداً من القصص والحكايات العجيبة عن شروخ كبيرة في العلاقات بين البعض، ليست من ذلك النوع المألوف عادة في العلاقات الاجتماعية، وإنما من نوع (المدفعية الثقيلة) التي تهدم وتدمر وتترك من سوء الآثار ما يصعب إزالته على مر السنين والأعوام. وحاولنا أن نطمئن أنفسنا بتفسير مؤداه أن هذا - ربما - يعكس عند هذا أو ذلك، سعياً لأن يحصل على درجته العلمية قبل الآخر، وإذا كان هناك من التحفظات التي يمكن تسجيلها على مثل هذا (الدافع)، إلا أنه من حيث التفسير - كان مفهوماً إلى حد كبير !

ثم إذا بالغموض يطبق على عقولنا كلية بعد ذلك، عندما أتيج لنا (عمل) منتقل في فترات مختلفة في مواقع متعددة في بلدان عربية، فالمرتبآت والحق يقال، كبيرة لا تترك لأحد فرصة لأن يشكو عسراً وقرأاً يبرر به قفزاً فوق الآخرين، كما أن فترة العمل عادة هي مؤقتة بمدة الإعارة بحيث لا تستتبع تطلعاً إلى منصب أو مركز، ومع ذلك فالشروخ في علاقات كثير من المصريين بعضهم ببعض لا تخفى على أحد بحيث يحار الإنسان فعلاً في تفسير هذه الظاهرة، إذ المؤسف فيها أننا نكاد أن ننفرد بها دون سائر الشعوب والأمم!؟

فإذا كان عامل (الفقر) قد زال بالنسبة لمن خرجوا للعمل بالخارج، وتصور البعض أن آثار (الاستبداد) لا بد أن تكون قابضة داخل النفوس متحصنة خلف مناريس عهود طويلة من الزمن، تفعل فعلها، فلا أظن أن مصر وحدها هي التي انفردت بالعيش في كنف الاستبداد والاستغلال، وإنما كل عالمنا العربي قد شرب - وما زال يشرب - هذا السم من نفس الكأس، ومع ذلك، شهد مظاهر مناقضة تماماً بين أبناء الوطن الواحد. ويحسن هنا أن نشير إلى أمثلة من بلد بعينه، هو جنوب الوادي ... السودان فهو الأقرب إلى التماثل والتشابه في الظروف والأحوال، فماذا نجد بين السودانيين خارج السودان وخاصة العاملين في الدول العربية؟

إنها قصص متعددة لتضامن وتكافل اجتماعي يُشرف أبناء هذا البلد الكريم: ففي بلد آخر، يعمل سودانيون، يعرفون أن زميلاً سودانياً سوف يلتحق بالعمل بعد أسبوع أو أسبوعين، فإذا بمجموعة السودانيين كلهم يقسمون المهام بينهم لتهيئة وترتيب الأمور لزميلهم الجديد قبل أن يأتي، ويتسابقون في ذلك بكل الرضى والترحيب والحماس: فهذا يبحث عن شقة، هؤلاء يشترون الأثاث، وزوجة هذا تعد عدة وجبات تكفيه عدة أيام، ويجمعون (مبلغاً) من المال كي يعينه في أيامه الأولى ...

وفي بلد آخر، يطلب سوداني استئجار شقة كبيرة، في الوقت الذي تقتصر فيه عائلته عليه هو وحده وزوجته، ويُسأل عن ذلك، فيقول لا بد من غرفة أو

غرفتين (للسودانيين) ممن قد ينزلون عليه ضيوفاً في ظروف اضطرارية!
ويستأنن واحد للذهاب للمطار، فيسأل عن ذلك، فيقول: لاستقبال بعض
الناس! فهل يعرفهم؟ يجيب بالنفي، إنما هو يعرف أنهم سودانيون وكفى.. إلى آخر
هذه الأمثلة الرائعة حقاً، النبيلة فعلاً!

ولا أريد - في المقابل - أن أسوق الأمثلة الأخرى المناقضة، بيننا
كمصريين بالخارج. وبطبيعة الحال، فهناك أمثلة مشرفة بيننا خبرت بنفسي بعضاً
منها من زملاء كرام، لا ينطبق عليها ما سبق قوله، لكن هذه الأمثلة قليلة،
والغالب، هو هذا الذي نشكو منه بكل الأسى والأسف.

وقد لمس مسؤولون في بعض البلدان العربية هذه الظاهرة لدينا، حتى لقد
عبر بعضهم لي عن أسفه لهذا، موجهاً لي نفس التساؤل! لماذا يحارب بعضكم
بعضاً؟ وأحار في الإجابة حقاً!

وبخيت طريف، يقول لي أحد أبناء دولة كنت بها أستاذاً زائراً: إنها
مصلحة لنا، فعددكم ما شاء الله كثير، ولو كنتم، كغيركم، على قلب رجل واحد،
لصرتم خطراً!!

ومن مبكيات الأمور، لو أن لك (معاملة) لدى مسؤول مصري بإحدى
البلدان العربية، تجده ينجزها لك ببطء شديد، وخوف، فإذا ما بحثت عن تفسير
لذلك، تجد أنه يخشى أن يتهموه بمحاباة أبناء بلده؟! مع أن هذا لا نلمسه أبداً بين
أبناء البلدان الأخرى! بل إن زميلاً حكى لي مرة وهو يقطر أسفاً وأسى، أنه كان
يوسط واحداً من أبناء البلد لدى مسؤول مصري فيه كي ينجز إجراءات إدارية
ومالية ضرورية له!

إن هذا، وغيره، لا أسوقه على سبيل التجريح و(جلد الذات) فلست في حاجة
لأن أعيد السطور الأولى من المقال، وإنما أسوق هذه الأمثلة بحثاً عن الأسباب،
ومواجهة للنفس بالعيوب الذاتية، فالسكوت عنها والمداراة عليها لا تفيد، ولا بد من
التصدي لها، لا بالوعظ والنصح والإرشاد، وإنما على الأقل، بالبحث والدراسة
والتفسير، فمن خلال هذا، يمكن أن نفكر في الوسائل الفعالة للعلاج والتغيير.

حائط المبكي : والبحث عن القط * !!

عندما كنا طلاباً نطلب المعرفة الفلسفية في كلية الآداب بجامعة القاهرة في الخمسينات ، كان يخيل لمثلي أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا كالدكاترة عثمان أمين وإبراهيم بيومي مذكور وزكي نجيب محمود ويوسف مراد وأحمد فؤاد الأهواني ومحمد أبو ريدة ، ليسوا بشراً كسائر خلق الله ، يريدون أحياناً ، فتقف أمام إرادتهم عقبة هنا وعقبة هناك ، وإنما هم ، وإن اتخذوا شكل البشر ، يملكون مفاتيح هذا الكون ... أليسوا هم الذين يحتلون قمة المعرفة أمامنا ؟ أليسوا هم الذين يمثلون أعلى مرحلة في سلم العمل التعليمي ؟ إن عالم أحاديثهم يدور حول أساطين العلم والفكر في العالم مثل أفلاطون وأرسطو وكانط وديكارت ورسل وملركس ... إن العملة المفاهيمية التي يتداولونها هي : العقل ، والمعرفة ، والفكر ، والماهية والوجود ...

ما الذي كان يجعلنا نظن هذا كله ؟

انه تصورنا لمصدر " السلطة " !

في ريفنا المصري ، ومنذ زمن لم يعد قائماً الآن ، كان الذي يملك " علماً " يستحوذ على قدر من التقدير والاحترام يفوق هذا الذي يحظى به أي ممثل لسلطة الحكومية ... عمدة ... مأمور ... شيخ بلد ... الخ . كان ممثلو السلطة الحكومية يدهم القانون والعسكر ، ولكنهم كانوا يمثلون أمام الجميع ، قوة التسلط والقهر والبطش ، وبالتالي ، لم يكن احترام الناس لهم إلا خوفاً من بطشهم أو طمعاً في رضائهم !

أما هؤلاء الذين " يعلمون " ، فلم تكن بأيديهم سلطة قانون ولا عسكر ، ومع ذلك تنفتح لهم قلوب الجميع ويحاطون دائماً بهالات تقدير بغير حدود

* جريدة الوطن الكويتية في ١٤/١/١٩٨٨ ، والاهرام المسائي في ١٢/٣/١٩٩٢

...صحيح أن ذلك كان يرتبط بكون الذين " يعلمون " يمثلون " العلم الديني " ومن ثم يكون ما يحظون به من تقدير واحترام مرتبطاً بمكانة الدين في قلوب أهل الريف ، إلا أن هذا التقدير وذاك الاحترام انسحب على كل " متعلم " حتى إن الحاصل منذ أكثر من نصف قرن على " الابتدائية " كان دائماً شخصية مرموقة يهرع إليه كثيرون يطلبون منه الرأي والمشورة ، وإذا وصل إلى رأي ، انصاع له الجميع ...

وهكذا كانت " المعرفة " قوة ... وكان " العلم " سلطنة .

ومن هنا فعندما نجئ نحن من القرى لنجلس أمام أساتذة الجامعة ، فقد كلن طبيعياً أن يكون هؤلاء أماننا ليسوا مجرد " أساطين " علم ومعرفة ، وإنما هم " أساطين " حياة .. وقادة مجتمع ... فإذا ضاقت بمثلي السبل ، وأمسكت بتلابيبي المشكلات ، كانت عقول أمثالنا تتصور أن مثل هؤلاء الأساتذة : حملة المعرفة ، وأعلام الثقافة ، بيدهم مفاتيح الحل والربط ، وعلى أيديهم تتبدد الغيوم وتنقشع السحب لتسطع شمس الاستقرار والطمأنينة . وعندما كنا نقرأ في تاريخ كبار المفكرين أمثال طه حسين أن (الملك) كان يقابل الذين يسافرون في بعثات للحصول على درجة الدكتوراه ، بذر في أذهاننا ، أن هؤلاء المفكرين لا بد أن الحكومة تستند إلى رأيهم ومشورتهم !

ومن هنا كان حلمنا ... وكان دعاؤنا ، بأن يهب الله لنا من لئنه رشداً فنصبح من هذا نفر ، لا لشيء إلا أملاً في أن نصح مسار المجتمع ونصلح ما اعوج من شأنه !!

واتخذنا الأسباب ...

حتى إذا انصرم بعض قليل من الستينات ، تحققت الخطوة الأولى نحو الأمل المرجو ، بعد انتقالنا إلى أرض أخرى ، معيداً في تربية عين شمس . وبطبيعة الحال ، فإن فترة (المعيدية) قد قربتنا من هذا العالم الذي يسحرنا ، وإن لم تجعلنا بعد ، بعضاً منه ، لكنها ، والحق أقول ، قد خففت ، إلى

حد كبير ، جزءا غير يسير من هالات التقديس التي كنا نحيط بها " دكاترة" العلم
أيًا كانت فروعه ومجالاته .

حتى إذا أفاء الله علينا برخصة الدكتوراه ، وانتسبنا إلى الهيئة التدريسية
بالجامعة ، أخذنا نشمر عن سواعدنا لنمسك بمفاتيح الحل والربط ، ولنبدد الغيوم
والسحب ، فإذا بنا نكشف أن ذلك كان دونه خرط القتاد ، كما يقولون ،
فالمدرسون بالجامعة ، هم في أدنى السلم الجامعي ، ولا يملكون من الأمر شيئاً ..
وكم من مشروعات وأمانى حاولنا أن نسعى إلى تحقيقها حلا لمشكلات ، وإقامة
لنظم ، ودعوة لاتجاهات ، فيؤاد كل ذلك في مهده ، رفضاً ، وحرماً ، أو تثار من
حولها الشكوك وتزرع في طريقها الأشواك ، أو يُخوف كل من يحاول أن يتجمع
ليعين ويساعد مدرسي الجامعة .

لا يكفي إذن أن يملكو أفكارا وعلما ، فهم يفقدون سلطة اتخاذ القرار ،
وأمامهم سباق حواجز عنيف ومخيف ، وهؤلاء الذين يمسكون بمقاليد الأمور
بأيديهم ، وتكون أعمالهم موضوع النقد والاثام ، هم الذين يقررون إذا ما كان
المدرسون يستحقون أن يكونوا أساتذة مساعدين أم لا ؟ فإذا ما تخطوا هذه المرحلة
، فالكبار أيضاً هم الذين يحكمون ، إذا ما كان هؤلاء الأساتذة المساعدون يستحقون
أن يكونوا أساتذة أم لا ؟!

ومن هنا ، فقد وقع في ظن أمثالنا في المرحلة الأولى من الانتساب إلى
هيئة التدريس ، أن الحلم الذي طالما داعب خيالنا ، لم يزل بعد بعيداً ، وأنه لكي
نصل إليه ، فلا بد وأن نكون أساتذة !!

شيئاً فشيئاً يتبين لنا أن المسألة ليست مسألة " رأي " و " فكر " و " علم " ،
وإنما هي " سلطة موقع " ...

وبعد رحلة طويلة وصلنا بها إلى " الأستاذية " إلا انه قد تأكد لنا أنها إذا
كانت تمثل " قمة " الهرم الجامعي العلمي ، إلا أن هذا الهرم العلمي كله يظل " دون
هرم السلطة " التنفيذية " ... تأكد لنا أن الحل لا يجيء برأي القواعد ورغبات
(الناس اللي تحت) ، وإنما هو دائماً مربوط بقرار لا يجيء إلا من (الناس اللي

فوق) ! على الرغم من كل هذه الصور والأشكال الخادعة من مجالس الأقسام واللجان الجامعية والمجالس التي لا حصر لها .. سلطتها محدودة بالفروع والتفاصيل والجزئيات ، لكن السياسات العامة ، والفلسفة الرئيسية والخطوط الأساسية والمبادئ الحاكمة ، فهذه المجالس لا تصنعها ولا تضعها وإنما " تنفذها " !

كان طبيعياً في ظل مثل هذا المناخ أن ترقى أحلام كثيرين في هذا الجهاز العلمي الكبير ، أن يصبح الواحد منهم من أصحاب السلطان الجامعي . وما دام هذا لا يتأتى دائماً بقوة الدفع العلمي وحدها ، كان من الطبيعي كذلك أن يسود منطق " المسايرة " لا " المغايرة " ، وتعلو القيم المرتبطة بالمثل السائر " اللي تغلب به إلب به " !

ثم هياً الله لنا مواقف ، زادت القضية إشكالاً وغموضاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

هياً الله لنا أن نشارك في نوعين مستمرين من الاجتماعات : النوع الأول ، الجمهرة الكبرى من أعضائه ، رؤساء جامعات حاليين وسابقين ، والنوع الثاني ، الجمهرة الكبرى من أعضائه ، وكلاء وزراء تعليم وتربية حاليين وسابقين ، فضلاً عن عدد من العمداء سواء في النوع الأول أو الثاني .

كانت المفاجأة المؤلمة ، أن النعمة السائدة في النوع الأول هي ما يشبه البكاء على الأطلال ، وكلمات الأسى وعبارات الحسرة على كثير من أوجاع التعليم الجامعي المتمثلة في مشكلات وأزمات سواء منها ما يتعلق بالسياسات العامة أو نظم القبول ، أو المناهج والمقررات أو المسائل المالية .. إلى غير هذا وذلك من هموم التعليم الجامعي .

ولا تختلف النعمة السائدة في النوع الثاني عن تلك ، فهي ولولة مستمرة ، ونعي دائم للحال الذي وصلت إليه المدارس في مختلف المراحل ، وشكوى موجعة مما يحاصر مراحل التعليم من صعاب وعقبات تتوء بحملها الجبال ! وكان لا بد وأن يقفز تساؤل إلى ذهني ، وأنتقله إلى هؤلاء وهؤلاء :

ألستم أنتم الذين سيرتم وتسيرون التعليم الجامعي؟ أو ألستم أنتم الذين سيرتم وتسيرون التعليم ما قبل الجامعي؟ فإن كانت هناك صور خلل وقصور فعلى أيديكم تمت ، وإن كانت هناك سلبيات وثغرات فهي غرسكم ، و إذا كانت هناك اقتراحات وآمال ، فعلى أيديكم يمكن أن تتم !

وتجيء الإجابة من هذا الفريق وذلك : " ما كانش ينعر : !

ويفسرون .. ويحاولون الإيضاح ، فتتكاثف أمامي الغيوم ، وتتكاثر السحب وأصرخ من قلبي : إذا ، لماذا النقاش؟ ولماذا الاجتماعات ، ما دام الأمر يصل هكذا إلى طريق مسدود .. إلى سقف القيادة التعليمية والقيادة الجامعية ، فنلمس أنها مسلوبة الإرادة ، وفي أحسن الأحوال ، محدودة الحرية ، مقيدة الحركة ؟

ويهمس في أذني واحد من الأصدقاء : لأبد من إتاحة الفرصة للناس كي " يفضضوا " و " ينفسوا " عن أنفسهم حتى إذا غادروا إلى بيوتهم أو مكانهم ، زال التوتر وهدأت الأعصاب ، فيستمرون فيما هم عليه ، وكفى الله المؤمنين القتال!؟

وهذا البكاء على الأطلال الذي نشير إليه في أروقه الجامعات العربية وأجهزة التعليم ، تستطيع أن تلمس مثله تماماً في مختلف الكتابات التي تجرى على أقلام المتقنين وألسنتهم في كل رجا من أرجاء العالم العربي .. في مقالاتهم ... في بحوثهم .. في كتبهم ... في منتدياتهم ... في مؤتمراتهم : نقد حاد للأوضاع القائمة : كل من في مجاله ، اقتصاد ، أو صناعة ، أو تجارة ، أو تعليماً ، أو زراعة ، أو ثقافة أو فنا .. الخ .. تشخيص ممتاز للمشكلات ، وتحليل جيد للأسباب والعلل ، ووعي عجيب بالكثير من الأبعاد والزوايا ، وتنوع مثير في الاجتهادات وزوايا الرؤية ... ومع ذلك تظل المشكلات كما هي .. ويتوالى عقد المؤتمرات ، وتجري بحوث جديدة على نفس المشكلات ، ليطرح نفس التشخيص وتبرز نفس الحلول وإن تزييت في أشكال لفظية جديدة ، ثم يعود المسلسل مرة أخرى ليبدأ مسيرته من جديد .

بل إنك ، إذا استقرأت كتابات غير العرب بحثنا عن صور نقدم لمجالات الحياة والثقافة والتعليم في العالم العربي ، فسوف تلمس أن نقدم ، مهما احتد ،

فلن يصل إلى درجة احتداد نقدنا نحن لأنفسنا في مختلف كتاباتنا في شتى المجالات ؟

هل تحول التعليم ، وتحولت الثقافة في العالم العربي إلى حائط مبكي ؟! في دراسته الممتازة عن (سيكولوجية الإنسان المقهور) ، يشير الدكتور مصطفى حجازي إلى أن الإنسان الذي يتعرض طويلاً لقوى البطش والقهر والاستغلال يعيش إنساناً مسحوقاً ، يعاني من مشاعر الدونية والعجز ، يفتقر إلى ذلك الإحساس بالقوة والقدرة على المجابهة الذي يمد الحياة بنوع من الحيوية والإيجابية .. تبدو الأمور لمثل هذا الإنسان المسحوق ، وكأن هناك باستمرار ، انعداماً في التكافؤ بين قوته وقوة الظواهر التي يتعامل معها ، ومن ثم يجد نفسه في أحيان كثيرة في موقع المغلوب على أمره " يفقد الطابع الاحتكامي في السلوك " ..

ومن الأساليب الدفاعية التي يلجأ إليها الإنسان المقهور : أن يتوحد بقاومه فيوجه عدوانيته إلى ذاته هو كمقهور على شكل مشاعر ذنب ودونية والحط من قيمته الذاتية ، بل ويمتد ذلك إلى التبخيس لقيمة الجماعة الأصلية التي ينتمي إليها " وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية ، تجعله لا يرى خيراً أو عزة في ذاته . إنها مصدر التقصير ، ومجمع العيب وموضع الهوان . وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها في التصدي للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة ، يتغذى من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات " .

عندما كان اللورد كرومر يمثل الاحتلال البريطاني في مصر في أوائل عهده ، نشطت حركة الهجوم عليه وعلى جنوده على صفحات الصحف المصرية ، ورأى بعض مساعدي كرومر ، أن الأمر قد تجاوز الحدود ، فذهبوا إليه يرجونه اتخاذ إجراء ما لوقف حدة هذا النقد والهجوم ، فإذا به يقول : اتركوهم يقولون ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد !! إن العربي عندما يكتب أو يخطب ناقداً ، يظن أن هذا الجهد " الكلامي " هو نهاية المطاف ، فتهدأ نفسه ويخف توتره ، لكنك إذا منعت هذا النقد وذاك الهجوم ، فإن طاقات الغضب المكبوت ستحول إلى طاقة (تحريك) وفعل إيجابي !!

ويبدو أن بعضاً من أولى الأمر في عالمنا العربي ينهجون نفس هذا النهج فيتباهون بأنهم قد أتاحوا ديمقراطية وحرية في مجتمعاتهم ، فيندفع كثير من الكتاب والمفكرين إلى النقد ، وعندما يجدون أن الحال هو الحال ، تحولوا إلى نقد الذات والوقوف أمام حائط المبكي !

لقد درجت العادة عندما يعز علينا حل الإشكال ، أن نضرب المثل بمجموعة الفئران التي تعبت وضاقَت بها السبل أمام هجوم القطط عليها ، فاقترح أحدهم أن يعلقوا حرساً في رقبة القط ، حتى يحسوا به إذا همَّ واتجه إليهم ، فارتاحوا إلى هذا الاقتراح ، فلما بدعوا ينتقلون إلى التنفيذ ، تساءلوا : فمن ذا الذي يمكن أن يعلق الجرس في رقبة القط ؟ وإذا بالجميع يصلون إلى طريق مسدود .. وقد كدنا أن نستخدم هذا المثال النموذجي ، لكننا اكتشفنا مأزقاً أدهى وأمر ، فليست القضية هي من يعلق الجرس في رقبة القط ، ولكنها في تحديد هذا القط والكشف عنه !؟

الرصاصه لا تزال في كتابي * !!

معذرة ، إذا خالفت مبدأ من مبادئ الأساسية التي يقوم عليها فهم الظاهرات الإنسانية ، ألا وهو أن يقوم الكاتب بتحديد نقطة الالتقاء بين بعدى الزمان والمكان ، مؤكداً للقارئ أن هذه المخالفة ليست " وقوفاً في الممنوع " .. ليست سباحة في بحر التجريد .. وإنما محاولة للامساك بالمعنى ، وتكثيف للدلالة ، حتى لا تنوه في زحام تفاصيل الزمان والمكان .

منذ فترة ، ذهبت في زيارة لأحد البلدان العربية ، وبعد أن انتهت إجراءات الجوازات ، بدأت أستعد لإجراءات التفتيش على الحقائب . وأقبلت على القائم بالأمر أمامي وأنا متيقن من أن المسألة لن تستغرق إلا دقائق أقل من أصابع اليد الواحدة ، فلم يكن معي شيء من هذه الأشياء (الممنوعة) ، سواء كانت (سلاحاً) يخرب ويدمر ، أو (طعاماً) يمكن أن يجلب معه جرائم تفنك وتقتل ، أو (أفلاماً) و (صوراً) تحمل فسقاً وفجوراً مما يصيب الأخلاق بالخلل والتهتك والإفساد ...

وبدأت عملية التفتيش ...

- ماذا معك ؟

- كما ترى أخي الفاضل .. حاجياتي الشخصية : ملابس ، أدوات وبعض أوراق ، وكتب ، فأنا ممن يعلمون طلاب الجامعة ، وما معي ، هو مما يعينيني على أداء هذه المهمة .

فوجئت بتغيرات لا تخطوها عين على وجه القائم بأمر التفتيش .

* ملحق الأهرام في ١١/٨/١٩٩١ ، والوطن الكويتية في ٢٢/١٢/١٩٨٨

لأول وهلة ، ظننت الرجل ربما داهمه (مغص) مفاجئ ، أو هجمة ألم في الرأس تصدعه نتيجة إجهاد . لكنني عندما دققت بعض الشيء في علامات التغيير ، وضح لي أنها لا تتم عن (ألم) وإنما عن بعض خوف ... ولما كان من المستحيل على مثلي أن يبعث على تخويف من أمامه ، حيث (العكاز) الذي أتوكأ عليه يدل دلالة واضحة على ضعف حالي الجسمية . التفت ورائي باحثاً عن (شخص) أو (منظر) يكون مبعث هذه العلامات التي ارتسمت على وجه (المفش) ، لكنني لم أجد شيئاً ..

ولم يتركني في حيرة طويلاً ، إذ أسرع يسأل : " بتقول كتب ؟ " قلت : " نعم " ، إنها عدتي في العمل ، وعيونني التي أرى بها الدنيا ، وعائلتي التي لا أستطيع عنها فراقاً .. ثم إذا به ينحيني جانبا ، طالباً الانتظار ... في البداية ، لم أستوعب سؤاله عن الكتب . وهاجمني تخوف من أن تكون الأمور قد سارت معي بنفس السيناريو الذي يحدث في الأفلام المصرية ، أن تكون حقيقتي قد استبدلت بأخرى بها شيء ممنوع . لكن هذا الاحتمال لم يحتمل الصمود لثوان ، فهي الحقيبة مفتوحة أمامي ، وما بداخلها ، حاجياتي فعلاً .

وحولت إلى مسئول آخر . وعندها عرفت السبب .. إنها (الكتب) !! أي والله (الكتب) . ولم يكن من بين هذه الكتب كتب تهاجم هذا البلد أو تتحدث عنه ، ولم يكن بها كتب (سياسة) ، وإنما هي كلها على وجه التقريب مما هو معنى بيناء البشر على وجه الخصوص وبالفكر على وجه العموم . وبدأت رحلة عذاب بعد ذلك . كنت طوال ساعاتها وأيامها أتساءل عن مغزى هذا الذي يحدث حتى برز الجواب الصريح ...

ليست " الأسلحة " هي فقط ما نعرفه من (قنابل) و (ديناميت) و (رصاص) وما سار مجرى هذا وذلك ، ولكن (الفكر) يمكن أن يكون (ترسانة) مخيفة تضم " أفكاراً " يكون فعلها أقوى من فعل " الرصاص " و (البارود) .

والمجتمع الذي يخاف الفكر ويصادره ، إنما يعلن بطريقة غير مباشرة أنه (مشروخ) من الداخل رغم ما قد يحيط به نفسه من مظاهر البأس والقوة ، أو

قل، هو يشعر في قرارة نفسه بافتقاده للشرعية الحقيقية ، ومن ثم فهو يخشى (الفكر) الذي يكشف الحقيقة ويعرى الزيف وينشر الوعي ..

إن الذين يصادرون (الفكر) ممثلاً في كتاب ، لا يختلفون في عصرنا الحالي عن هذا الذي يحاول أن يمد يديه متوهماً استطاعته حجب الشمس ، فهم ، إن نجحوا في منع دخول كتاب ، فماذا سيفعلون في ألوف من المواطنين يسافرون إلى الخارج فيطلعون ويقرأون بعيداً عن عين الرقباء والحراس ؟ بل ماذا يفعلون ، وهذه موجات الأثير تحمل أفكاراً من مختلف أنحاء العالم لتبثها في مختلف البلدان ، ومنها بلدهم ، في أجهزة راديو وتلفاز ؟

وإذا استطاع (المفتش) ، بحكم سلطته وموقعه أن يأخذ الكتاب ليقتف به في سلة المهملات ، أو يمزقه شر ممزق ، فماذا يستطيع أن يفعل إزاء (الأفكار) التي تكون قد تسللت من الكتاب إلى عقل صاحب الكتاب وتغلغلت في حنايا وجدانه ومشاعره ، وأصبحت جزءاً من نسيج فكرة ؟

كلنا في الهم شرق !!*

في البدء .. كان إحجام..

ثم إذا بهذا الإحجام يزول رويداً رويداً ليحل محله التردد....

ثم إذا بالتردد يختفي ليفسح المجال للإقدام...

كان الإحجام، عندما دعاني د. عبد المحسن هلال (عندما كنت أستاذًا زائرًا بكلية التربية بجامعة أم القرى أوائل عام ١٩٨٦) إلى المشاركة في ذلك الحوار الدائر حول أزمة الثقافة والدور المفقود للمثقف السعودي، إذ كيف يتأتى لمثلي - وأنا غير سعودي - أن ينفعل بالمشكلات والقضايا التي يعيشها المثقف السعودي حيث أدرك تماماً أنه "لا يدرك الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعاقبها"؟ صحيح إننا نردد دائماً بأننا - كعرب ومسلمين - أمة واحدة، لكنني لا أستطيع أن أنكر حتمية أن يعيش الكاتب مشكلات وقضايا المجتمع الذي يتأطر بقيمه واتجاهاته، وأحلامه وأمانيه، منفصلاً بها فاعلاً فيها؟

ثم كان التردد لأنني في الوقت نفسه شعرت بحياء داخلي ألا ألبى دعوة تجيء من زميل جذبني إلى الاهتمام به والتقدير له، ما لاحظته فيه من "حركية" تدفعه إلى "الشغب العقلي"، ذلك أن مثل هذا النوع من "الشغب" ... خطوة هامة تؤدي إلى "يقظة فكرية" تستنفر الأقاليم والعقول لتكون في حالة عمل دائم، وتكون النتيجة، حالة من "الوعي" تكشف عن أي صور من الخلل، وتدفعنا لتداركها، وتطرح (أمالاً) مستقبلية، فيندفع المجتمع نحو التطور والتقدم المأمول.

ثم كان الإقدام، عندما دفع إليّ الدكتور عبد المحسن بمقاله في الموضوع المطروح حيث أتاح الفرصة لمثلي ممن فاتهم شرف حضور الأمسية الثقافية لنلدي الوحدة الرياضي بمكة مساء الثلاثاء ١٤٠٦/٧/٨هـ، أن يلم بما جرى فيها إذ استطاع أن يُضمن مقاله صورة "بانورامية" لما دار في هذه الأمسية من نقاش مثير

* جريدة عكاظ السعودية في ١٩٨٦/٥/٦.

وحوار خصيب، وإن لم يقف عند حد (العرض) و(التسجيل)، وإنما تجاوز هذا (وذاك) ليربط، ويحلل، ويعلق، ويبيد آراء، ويتخذ موقفاً.

وكذلك دفع إليّ بذلك المقال الذي فاجأني حقاً والذي كتبه د. عبد الرحيم الغامدي، وأقول (فاجأني) لأنني بكل الصدق كنت أسئ الظن بإمكانية الطرح الجاد لمشكلاتنا الثقافية على صفحات جريدة يومية متخمة بالأخبار والتحقيقات والصور، مما جعل الطريق أمامه سهلاً ميسوراً لأن ينفذ إلى قلب القارئ فيطمئن إليه ويحيله إلى عقله ليزن حجمه ويقدر براهينه، فيركن إلى الرضى والقبول ويرفع لواء التقدير والاحترام له.

وبعد قراءة هذين المقالين إذ بالإشكالية التي كانت تجعلني أحجم عن المشاركة تتحول وظيفتها إلى اتجاه عكسي، فتصبح دافعاً قوياً لي للمساهمة في هذا الحوار، وبعد أن كنت أتساءل بيني وبين نفسي كيف "لمصري" أن يشارك في نقاش قضية خاصة بالمتقف السعودي، إذ بالسؤال يتحول إلى صيغة عقلية أمرة: فلأنك مصري، يجب أن تشارك، فما هنا فرصة تعدد زوايا الرؤيا، وما هنا فرصة "تلاقح العقول" .. أفلمست تؤمن بأن الفكر لا يثريه إلا اختلاف الرؤى، ولا يحييه إلا تعدد الآراء!؟

والعجيب حقاً أن أول ما يلفت النظر أن "أعراض" الأزمة الثقافية كما تابعتها هنا في المملكة أثناء عملي أستاذ زائراً، تكاد أن تتشابه، إن لم أقل (تتطابق) مع أعراضها في مصر! اختفاء جيل العمالقة .. الانصراف عن القراءة .. قلة الإبداع والابتكار .. ضعف التأثير في الواقع الاجتماعي .. غلبة صور الإنتاج الغث .. الخ.

وعلمياً .. فإن الأعراض عندما تتشابه، فضلاً عن أن تتطابق، فلا بد أن تكون الأسباب واحدة .. أو متشابهة...

لكنك .. واقعياً ... تفاجأ في التحليلات التي تقدم هنا أو هناك باختلاف واضح في العلل والأسباب مما يجعلنا نوقن بأن هناك - بالضرورة - خطأ في التشخيص، إما هنا أو هناك، أو فيهما معاً، وهو الأرجح من وجهة نظري.

لقد أصبح معتاداً لمن يتابع تحليلات النقاد في مصر أن أصابع الاتهام تكاد

تدور معظمها في فلك واحد ... الكتاب مرتفع التكاليف، وسعره فوق قدرة القارئ على شرائه ... المواطن (مهموم) بلقمة عيشه بحيث لا يجد وقتاً للقراءة.. القارئ تحيط به أزمات عدة : مواصلات .. سكن .. إلخ، تستنفذ طاقاته فلا يفرغ للقراءة .. وهكذا.

لكنك إذ تدير بصرك إلى المجتمع السعودي، لا تجد شيئاً من هذا، فالكتاب مرتفع السعر.. نعم، لكنه لا يتحدى قدرة القارئ على الشراء، والمشكلات المشار إليها آنفاً، تكاد لا يكون لها وجود حقيقي، ومع ذلك فأعراض الأزمة الثقافية كما قلت متشابهة...

أنا لا أنكر أهمية الأسباب والعلل المطروحة، ولكني أبحث عن هذا القدر المشترك لا في المجتمعين المصري والسعودي فقط، وإنما على مستوى الوطن العربي ككل، وذلك لإيماني بأنه على الرغم من هذا التعدد في النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أن هذه المنطقة تواجه من قبل القوى الأخرى باعتبارها رقعة واحدة، ومن ثم فإن السموم التي تتبعث هنا أو هناك، والميكروبات التي تسرى هنا أو هناك، تكاد أن تكون من نفس الفصيلة أو الجنس!

وقبل أن أبسط وجهة نظري في هذه القضية لأبد لي من تحديد المفاهيم والمعاني، ذلك أن كاتب هذه السطور قد علمته دراسته الفلسفية أن الناس يصدرون في سلوكهم، بالوعي أو اللاوعي، عن مفاهيم ومعاني معينة، وبالتالي، فإن القاعدة الأولى للنقاش والحوار، أن يحدد الكاتب، ماذا يقصد بكذا وكذا من مفاهيم التي يقيم عليها حديثه.

فماذا نقصد لـ (المتقف) هنا؟

في مراحل التعليم المختلفة، يتلقى الطالب أطرافاً من المعرفة في هذا المجال أو ذلك .. يتلقاها كما هي، أي كما أنشأها القائلون بها أو منشئوها. هنا نسمي الذي تلقى هذا النوع من المعرفة: (متعلماً).

لكنه قد يواصل الغوص فيما تعلمه فيتعمق فيه رأسياً، ولا يقف عند حد التلقي والاستيعاب، بل يعدل ويطور ويضيف ... وعندئذ يمكن أن نسميه في هذه الحالة (عالمأ)..

لكن المتعلم، إذا (وسّع) من دائرة معرفته وربطها بمشكلات المجتمع وقضاياها، وصار (مهموماً) بها، أصبح (متقفاً).. ويقدر اتساع دائرة (مهمومه) المجتمعية، بقدر ارتفاع مستواه كمتقف بحيث يمكن ألا يظلل (مهموماً) بقضايا مجتمعه السعودي أو المصري مثلاً، وإنما تتسع هذه الدائرة لتشمل المجتمع العربي كله أو المجتمعين: العربي والإسلامي.

إن هذا البعد سيحتّم على المتقف كي يكون متقفاً أن يكون على (وعي) بالعديد من المعارف السياسية والتاريخية والفنية والأدبية والدينية.

لكننا لا بد أن نفرق هنا بين صورتين من المتقفين، إذ قد يقف حد اهتمام المتقف بقضايا ومشكلات المجتمع بأبعادهما الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل عند حد (الانفعال) .. لكن الصورة الأخرى الأكثر إشراقاً، فهي أن ينتقل المتقف من حدود (الانفعال) إلى دائرة (الفعل)، الإيجابية.. وعلى يد هؤلاء، أو إذا شئنا التواضع، قلنا، وبمساعدة هؤلاء وجهدهم، يتغير المجتمع إلى ما هو أفضل ويتخلى الناس عن اتهام المتقفين بأنهم أناس بضاعتهم الكلام يشترونها بكلام ويبيعونها بكلام وكأنهم - والعياذ بالله - هم المعنيون بقول القائل: الكلاب تنبح والقافلة تسير !!

هنا نستطيع أن نصل الخيط الذي تركناه مؤقتاً منذ سطور.

ومن المؤكد أن دائرة البحث تتجه إلى هذه الصورة للمتقف، فلا نجد له أثراً في مجتمعاتنا العربية ... المتقف (الفاعل)، لكننا نستطيع أن نجد عدداً لا بأس به من المتقفين (المنفعلين) لا بالمعنى الشائع المتداول لهذه الكلمة، وإنما بالمعنى الذي يحصر المتقف في حدود التلقي والاهتمام والاستقبال (والسلبية) دون الفعل والإيجابية والتأثير والإبداع.

ومن هنا فلا ينبغي أن نقع في الوهم القائل بأن تضاول نسبة الأميين وتزايد أعداد المتعلمين مظهر من مظاهر شيوع (التخفيف)!

وفي تصوري أن (التشخيص) الذي أشرت إلى وجوب تصحيحه، يمكن أن يبرز لنا جملة من الأسباب والعلل الكامنة وراء هذه الأزمة الثقافية المترابدة:

١- أن أجيالاً عدة من أبنائنا يتلقون نوعاً من التعليم يحولهم إلى ما يسميه المفكر

البرازيلي المعروف (باولو فرايري)، "بنوك" نودع فيها ما نعرفه نحن الكبار من معارف ومعلومات، كما نودع الأموال في خزائن البنوك والمصاريف التجارية، وعلى هؤلاء الأبناء أن يردوا هذه المعلومات عند الطلب دون أن تتفاعل مع عقولهم وتختلط بوجدانهم وتغير من قيمهم واتجاهاتهم، ومن ثم تتحول الثقافة لديهم إلى ثقافة (بنكية) إذا صح هذا التعبير .. خزائن معرفة، وهي لا يمكن أن تتحول إلى (ثقافة إبداع) إلا إذا قام التعليم على (الحوار) لا (التلقين) ... على النقد والمقارنة والمقابلة ... على استخدام العمليات المعروفة في الحساب عند التعامل مع الأفكار، بحيث تجري عليها عمليات جمع وطرح وضرب وقسمة!!

٢- إن القوى الكبرى في عالم اليوم، ما زالت تسير وفق منطق (الهيمنة) والسيطرة بحيث يكون (لل كبار) الرأي والقرار، وما على (الصغار) إلا أن ينفذوا، ولا يتحركون إلا بالقدر الذي يسمح به الكبار - وإذا كانت صور الاستعمار القديمة من جنود احتلال. وقواعد عسكرية، وما أشبه قد اختفت، فإن هناك عشرات، إن لم يكن المئات من الصور العصرية الأخرى: من معوقات، وبحوث علمية مشتركة، ومستشارين، وغزو فكري، وتسلي إعلامي وغير هذا وذلك من أساليب تجعل المتقف في العالم الثالث يفكر في الاتجاه الذي تريده له هذه القوى الكبرى لا في الاتجاه الذي يحتاجه بلده.. وثقافة تنبت الصلة بينها وبين الجذور، ثقافة هشة لا يبغي منها للتاريخ إلا اللعنات والحسرات!

٣- وإذا كان منطق القوى الكبرى يسري على كل دول العالم الثالث، إلا أن منطقتنا تحظى بالاهتمام الأكبر ... إن هذه القوى تحرص الحرص كله على استمرار الضعف والتخلف حتى لا تقوى على الصمود فضلاً عن المقاومة والجهاد والنضال، ومن هنا تجد هذه الصور المختلفة التي تنتهي إلى نتيجة واحدة .. نزيف مستمر في الطاقات يؤدي إلى هباء ... وإلى ضياع، من هذه الصور (جر) بعض دولنا إلى التحارب فيما بينها حتى ننشغل عن العدو الحقيقي، ومنها إغراق بعض الدول في كم كبير من الأزمات والمشكلات.

والمتقف عندما يجد نفسه في مجتمع كبير تستنزف طاقاته بهذه الصورة، يجد من العسير عليه أن يخاطب الناس في أدب أو فن أو فلسفة أو ما أشبه من مجالات الثقافة، فضلاً عن انصراف (القوم) بعيداً عن طريق البناء... وعمليات البناء هي التي تقدح زناد الفكر، وتنشئ حاجات ومتطلبات تعمل كمهماز للمفكرين والعلماء والمتقفين كي يفكروا في وسائل مواجهتها.

٤- افتقاد الجموع العربي والإسلامي لما يمكن تسميته بـ(المشروع الحضاري العام)، أو بمعنى أصح، افتقاد الوعي به والاتفاق عليه .. أنه يمثل (الرؤية الكبرى) التي تعين على استقرار الواقع عليه و(غريبله) التاريخ، واستشراف المستقبل.. إنها تجمع الأجزاء المبعثرة في إطار كلي عام .. تبث الروح في الأعمال والمشروعات، وجماع القول، فإن مثل هذا المشروع الحضاري العام يبرز (الهوية الثقافية) الخاصة بمجتمعنا.

٥- ويرتبط بهذا أنك تجد - في الغالب والأعم - جموع المتقفين في عالمنا العربي.. (رجع صدى) .. هؤلاء قوميون متأثرون بنشأة القوميات الأوربية، هؤلاء اشتراكيون معتدلون، واشتراكيون فابيون ، واشتراكيون كذا وكذا .. وهؤلاء ماركسيون، وهؤلاء وجوديون. إلى غير ذلك من تصنيفات كلها (ظلال) لـ (أصول) ظهرت هناك شمال البحر الأبيض المتوسط أو غرب الأطلنطي!

٦- وهذه الأوضاع وتلك، قد استطاعت أن تستتبت لها جموعاً من (المنتقفين) ممن يرتبط وجودهم باستمرارها.. من تتوثق مصالحهم بدوامها فيزرعون الخوف ويثيرون الرعب كي يظل كل في مكانه ليستمر الحال على ما هو عليه .. ولأن (دوام الحال من المحال)، تكون النتيجة أن يجيء يومنا أقل إشراقاً من أمسنا!

ومن ثم، فإن البحث عن الدور المفقود للمتقف يرتبط بالإجابة عن السؤال التالي: أين فقد؟ وعندما نستطيع أن نحدد المكان وتكون لدينا الشجاعة في التصريح به، فإن الأمل كبير في العثور على (عزيزنا) المفقود!!

العقاد بين شباب أمس وشباب اليوم*

سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً ، هي ذلك التغيير الدائم في كل جانب من جوانب هذا الكون الذي نعيش فيه ، حتى لقد أصبح من العبارات الشائعة القول بأن (دوام الحال من المحال) . ومن هنا فلا بد ليومك أن يجيء - من بعض الوجوه - مختلفاً عما كان عليه أمسك ، وليس لك إلا أن تتوقع كذلك أن يحمل غدك بعضاً مما لم يكن قائماً في يومك أو أمسك .

وإذا كان التغيير " حركة " ، فإن للحركة اتجاهات ، إذ قد تكون إلى يمين وقد تكون إلى يسار (بالمعنى الجغرافي) ، كما قد تكون إلى أمام ، وقد تكون إلى خلف . وكاتب هذه السطور ممن يؤمنون بأن اتجاه حركة التغيير في مسارها التاريخي العام ، لا بد وأن يكون إلى أمام ... إلى تقدم . صحيح إنك قد تجد (وقوفاً) في لحظة من لحظات الزمان ، وقد تجد (تقهقراً) إلى خلف ، لكن هذا وذاك لا ينفي القاعدة الرئيسية .

انظر إلى هذا المجري العام للنهر الكبير ، فسوف تجده سائراً إلى أمام . ومن هنا فقد تجد هذا المجتمع أو ذلك قد صار إلى جمود ، أو أن هذا المجتمع أو ذلك قد سار إلى تقهقر وتخلف ، لكنك إذا أبصرت المسار التاريخي العام للمجتمع البشري ، بغض النظر عن هذه البقعة أو تلك ، بغض النظر عن هذه اللحظة من الزمان أو تلك ، فلن تخطئ عينك هذا القانون الذي هو قانون التطور والتقدم .

وإذا كان بمقدور هذا الشخص أو ذلك أن يوقف (جزءاً من النهر) ، أقصد هنا نهر الحياة البشرية الكلي ، فإن حركة التطور والتقدم العام ليس بمقدور أحد أن يوقفها ، إلا لمن كانت لديه القدرة على إيجاد مثلها ، وهو الأمر الذي نؤمن أشد الإيمان ، بأنه فعل مقصور على القدرة الإلهية وحدها " إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " .

* مجلة الهلال ، مارس ١٩٨٧

نقول كل هذا ونؤكد ، حتى لا يقع في وهم قارئ مقالنا إننا نريد به أن نؤكد أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ذلك أن (حكاية) المقال تتجه إلى تقديم آيات التقدير إلى شباب أمس وتكاد ترفع العصى والكرابيج على شباب اليوم !

إننا نؤكد إنها مسألة (ظروف) سيئة طاحنة تحيط بشباب اليوم ، وأن تغيير هذه الظروف أمر ليس مستحيلاً ، لكي ينزع شبابنا هذا الغطاء المتهرئ الذي يكسوه ، ويمزق تلك القيود التي تغل حركته إلى أمام . ليست المسألة (طبيعة) خاصة أصبح عليها شباب أمس جعلتهم ينشطون ويجاهدون وبينون ويعمرون ويبتكرون ، وليست (طبيعة) خاصة أصبح عليها شباب اليوم جعلتهم يتقاعسون ويتمردون من يمين أو من يسار (بالمعنى الفكري) .. إنها (أوضاع) تسري عليها هي نفسها سنة التغيير ، أي قابليتها للمحو والاختفاء بكل ما يتعلق بها من تخريب لضحاياها من مواطني هذا البلد الذين أصبح عليهم أن يواجهوا هذا (الزمن الرديء) .

لكن ما هي الحكاية بالضبط ؟

في صيف عام ١٩٣٣ ، كانت دار الهلال تصدر مجلة باسم (كل شيء والدنيا) ، وقد تلقى رئيس تحريرها الأستاذ إميل زيدان الرسالة التالية من صاحب التوقيع :

حضرة الأستاذ الكبير / إميل زيدان :

بعد الاحترام ،

تعلمون أن هيئة من كبار المستشرقين تقوم منذ ربع قرن بتأليف دائرة معارف إسلامية كبيرة تجمع خلاصة بحوثهم في مختلف الشؤون الإسلامية من تاريخ وأدب وفلسفة وتشريع ودين .. الخ ، وكتبت هذه الدائرة بأمهات اللغات الأوربية * الإنجليزية - الفرنسية - الألمانية * .

ولقد تكونت أخيراً لجنة من متخرجي الجامعة المصرية لترجمة هذه الدائرة الكبرى وإخراجها في أجزاء دورية . وبدأت هذه اللجنة عملها منذ شهر يناير عام ١٩٣٣ ، وسيظهر العدد الأول في شهر أكتوبر القادم ، لذلك يسر اللجنة

كثيراً أن تعلم رأى عزتكم في أهمية نقل هذه الدائرة إلى اللغة العربية ، فترجو ان تتكروا بموافقتنا برأيكم السيد في هذا الموضوع .
وتفضلوا

سكرتير اللجنة : أحمد الشنتاوى

وأعطى أميل زيدان الخطاب إلى عباس محمود العقاد الذي قرأه فأكبر هذا العمل خصوصاً وهو يحتاج إلى جهود علمية ومالية كبيرة . لقد كانت المشكلة التي لمسها العقاد أن الجهود العلمية لهذا النفر من شباب الخريجين إذا سهلت ما لهم من نشاط وكفاءة ، فكيف يستطيعون تذليل الصعوبات المالية في بلد مثل مصر لم تكن فيه جمعيات لمساعدة المترجمين والمؤلفين ، كما كان جمهور القراء في ذلك الوقت ليس من الكثرة التي تشجع على الترجمة والتأليف ، ولم يكن هناك تشجيع واسع لنطاق من جانب الحكومة ؟

قال العقاد هذا عن مجتمع (١٩٣٣) ، ولعمري : ماذا كان سيقول لو أنه عاش عام (١٩٨٧) ليلمس (درجة) إقبال القراء على مثل هذه الأعمال وتشجيع الدولة لأصحابها ، لعله كان سيردد قول القائل :

رب يوم بكيت منه فلما مضى بكيت عليه !

وعندما خالجت العقاد الأفكار السابقة ، تحفز إلى زيارة اللجنة في مركزها الذي اتخذته لنفسها بشارع قصر النيل رقم ٣٣ ، وفي السادسة مساء ، كان أمام هذا الرقم ، وقال قائل : " هم في غرفة رقم (٥) من هذه العمارة " ، واقتاده صاعداً حتى انتهيا إلى هذه الغرفة ، فإذا بالعقاد أمام أربعة من الشباب قد انعطفوا على منضدة يبحثون ويدرسون في ضوء مصباح كهربائي يعلو رؤسهم . وبعد أن سلم عليهم أخذوا يحدثونه عن مشروعهم ، ووجد من حماسهم ما سهل أمامه كل صعوبة ، وما جعله يوقن أن هؤلاء الشبان الأربعة ، على قلة عددهم والصعوبات المالية التي تعترضهم ، لا بد أنهم سيصلون إلى بغيتهم وسيحققون فكرتهم التي هي بالطبع فكرة حميدة تخدم أمتهم ، بل والأمة العربية كلها وسائر الشعوب الإسلامية ، خدمة تتناسب وسمعة الجامعة المصرية التي أنبتتهم والتي هيأتهم ليقوموا بواجبهم

من نشر الثقافة وتغذية حركة النهضة الفكرية التي كانت مصر تشهدا في ذلك الحين بمواهبهم وجهودهم .

وكان مما جعلهم يشعرون بمقدار ما عليهم من واجب ، أنهم من متخرجي كلية الآداب ، وأنهم بهذه الصفة مكلفون أن يرفعوا من سمعة هذه الكلية خاصة وسمعة الجامعة عامة بما يقدمونه من خدمات للثقافة الحديثة ، وقد رأوا أن المستشرقين قاموا بخدمات للغة العربية والحضارة الإسلامية في نواح كثيرة ، وأخذ بعضهم منذ ربع قرن يؤلف دائرة معارف لهذه الحضارة ، فاخترتوا أن تكون باكورة خدماتهم أن يقوموا بترجمة هذه الدائرة .

وبعد ذلك ، اجتمع الأساتذة : أحمد الشنتاوى ومحمد ثابت وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، وهم الشبان الأربعة الذين كانوا يؤلفون هذه اللجنة ، وتوالت الاجتماعات عدة مرات ، وقامت في بادئ الأمر أمامهم بعض الصعوبات ، منها شراء الدائرة باللغتين الإنجليزية أو الفرنسية على الأقل ، وكان ثمن النسخة الواحدة الإنجليزية أو الفرنسية في ذلك الوقت خمسة وعشرين جنيهاً وهو مبلغ ، بمقاييس ذلك الزمن كبير للغاية ، فماذا فعلوا ؟

خاطبوا الأمير عمر طوسون في الموضوع ، وبعد مناقشة ، اقتنع بأن هؤلاء الشبان قد صحت عزمهم على القيام بهذا العمل الجليل ، وفي ضوء هذا الاقتناع ، أهدى إليهم النسختين الإنجليزية والفرنسية اللتين كانتا عنده .

وبغض النظر عن الموقع الطبقي لعمر طوسون ، وبغض النظر عما يمكن قوله بأنه كان جزء من رأسمالية تقوم على الاستغلال ، وبأن ما كانت تتمتع به من ثروة ، لم تكن لها ، فإن لنا أن نقارن بين سلوكه وسلوك أضرابه من رأسمالي اليوم ، وهم أيضاً يمارسون الاستغلال الرأسمالي ويحصلون على أجزاء ضخمة من ثرواتهم بغير طريق الإنتاج وإنما عن طريق العمولات غير المشروعة والنهب أو السرقة والمضاربات أحياناً على قوت الناس وحياتهم ، فعمر طوسون كان متقفاً يفتني ويقرأ بوائز المعارف وغيرها من أمهات المصادر ، ويمارس

الكتابة والبحث والتأليف ، ويقف مسانداً للجهود العلمية للشباب ، فمن من أغنياء اليوم يفعل ذلك ؟

وبدا شبابنا الأربعة يعملون من أول يناير (فيشا) لهذه الدائرة ، وأخذوا يستعينون بإرشادات بعض الأساتذة والفنيين حتى تمكنوا من أن يعملوا للجزئين الأول والثاني سبعة عشر ألف (فيش) ، وقدروا للجزء الثالث ثمانية آلاف (فيش) فيكون مجموع (الفيش) خمسة وعشرين ألفاً، ثم شرعوا ابتداء من أول مايو يترجمون ، واعتزموا أن يصدرها هذه الترجمة في أجزاء دورية يظهر كل شهرين جزء ، وقد ساهم كل منهم في طبع الجزء الأول من هذه الترجمة بعشرة جنيهات ، وجعلوا اشترك الجزء الواحد ثمانية قروش . وعندما انتهوا من ترجمة الجزء الأول ، أرسلوا بروقاته إلى الأمير عمر طوسون ، فاطلع عليه وأعجب به ، وتقديم مبلغاً من المال إعانة لهم على المضي قدماً في هذا المشروع الجليل .

وبعد أن ينتهي العقاد من روايته هذه عن جهد مجموعة من شباب الجامعة في أوائل الثلاثينات يعقب على ذلك ويقول :

" ولا شك أن نشاط الشباب وحماسه وإقدامه سيتغلب على كل صعوبة وسيصل بهم إلى الفوز والنجاح مهما طال الزمن ، وسيسجلون لأنفسهم بذلك خدمة جليلة للنهضة العربية يذكرها لهم المتفنون بالثناء والإعجاب ما رجونا من الغرب مساعدة ولا رأينا فيه خيراً ، وما من مصري لابس الألمان أو الفرنسيين أو غير هؤلاء وهؤلاء لم يعرف أهل الغرب على حقيقتهم ولم يستشف ما وراء تصنعهم من رأي في الشرق لا يتغير وعنجهية غريبة تنطوي على كل ألوان المطامع والتعصب والاستهتار " .

وإذا كان هذا هو رأي العقاد في شباب الأمس كما قرأنا في العدد / ٤٠٥ من مجلة (كل شيء والدنيا) الصادر في الأربعاء ٩ أغسطس عام ١٩٣٣ ، فماذا يمكن أن نقول نحن في شبابنا اليوم ومدى ما يبذلُه من جهد على الطريق الحضاري ؟

نحن لن نذهب بعيداً ، فمن حسن الحظ أن زميلنا الدكتور محمد وجيه الصاوي بتربية (الأزهر) معنى بجمع تراث العقاد المتناثر في الصحف والمجلات القديمة ولم يسبق نشره ، فلما أعطانا المقال الذي أشرنا إليه ، وجدنا ملحقاً به (تعليقاً) لأحد طلاب السنة النهائية بنفس الكلية ضمن مشروع زميلنا حيث كان طلب ذلك من مجموعة من طلابه ، ويجيء في التعليق :

" .. فعندما كتبت هذا الموضوع وقرأته شعرت فعلاً من العزم والعزيمة والمصابرة (هكذا في الأصل) من الطلاب الأربع الذين يحاولون ترجمة من المعارف الإسلامية المكتوبة باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وهذه الدائرة من المعارف لا يستفيدوا (هكذا بالأصل) بها بلد تتكلم العربية كمصر فأرادوا (!!) هؤلاء الطلاب بترجمة هذه الدائرة إلى العربية ونشرها في أجزاء دورية أي كل شهر ولكن تواجه هؤلاء الطلاب المجاهدين في نشر الثقافة لبلدهم عدة صعوبات حاولوا التغلب عليها بتفكيرهم .. " وعلى هذا النحو تسير سطور التعليق .
وبطبيعة الحال ، فإن الأخطاء اللغوية بالنسبة لخريجي الجامعات اليوم ، قد أصبحت مشهورة إلى الدرجة التي جعلتنا (نتعود) عليها ، وإلى الدرجة التي تجعلنا ربما (نمل) الحديث عنها والإشارة إليها ، فما الذي يستوقفنا إذن في حالة اليوم ؟ الذي يستوقفنا إنها خاصة بخريجي (الأزهر) ، وعندما نقول الأزهر ، نقفز إلى أذهاننا على الفور وظيفته الأساسية في الحفاظ على (الثقافة) الإسلامية ، هذه الثقافة التي يتعذر الوعي بها وتطويرها بدون وسيلة التعبير عنها وهي اللغة العربية ، وعندما نجد أن (المعقل) الرئيسي هذا حاله ، فيماذا يمكن للإنسان أن يعلق على هذا !؟

ومن ناحية أخرى ، فهؤلاء الطلاب ليسوا مجرد طلاب أزهر ، وإنما هم الذين سيتولون مهمة (تعليم) و (تربية) أجيالنا الجديدة ، وهو الأمر الأخطر ، والأدهى والأمر ، فأى مستقبل إذن ينتظره حقاً أبنائنا وبناتنا على يد هؤلاء المربين ؟

ومن الغريب إنك في الوقت الذي كنت تلمس فيه حرصاً شديداً من شباب
الأمس على إتقان لغة أجنبية تمكنهم من أن يعبوا بقدر ما يستطيعون من ثقافة
الغرب حيث كانت هي المصدر الرئيسي لحركة الإنتاج الحضاري في العصر
الحديث ، كان هؤلاء في الآن نفسه لا يتوقفون عن التزود بأساسيات الثقافة العربية
إلى درجة الإتقان ، ومن هنا فقد برعوا في الترجمة إلى حد كبير ، لأن الترجمة لا
تعني مجرد إتقان لغة أجنبية ، بل من الضروري إتقان اللغة التي ستترجم إليها إذ
لكل لغة (منطقتها) و (سيكلوجيتها) و (إجتماعيتها) ، وكان القارئ للعمل
المترجم - من أجل هذا - لا يشعر بصعوبة فهم أو استيعاب ، وكان الكتاب
(مؤلف) وليس مترجم .

وكم كان الأمر يبعث على التقدير والإعجاب أن تجد بعض خريجي
الجامعات وهم ما زالوا طلاب بعثة ، يترجمون أعمالاً كبيرة وخطيرة ، مثلما فعل
(محمود الخضيرى) في ترجمته لكتاب ديكارت الخطير (مقال في النهج) ،
ومثلما فعل (محمد عبد الهادي أبو ريدة) في كتاب (أم ميتر) الضخم عن
(الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) . ولم تكن روعة هذه المترجمات
تكمن فقط في سلاسة عباراتها وسلامة لغتها ودقة تعبيرها عن الأفكار الأجنبية
التي تترجمها ، بل إن هؤلاء (الشباب) من المترجمين لم يقفوا أمام النصوص
مجرد رواة ونقلة ، وإنما أضافوا وعلقوا وناقشوا وفندوا .

ونعود إلى التساؤل عما فعله شباب جامعاتنا اليوم من جهود كهذه ؟

مرة أخرى ، لسنا ممن يريدون القول بأن " ليس في الإمكان أبدع مما
كان " كما شرحنا في مستهل المقال ، وإنما نؤكد أنه إذا كان من (الممكن) أن
يكون يومنا أقل مستوى من أمسنا ، فإن غدنا (لابد) أن يجيء أفضل من كل من
أمسنا ويومنا ، وأول خطوة إلى ذلك أن نعكف على تشريح واقع اليوم لتعريف ما به
من أوجه قصور والكشف عن القوى المسؤولة والوقوف لها بالمرصاد ليعود منطق
التاريخ الذي يحتم الماضي نحو التقدم .

الخيطة والمسبحة*

أشار الأستاذ الألمعي حليم فريد تانرس في بريد الخميس ٤/١٠/٩٢ إلى ظاهرة الإقبال غير العادي على تلك الكتب التي تروج للغيب والفكر الخرافي، وكنت واحداً ممن أولاهم الأستاذ الفاضل ثقته بطلب الرأي.

ولقد ترددت بعض الوقت نظراً لتعقد الظاهرة وارتباطها بأبعاد متعددة يتطلب شرحها ما تتو به مساحة هذا الباب، لكن، نظراً لجاهزية بريد الأهرام أثرت هذه الملاحظات الموجزة السريعة:

١- لا بد أولاً من التفرقة بين ما هو (غيبى) وما هو (خرافى)، فالإيمان بالغيب من شروط الدين، نص على ذلك القرآن في الآية الثالثة من سورة البقرة حيث كلن من صفات (المتقين) أنهم "يؤمنون بالغيب.."، واعتقد أن ذلك شأن المسيحية والإنجيل أيضاً، فالغيب موجود وإن كان غير محسوس بطريق مباشر، أما الخرافى، فهو غير موجود، ويقوم على الربط بين أشياء لا رابطة سببية بينها، كالظن بأن زيارة الأضرحة -مثلاً- تشفى من المرض.

٢- إذا كان للإنسان المصري، منذ فجر التاريخ حاجة إلى "عقيدة دينية" تهديه سواء السبيل، فهو في العصر الحاضر بحاجة كذلك إلى ما يمكن تسميته "بعقيدة وطنية" تمثل حلماً قومياً بالموقف العام من المشكلات والقضايا المجتمعية حاضراً ومستقبلاً. ولقد حرصنا، ومنذ السبعينات، على إثبات فشل ما سبق، ولم ننجح - حتى الآن - في إيجاد البديل الذي يحصل على الإجماع القومى. وافتقاد العقيدة الوطنية أشبه بافتقاد المسبحة للخيطة الذي يربط حياتها، فيضل الشباب، بصفة خاصة الطريق إلا ما يملأ الفراغ، وهنا تشتد حاجة

* نشرت بـبريد الأهرام، والعنوان من وضع محرر الباب

هؤلاء إلى (القوى الخفية) ويتم الخلط بين عالم (الغيب) وعالم (الخرافة) فتسود المفاهيم المغلوطة وتنتشر الأساليب غير السوية، مادياً ومعنوياً.

٣- على الرغم من إيماننا بأن (التربية) ليست دائماً (فاعلاً)، وإنما هي - تحت ضغوط الظروف السياسية والاقتصادية - أحياناً ما تكون (مفعولاً به)، إلا أن للبيت والمدرسة دوراً لا يستهان به. لكن المشكلة أن الأب والأم حالياً لا يجدهما الأبناء، وخاصة الأب، الذي هو (عامود الخيمة) - إذا صح هذا التعبير - فيتجهون إلى الشارع بلا انضباطيته وسوء ألفاظه وانحرافه السلوكي وقبحه، وإلى غيره مما يخفى على أجهزة ومؤسسات التوجيه والرقابة. والمدرسة، بحكم ما صارت إليه، همها الأكبر هو (الامتحانات)، وما يرتبط بها من (شحن معرفي)، ملقبة شأن (التربية) على عاتق مستوى (الكلام) منطوقاً أو محرراً.

هكذا تقنضي المسألة (استنفاراً قومياً) يبيث الوعي الديني السوي، ويجمع الرأي على عقيدة وطنية تميز الشخصية المصرية، وينهج البيت والمدرسة نهج (التربية الوقائية) التي تتحسب وتبني إنساناً مصرياً قادراً على مواجهة الحاضر والتخطيط للمستقبل.

المحتويات

- ١- مسئولية معلم اللغة العربية في التكوين الثقافي للمواطن ————— ١
- ٢- المسؤولية الثقافية للغة العربية ————— ١٤
- ٣- هل تزريح العولمة لغتنا العربية من على عرش التعليم ————— ٢٤
- ٤- اللغة الثالثة ————— ٣٢
- ٥- تخريب لا تهجين ————— ٣٥
- ٦- المجمعى الجديد ونخيرته النفسية ————— ٣٩
- ٧- أسماء على غير مسمى ————— ٤٢
- ٨- عود على بدء ————— ٤٦
- ٩- ثقافات ————— ٤٩
- ١٠- بلبله مفاهيمية ————— ٥٢
- ١١- حق الاختلاف ————— ٥٦
- ١٢- ثقافة البعد الواحد ————— ٦١
- ١٣- عبيد في سوق رفيق الفكر ————— ٦٩
- ١٤- فكر التنفيس .. وتحريك الفكر ————— ٧٨
- ١٥- مناظرة أم مناقرة ————— ٨١
- ١٦- منطق المواجهة العلمية وأسلوب إطفاء الحرائق ————— ٨٤
- ١٧- حاجتنا إلى ثورة الإصلاح المعرفى ————— ٨٨
- ١٨- الوظيفة الاجتماعية للمعلم ————— ١٠٠
- ١٩- الظروف الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في تكافؤ الفرص
التعليمية كما تصورهما بعض روايات نجيب محفوظ ————— ١١٣
- ٢٠- رؤية أدبية لتاريخ العلم ————— ١٢٤
- ٢١- هل جنى أحمد أمين على الألب العربى ————— ١٢٨
- ٢٢- الاتجاه التجريبي العلمى ————— ١٣٧

- ٢٣- حسن البنا يهاجم طه حسين والعقاد ١٤٦
- ٢٤- إعصار في الفكر العربي الحديث ١٥٤
- ٢٥- دور المجلة الثقافية في النهضة العربية الحديثة - دراسة
حالة لمجلة المنار ١٦٤
- ٢٦- وادي الديموع ١٧٢
- ٢٧- "الخرافة" في التاريخ المصري ١٨٠
- ٢٨- المسؤولية الثقافية للتعليم ١٩٢
- ٢٩- أجيالنا بين التقدم والتراجع ١٩٨
- ٣٠- تجربة د. زكي نجيب محمود التربوية ٢٠٢
- ٣١- كيف تكرم (التربية) رجال الفكر والصحافة ٢١٣
- ٣٢- تجفيف ينابيع الثقافة بالجامعة ٢١٧
- ٣٣- وهم إسمه: علمي وأدبي ٢٢٠
- ٣٤- وهم آخر: ثنائية العلمي والنظري ٢٢٣
- ٣٥- شهداء قضية ٢٢٦
- ٣٦- "No Problem" و"مفيش فائدة" ٢٣٥
- ٣٧- اغتيال الآخر ٢٣٨
- ٣٨- حائط المبكى والبحث عن القط ٢٤٢
- ٣٩- الرصاصة لا تزال في كتابي ٢٤٩
- ٤٠- كلنا في الهم شرق ٢٥٢
- ٤١- العقاد بين شباب أمس وشباب اليوم ٢٥٨
- ٤٢- الخيط والمسبحة ٢٦٥